عندما تُوصَد الأبواب فللسقوف أبواب مفتوحة

@ketab_n

@ketab_n
29.5.2015

ديتوكس

سوزانا برابتسوفا

ترجمة: د. خالد البلتاجي

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

سوزانا برابتسوفا

ديتوكس

رواية من الأدب التشيكي

@ketab_n

"عندما تُوصَد الأبواب فللسقفوف أبواب مفتوحة"

ترجمة د. خالد البلتاجي

Twitter: @ketab_n

دیتوکس

سوزانا برابتسوفا

Twitter: @ketab_n

ديتوكس

المؤلف: سوزانا برابتسوا

ترجمه: د. خالد البلتاجى

الطبعة الأولى : 2015

رقم الإيداع 2014/21128

الترقيم الدولي:978-977-319-213-6

الغلاف: محمد السيد

60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة

ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

The Ministry of Culture of the Czech Republic supported this translation.

Copyright © 2010 Zuzana Brabcoá

Twitter: @ketab_n

بطاقة فهرسة

برابتسوفا،سوزانا

ديتوكس: رواية من تشيكية/سوزانا برابتسوفا: ترجمة خالد البلتاجي .– القاهرة: العربي للنشر والتوزيع 2014

- ص؛ سم. تدمك 9789773192136

1- القصص التشيكية أ-البلتاجي، خالد (مترجم)

ب- العنوان 891,863

Twitter: @ketab_n

إلى سارة ....

فوق فراغ السقوف، وفي أعماق حبة الثلج

صرير التقاء الحواف يعلو

إيفان ديفيش

.

Twitter: @ketab_n

ها أنتِ تعرفين: راحت بعض الحقائق تطوف المدينة عامًا بعد عام، تتلوى هنا وهناك، لكن سرعان ما التصق بعضها بكل قوة بكسوة الحوائط، وبلحاء الأشجار، وبجِلد إنسان غريب، في نقطة محددة. ها أنتِ اليوم تعرفين بالأمر. لكنكِ وقتَها ظننتِ أنها ستتجمد إلى الأبد، وستختفي في الأعماق فوق السقف، حيث تنفرج القبة السماوية.

لكن العِفريت الصغير يحتضنك بين ذراعيه بكل إحكام، فلطالما سجنْتِه في جوفك الذي ظل يقرعه. ليته عرف على الأقل كيف ينطق حرف النون! "لن تـنـفـرج، لن تـنـفـرج، لا شيء هناك ينـفـرج!" ولأنكِ جوعانة مثل حيوان ظل لأسابيع وأشهر قابعًا في أعماق ملتهبة بإحدى الجُزُر، غير قادر على فهم ملامحه المثالية، ما زلتِ راضية بقسوة ما مرَّ بكِ، بصورة الماضي، وبهيكل لوحة مجردة.

***

وضعها رَجُلَا الإسعاف بزيهما الورديّ فوق السرير، ثم صَفَقَا الباب. قالت وهي تخاطب الفراغ الضيق الذي تزاحموا فيه لعدة سنوات:

- أنا مثل تلك الضفدعة. ضفدعة في بئر ماء، انفجرت جمجمتها عندما رأت البحر لأول مرة.

انطلقوا في طريقهم يجوبون المدينة، يتباطؤون عند تقاطعات الطرق ثم ينطلقون. وهي تتأرجح فوق السرير، تستند بكفها على سقف السيارة، وتنظر إلى أعلى. إلى ما وراء السقف، حيث السماء مفعمة بسُحُب فبراير،

Twitter: @ketab_n

ورياح هائجة تهب عكس اتجاه عربة الإسعاف. كتل الجليد تنوء بها سحبٌ تَجْأَر وتدوِّي، وتبحر إلى سماء أخرى مختلفة، غير هذه السماء. وشيء ما يثور أثناء الحركة. شيء له اسم، لكنها نسيت اسمه.

- أشرب... أرجوك! أعطني ماءً....

ها هي تتذكر اسمه. إنه العطش. عطش شديد لم تشعر بمثله من قبل.

التفت إليها رأسٌ بشعر أحمر لامرأة عارية، تضع وَشْمًا فوق مؤخرة عنقها البدين، استدارت وقالت بنظرة شاردة:

- ليس لديَّ ماء يا سيدتي. اهدئي من فضلك! ها نحن نقترب، وبالتأكيد سيعطونكِ هناك شيئًا تشربينه....

أخذت تتوسل من جديد وهي ترى رجلًا في مقدمة السيارة يرتشف الماء من زجاجة بلاستيكية:

- أعطوني ولو قطرة ماء واحدة.... ليحملوني إلى حيث يريدون. الشيء الوحيد الذي معي الآن هي تلك الحقيبة التي أحملها على ظهري. هل تعرف "ريبكا" ما هي حقيبة الظَّهر؟ هل تعرف ما هو الجِراب؟ أو كيس الزاد؟ عندما أعود... تختلط السحب التي تنظر إليها مع سقوف مسطحة لمبانٍ شاهقة، "سيمنس"، و"مايكروسوفت"، و"هيولد باكار".

تشد أربطتها سعيًا للحصول على الماء، على قطرة ماء واحدة، تشققت شفتاها من العطش، تجاهد كي تتذكر إحدى الشتائم، لكنها نسيتها جميعًا بعد كل تلك الأعوام التي قضتها مع "داليبور"، صمت خلالها الحديث الخشن.

- تحمّلي يا سيدتي! نحن على وشك الوصول! لا تغضبي مني، فأنا رجل بسيط، وهناك رجل غيري مسؤوليته أن يعطيكِ الماء....

Twitter: @ketab_n

ما هذه اللغة الغريبة؟ ربما أنها تعثّرت في إكمال المزحة، فتدخّل هذا الرجل الأحمر ليكملها. وعندما ينتهي هذا المسكين من مزحته التي يحكها للسائق، وتخرج من فمه في لحظة صمت مربكة. يتوجه بعدها مباشرة إلى البيت.

نحن على وشك الوصول، لكن إلى أين؟ يشعل أحدهم الورقة كي يخفي الدليل، فتأكلها النيران على مهل في حوض الاغتسال. شفاه جافّة، وأوراق قديمة، وأفرع جافة تتصدع تحت الأقدام. يترك مقاطع الكلمات تهرب منه في هدوء، والسماء يحجبها العطش، وسُلطة غاشمة تُخبئ كل ما ظهر لها. لم تعد هناك بوابة خروج، ولا سيارة إسعاف تتحرك من مكان إلى مكان، اختفت حقيبة الظَّهر بجوارها، ولم تعد هناك ذكرى لـ "ريبكا". تجاوزت العطش، ونَهَرَت كبدها، اعتصرت كل وجودها حتى صار جافًّا، ثم ألقت به في الصحراء كخِرْقة بالية.

- يا "ريبكا"! أنتِ لا تعرفين ما كُنت أضعه في الحقيبة عندما ذهبنا في جولة إلى منطقة "شاركا"، وإلى وادي "بركوبسكي"، وعندما مررنا بمدينة "بيرونكا" فوق أرض صفراء تطوق مستعمرات البيوت الريفيّة، ننتعل حذاءً رياضيًّا. وضعوا بيني وبين علامات الطريق، وبيني وبينكِ كومةً من الكذب لم أستطع يومًا أن أتخلص منها، هل ما زالوا ينتجون تلك الأحذية الرياضيّة؟

لا أحمل الآن في حقيبتي ضمادات جروح، ولا بطاقة تطعيم، ولا خبزًا مدهونًا بعجين السجقّ الذي التصقت رائحته بكل شيء. كان عليّ أن أُرسل لكِ رسالة قصيرة من الهاتف كي لا تنزعجي، كي لا تجوبي المستشفيات غدًا وأنتِ خائفة، تبحثين في كل الحالات الطارئة التي دخلت المستشفى، وفي مشارح الجثث، لكن جسدي المُوثّق بالأربطة قد تحول إلى حَجَر، وصار مثل نُصب تذكاريّ. أحاول أن أرفع ذراعي، لكنه صار كحَجَر رمليّ، أو حجر من الجرانيت، أو المرمر، ولم يعد ذراعي، استلقى هامدًا بجوار جسد غريب، مثل قدمي أبي الهول.

Twitter: @ketab_n

عربة الإسعاف تسير بلا توقف. وفوق السقف مبانٍ زجاجية تَمْرُق، ترى العمال يضعون إعلانات ضوئية. ترفع رأسها لتصل إليها، إلى إعلان عن بيرة «ستارو برامن» الذي صُنِع من مصابيح مُلوّنة. تُحلّق وتشرب ذلك الصدأ الوامض اللاذع، والبارد. تصوِّب نظرها نحو خفّ ترتديه، برز نحو السحاب فوق عربة الإسعاف. فجأة أعجبها منظره، إنه خفّ وَبَريّ بنفسجي اللون. من المؤكد أنه من عند الباعة الفيتناميين، أهدته لها أمُّها في أعياد الميلاد. التفت الرجل الأحمر حوله باندهاش. المرأة تضحك كالمجنونة، فقد اعتقدت أن شيئًا تافهًا مثل ذلك الخفّ الذي تضعه في قدميها سيصبح بالضرورة ضامنًا لنهاية سعيدة.

الهروب. الفرار. المغادرة قبل أن تنفجر سيارة الإسعاف مثل كتلة جليد أبيض.

- إلى أين تأخذونني؟

صمتت المرأة، وأتت بإيماءات نسائية، وشرود في الفراغ الأحمر. ابتلع الرجل لكنته، وأخذ يتطلع إلى الطريق في صمت. وفجأة تثاءب بصوت عالٍ حتى جعل المرأة التي كانت مستلقية طوال الوقت تعتدل في جلستها بهمّة، واخضّر لونها. ربما لأنها كانت تشرب عصير الـ "موخيتو" بالثلج. لكنها هي من طلب هذا الشراب! إنها تجلس مع أمها في مقهى تكعيبيّ، والنادل يضع أمامها كأسين، وطبقًا صغيرًا به إكليل من الخبز. إنه بالطبع إكليل مربّع الشكل، فهو مقهى تكعيبيّ. ويجلس عازف موسيقيّ أمام البيانو. مفاصل عظامه تطقطق عاليًا وهو يعبث مُرهقًا في مفاتيح البيانو.

تقول أمي عند سماع أوّل نغمة هادرة:

- أردت أن أتحدّث معكِ، لكن كيف وسط هذا الضجيج....

وأنا، لست هذه المرأة ذات الوشم، أرتشف عصير الـ"موخيتو"، وأبتسم، السبب:

- ألا تستمعين يا أمي إلى ما يعزفه؟

ثم تنطلق أحباله الصوتية البالية بصوت عاطفيّ، وتقول:

يا بو العيون السود، يا بو العيون الجريئة

يا بو العيون الجميلة

أحبك، واخاف منك

أمي لا تصدق أنها مجرد صدفة، وأني لم أطلب من عازف البيانو أن يغنيها. ثم تدسّ الملعقة بكل رضا في إكليل الخبز المكعّب.

تقول دون أن تصرخ:

- إلى أين تأخذوني؟

صراخ دفين. تروّض لهجتها كي تبدأ حديثًا طبيعيًّا وموضوعيًّا، ومهذبًّا يليق بالبشر. لكن الرجل صمت. توقف حتى عن سرد النكات عن الغجر والْمِثْليين لزميله الذي يجلس خلف عجلة القيادة.

توقفت عربة الإسعاف فجأة. وطَرقت الأبواب. ومرّ وقت طويل دون أن يحدث أيّ شيء.

أنا أحلم، لكني لا أحلم بشراب الـ "مخيوتو". فهذا لا يليق، إنهم ذاهبون لشراء ماء كي أشرب، فهم لا يُقلّون جمادًا، أو قطعة حجر رمليّ ترتدي خفًّا. يصبُّون الماء في زجاجة بلاستيكيّة في أحد الحمامات بجوار محطة البنزين،

Twitter: @ketab_n

ويشترون قهوة جاهزة. سائق عربة الإسعاف يشربها مُحلَّاة، ورجل الإسعاف بدون سكر. يشترون أيضًا شريحة خبز مُغلّفة، ومقبّلات بطعم لحم الخنزير المقدَّد. نبع ماء حارّ يتدفق أمام السيارة فوق الطريق. السحب فوق المدينة تتصدّع، وتيار الماء يتوجه مباشرة إلى داخل فمي. وثلاث سيدات إيطاليات سمينات يضحكن، ويثرثرن وهن يَملن على مصدر المياه في يوم صيفيّ حارّ. السادس عشر من يوليو، الساعة الواحدة والربع، عام 2008. أم أنه كان وفي وقت آخر؟ هل هذا مُهِمّ؟

أضع كفِّي أسفل نبع يتدفّق من فوق الجبال. وأنتِ معي. أتابع ظهركِ المائل، الذي يشبه ظهر صبيَّة ضعيفة. وأتابع خطواتكِ القوية التي تقول: هلُمَّ بنا! كُفّي عن التقلب في الفراش بهذه الكآبة، وانهضي! انصرفي! تبختري! امشي! سِيري! امشي بخطوات واسعة فوق هذه الأرض! اضربي بقدميك، واصعدي التلّ! انزلي من فوق التلّ سريعًا! تنفّسي بعمق كما كانت أمك تقول لكِ وأنت فتاة صغيرة. يا إلهي! أنتِ تتنفسين مثل امرأة تَلِد. عليكِ أن تأخذي نفسًا عميقًا! استنشقي الروائح، أنصتي إلى الحسيس القادم من خلف الشجرة لنعرف إن كان صوت حيوان أم صوت حجَر. انظري إلى ذلك التل المتداع، وإلى الفطر النابت أسفله. ما هي آخر مرة عثرتي فيها على فطر حقيقي أبيض؟ رياح تهبّ فوق رؤوس الأشجار، وبين أصابع نسيج العنكبوت، وبعوضة تجلس على كتفك وسط نقطة من دمكِ.

تعطيني لأشرب من كفيكِ، لكنني لا أستطيع، ما نالني منه سوى أن بللت وجهي. امتلأت قدماي بالبثور وما زال أمامي عشرة كيلومترات. وفجأة نرى مَرْجًا فسيحًا في الوادي، مَرْجًا غارقًا في أشعة شمس المغيب. أحتضنكِ، وكأنني أفعلها لآخر مرة. أين هي تلك اللحظة؟ من سيجدها في جسدي الذي تحوّل

Twitter: @ketab_n

الآن إلى تمثال صخريّ؟ أين هي هذه اللحظة... من سيعثر عليها... ولسانكِ في فمي، طعم التوت، رُضابكِ، الحياة.

أخيرًا. فتح الرجل الباب، ثم صفعه مرة أخرى بقوة. وجلس بجوارها فوق المقعد رجل يرتدي معطفًا جلديًّا. نتأت فوق وجهه نظارة بلاستيكية مُربّعة. كان يشبه "آندي وارهول"* قليلًا.

همسَت بعدما انطلقت السيارة:

- أليس لديكم شيء أشربه. أنا أموت من العطش.

رفع إليها بصره متثاقلًا، غير مبالٍ بالرد على تمثال مغلول يرتدي خفًّا بنفسجيّ اللون، وفوق بطنه حقيبة رَثّة. في تلك العَجَلة لم تعثر في الصندوق على حقيبة أخرى. تَحَوّل عنها ببصره دون أن ينبس بكلمة واحدة.

سأتركهم يحملوني إلى حيث يريدون يا "ريبكا" حتى أكفّر عما سببته لكِ. سأظل أطوف في أروقة المستشفيات، وأندسّ في أحشاء الأنابيب. أغطي نفسي أثناء الليل بثرثرة العجائز وأبنائهم عند الأِسرّة المتقرحة. أبناؤهم الذين سئموا من إضاعة الوقت وسط روائح المستشفيات الكريهة. أدخُل إلى رأسي لأُكفّر عن ثرثرة العالم التي لا تنتهي، وصرخة زاعقة لأولاد ماجنة.

انظري! تابعيني وأنا أخرج إلى فناء السجن، ضعيفة ومرهقة. أسكب المرق من الغلاية على قميصي، وأيادي اللصوص الناعمة تتحسسني أثناء الليل. أنصرف إلى صلوات باردة مثل مياه نهر "فلتافا" في شهر يناير، أو أتسمر في فقاعات الصمت إلى الأبد. ثم تأتي قفزات سريعة، انبطاح وانتصاب، انتصاب

* فنان تشكيلي أمريكي شهير بالبوب آرت (1928-1987) – المترجم.

Twitter: @ketab_n

وانبطاح، أطوف حول جبل "كايلاس" الذي تحوم فوقه النسور. فعند سفحه تمنى جدّكِ أن يُقطعوه إرْبًا إرْبًا حتى الموت.
ليحملوني إلى أي مكان غير الحديقة*.

يعاودون الطواف في المدينة فوق رؤوس القطط، وعلى الأسفلت، ويتوقفون عند الإشارات الضوئية. فجأة تنقلب "إيما" على جانبها بقدر ما تسمح به أربطة السرير، وتتقيأ، تتقيأ تحت قدميْ "آندي وارهول". تلمع على أرض سيارة الإسعاف بقعة على شكل قنديل البحر الصغير، فقاعة رسوم هزليّة نسوا أن يكتبوا فيها نصًّا.

سألتهما:

- ألا ترغبان في أن تلعبا معي لعبة البريد الصامت؟

"آندي" لا يفهم كيف سيلعبها معها. فالبريد الصامت لعبة من فرد واحد. فبدأت تلعب مع نفسها. تهمس، وتثرثر، وتتلعثم، وتواصل إرسال الطرود. فجأة عنَت لها فكرة: ماذا لو عكست الأمر في هذه اللعبة، ماذا لو وُلِدت كلمة واضحة المعالم في نهاية اللغو الأوليّ، مثلًا: كلمة "حديقة"، تراها نابضة وكأنها خُلِقت منذ لحظات.

هذه السخرية من الاتساق، كَوْنٌ قبيح تحوّل إلى شكل ثلاثيّ الأضلاع. وطيور نافقة تتساقط بغزارة في النبع في جماعات. ويمر به مسافرون عرايا فوق ظهور الخنازير، يعبرون أرضًا مظلمة، مُطرّزة بومضات الضوء. يلتهم البابا- الشيطان طعامًا فوق كرسيِّه الوثير، ويندد بالفاسدين، ومن حوله موسيقى جهنمية، وشيطان صغير يحمل طبلة، سجنوا بداخلها طفلًا وليدًا.

* الحديقة كلمة غالبًا ما تعني بها الأديبة المستشفى. المترجم.

Twitter: @ketab_n

هنا عقارب، ورجل مصلوب فوق القيثارة، وهناك أذنان معلقتان فوق إبرة، ويبرز منهما مقبض سكين.

التفتت نحوها النظارة متسائلة:

- البابا- الشيطان يلتهم الطعام هناك...؟

- ألا تعرف إلى أين يأخذوننا؟ هل لديكِ شيئًا نشربه؟

أخيرًا يتحدّث "آندي وارهول"، ويقول:

- لا أعرف، يبدو أنكِ تشعرين بالبرد.

خلع "آندي وارهول" معطفه الجلديّ، وبسطه عليها حتى ذقنها.

أيقول رجل الإسعاف شيئًا ما في جهاز اللاسلكي؟ الآن انتبهت إلى أن بوق سيارة الإسعاف لم يكن يعمل. من حسن الحظّ أنها ليست مهمة على الإطلاق، ولا حتّى وارهول. ليست حالة طارئة. كان عليها أن تجرّب مغادرة قسم الطوارئ في مستشفى "موتول" وهي تمشي على قدميها، وتترك لهم دمية من المطاط الصناعيّ فوق سريرها، ثم تصل إلى بيتها، وتنام، أخيرًا بدون حبات الدواء. تنام أربعًا وعشرين ساعة، ثم تستيقظ، ترفع الستائر المعدنية، وتذهب إلى العمل، ثم تتناول الغداء مع "ريبكا". وفي المساء تشعل الشموع، وتشغّل أسطوانة لـ "نيكو"*، ثم تنتظر أن تدقّ "ديتا" جرس الباب. تتحدّث معها، وتضحك، ثم تقضيان الليل في المضاجعة. تستيقظ، وترفع الستائر المعدنية، وتذهب إلى العمل، ثم تتصل بـ "ريبكا"، وتدعو أمها لتناول الـ "موخيتو"، وإكليل الخبز المكعب في المطعم. ببساطة تتحرك في جوف الحياة اليومية الآمن.

---

* مطربة وعازفة موسيقى ألمانية (1938-1988) – المترجم.

Twitter: @ketab_n

تنام طويلًا. لا تُولد الآن. تنام أخيرًا بعد كل تلك السنوات، بدون أقراص. هل ما زال جسمها قادرًا على أن يفعل شيئًا كهذا؟

- هل كنتِ تُعالَجين من قَبْل من مرضٍ نفسيّ؟

مرت ثلاث ساعات وهي ترقد في قسم الاستقبال بمستشفى "مُوتُول"، ويسري في عروقها سُمٌّ آخر. سُمٌّ آخر يضاف إلى ما تجرَّعَتْه خلال اليوم والليل. ظهر طبيب بجوار الستارة العازلة ينادي على امرأة تعرّضت لأزمة سُكر:

- هل تسمعيني يا سيدة "فوراتشكوفا"؟ حرِّكي عينيكِ إن كنتِ تسمعينني!

سمعت "إيما" صوته القويَّ من جديد، يرتفع حتى السقف، ويرتدّ إلى أرض الغرفة. بصيص أمل شامانيّ* يوقظ الموتى. طلبَتْ منهم ثلاث مرات أن يُحضروا لها وعاءً، وتمنّت للمرة المليون أن تنهض، وتشكرهم على الرعاية، ثم تنصرف. وما إن رفعت جسدها قليلًا حتى اهتزّ المكان، ودار، وتحول إلى دوائر لولبية. فتراجعت عما انتوَتْه.

- على مدى أكثر من عام وأنا أنام بدون ألم بعد تناول تلك الأقراص.

- هيّا يا سيدة "فوراتشكوفا"، ها أنتِ تستردين وعيكِ! أتسمعينني؟

- كم قرصًا تناولتِه اليوم؟

نطقت رقمًا ما بصورة عشوائية، ربما خمسة أقراص. لم تتغيّر ملامح وجه الطبيب على الإطلاق. كانت تعرف كل شيء، وترى كل شيء، وتوقعت كل ما حدث لها.

- يجب أن تنتظري عربة الإسعاف.

---

* الشامانيون هم سحرة دينيون موطنهم الأصلي في سيبيريا وأسيا الوسطى –المترجم.

Twitter: @ketab_n

وبعدها بساعة، أو بساعتين، أو بدهر كامل، وضعها رجلا الإسعاف فوق السرير، وصفقا الباب. ثم انطلقا يخترقان شوارع المدينة. السماء مفعمة بسُحُب فبراير، ورياح هائجة تهبُّ في الاتجاه المعاكس للسيارة. السحب تتصدع، وتصير ثقيلة مثل جبال الجليد.

شيء آخر رأته هناك، فوق مدينة براج: طائري "لقلق" يحلقان برشاقة غير معهودة ومعهما خفّ أبيض يدور. يختفيان ثم يظهران من جديد من بين السحب الداكنة. لم تقدر على أن تحوّل بصرها عن ذلك المشهد. أخذت تتابع خطوط سيرهما الرشيقة وهي تتداخل، ثم تتباعد. خلّفا وراءهما في السماء - مثل الطائرات -شبكة من الخطوط. وسرعان ما اختفت من أمام عينيها، ثم ظهرت هناك من جديد. كانا يلعبان لعبة الجدّة. يطارد أحدهما الآخر وسط أكوام الثلوج العالقة في السماء. في لعبة الخفّ الفاتنة هذه ظهر شيء ما يثير القلق والكآبة. شظية ما علقت تحت الجلد. فجأة فهمت الأمر: ابتعد كل منهما عن الآخر إلى الأبد أثناء الرقص المُربك.

كان ذلك آخر يوم لهما معًا في "ليمني كيري". رصوا الحقائب في الحافلة، وانتظروا السائق.

- تعالِ نذهب إلى الصخور لنودِّعها. من يدري متى سنرى البحر مرة أخرى... السائق لن يأتي الآن، فتقدير الوقت في هذه البلدة مختلف تمامًا.

أراد "داليبور" بذلك أن يقول إن السائق قد استغرق في الحديث مع موظفة الخزينة اللَّبِقة التي تعمل في متجر المدينة.

اندفعا سريعًا نحو الصخور التي سقطت بقوة في خليج صغير. لاطمت الموجة الثالثة والخامسة والسابعة كتل الأحجار، وأغرقتها بالكامل.

- انظري! إنه يعاود السباحة.

Twitter: @ketab_n

رأت نقطة صغيرة سوداء وسط البحر، على مسافة بعيدة جدًّا عن الشاطئ. رأت رأس "سَبَّاحهما" دقيقة، بعيدة لا تكاد تراها. يختفي ذلك السبّاح كل صباح وكل مساء في مياه المحيط. عرفاه، مجرد نقطة تطفو فوق السطح، ثم تختفي وسط المحيط الشاسع، لم يره يومًا وهو يسقط في البحر أو يخرج منه. لم يعرفا كينونته، ولا شكله. لن يفعلا شيئًا لو أن هذا الإنسان -رجلًا كان أو امرأة - غطس في الماء ولم يخرج منه إلى الأبد، لو أنهما صارا شاهدين على غرقه هناك، في تلك المنطقة النائية. الموت، متناهي الصغر مثل رأس دبوس، قد لا يكون حدثًا مهمًّا، بل أمرًا ثانويًّا في حركة سرمدية غير مبالية لفضاء أزرق مترامٍ. مجرد موجة وسط أمواج لا تحصى. ببساطة سينزلان من فوق الصخور، ويصعدان الحافلة، ويشتريان في المطار آخِر زجاجة بيرة "ميتوس" اليونانية، ثم يركبان الطائرة عائدين إلى مدينة "براج".

من الأفضل أن تكفَّ عن مراقبة ذلك المثابِر. دافع مفاجئ جعلها تخلع الخفَّ الفليني، وتبسط ذراعيها، ثم تلقي به في البحر. اختفى الخفُّ وسط زَبَد البحر. لم تكن واثقة من أنه سيطفو فوق الماء. أرادت أن تستدير وتنصرف، لكن "داليبور" أمسك بمعصمها. فالخف الأبيض قد طفا فوق السطح، وأخذ يتراقص بشكل جنونيّ وسط الأمواج. زوج منه تحرّك نحو الشاطئ، واتجه الآخر نحو البحر الواسع. ظهرت أحيانًا موجة تقرّب فردتَي الْخف من بعضهما، ثم تلاحقت موجات أخرى لتفرقهما عن بعضهما.

- لِمَ فعلتِ ذلك؟

نظرت إلى "داليبور" في دهشة. رجل نحيف، يرتدي نظارة، بِلحية خفيفة. لم يبادلها النظرات. أخذ يتابع رقصات فردَتَي الخف الأبيض وهما تتباعدان. أنف لفحتها الشمس وكأنها أرادت أن تتحرر من الجسد، و ... وماذا؟ هل

سيقفز من فوق الصخر، ويسبح إلى هناك. تخيلت أنه سيفعل. لكنه لم يفعل. فـ "داليبور" لن يبلّل نفسه بالماء من أجل خفٍّ.

- هل جننت؟ أنت تعرف أني بحاجة لشراء صندل جديد... إنه صار باليًا، كما أن حزام الزوج الأيسر قد انقطع، و....

سمعته وهو يثرثر بكلام غير مفهوم. همهمت هي الأخرى وهي هلعة من حالة الصمت التي سادت بينهما وكأنها فجوة لا يمكنهما تخطيها. تيار من الكلام التافه أخذ يتدفق من كليهما، ويتدفق. لم تفهم عما يتحدث. تحدّثت عن موضات جديدة في أحذية الصيف، وأنها سوف تلقي عليها نظرة بعدما تعود... هي بالفعل في حاجة إليه... تنوي زيارة بعض المتاجر مختارة... ورغم أنها شعرت باشمئزاز شديد من نفسها لم تشعر بمثله من قبل، ورغم أن أحد زوجي الصندل الأبيض اختفى وسط مياه الخليج، وتلاشى الزوج الآخر إلى الأبد، فإن "داليبور" -زوجها الذي لم يرفع صوته يومًا -صرخ فيها، وقال:

- اهدئي! ألا تفهمين؟ كان عليكِ أن تربطيهما معًا!

نعم، سمعته جيدًا. بالفعل صرخ، وقال: "اهدئي!" كان يمكنه أن يقول: "اخرسي!"، أو "اسكتي!" أو "أغلقي فمّكِ!" لكن أشد لحظات السخط لم تتمكن من تغيير قاموسه الخاص.

بعد تسعة أشهر قدّم "داليبور" طلبًا بالطلاق. ومن المدهش أنه لم يذكر في الطلب أي كلمة عن الخفّ الفليني الأبيض.

يبدو أن "إيما" رضيت بكل شيء، بأية ذكرى، حتى بذكرى ارتداء الأحذية القديمة رغمًا عنها. فقط كي لا تكون هنا الآن، كي تهرب من سيارة الإسعاف

Twitter: @ketab_n

ولو لجزء من الثانية. لكن السيارة محكمة الإغلاق. ومنذ تلك اللحظة لن يدخل إليها أو يخرج منها أي شيء.

كانت واثقة من أنها لن تتردد لحظة في أن تبحث عن قرص منوِّم منسيّ في الحقيبة، أو في أحد جيوبها الممتلئة بكسرات الطعام، ونسيت أن تفحصها.

- يا "ريبكا"! لا تنظري إلى ما تفعله أمكِ. أنتِ تبحرين في دمائها، وتتجهين نحو قلبها، وتنصرفين من قلبها فوق سفينة مرتعشة من لحاء شجر الصنوبر. لا تنظري! وأغلقي عينيكِ! أطفئي الأنوار، ونامي! انتهينا منذ زمن من قراءة قصة «كوستاي الخالد»، وكل حكايات «جريم». لم يبق معي سوى حبة واحدة من "ستلنوكس"*، ساعة واحدة لا أعرف فيها شيئًا، أغيب فيها عن الوعي.

بحثت في كل الجيوب، في كل ركن ملايين المرات. نفضت سبعة عشر جزءًا من المكتبة القديمة وهي ترتجف بقوة. نفضتها جزءًا وراء الآخر، وعددًا لا نهائيًّا من الكتب الأخرى التي تساقطت من يدها، والتي اعتادت على مدى سنوات أن تخبئ فيها أشرطة حبات الدواء التي قطعتها بسكين تسوية الأظافر إلى أدنى مستوى. توقفت عن قراءة الكتب منذ سنوات. ورغم ذلك كانت تفتحها بكل نهم حتى أن شفير تلك الأشرطة البلاستيكية الحادة كان أحيانًا يجرح أصابعها. أحبّت الروايات الطويلة بشكل خاص. من ذا الذي لديه الصبر على أن يتصفح بكل حرص الجزء الثاني من رواية «رجل بدون ملامح*».

لم تعثر على شيء. ولا حتى في عبوة الفوط الصحيّة. التهمت خلال اليوم خمس عشرة حبة، وانتهى الأمر. النهاية، ليس هناك من مزيد. فقط شرنقة

---

* أقراص لعلاج الإرهاق والاضطراب العقلي - المترجم.

* ثلاثية للأديب النمساوي "روبرت موسيل" (1880-1942) – المترجم.

Twitter: @ketab_n

بلا هواء، حشرة سقيمة، مسخ حقير فوق السجادة. كفى تفكيرًا. النوم، النوم. لا تفكري في شعوركِ عندما تستيقظين.

وفجأة اخترق برق أبيض وهّاج الوحدة التي كاد عقلها يختفي فيها. انتظرت أن تختفي فيها سريعًا، وتغرق في الظلام من جديد. لكن البرق تجمّد في مكانه، وأخذ يهتزّ وكأنه لُعاب متدفق يتلألأ، ويضيء العدم المحيط بها. ممسحة الأرجل! نسيت ممسحة الأرجل! رغم أنها كانت الملاذ الوحيد الذي تفخر به. حبّات الدواء – وكأنها ليست لها عندما كانت في الرواق – كان عليها أن تتركها في علبة الدواء كي لا تسبب جلجلة وهي في الطبق فتلفت الأنظار، وتتحول الحبات إلى فتات أبيض. فتحت باب الشقة، ثم مالت، وأسندت يديها على الأرض وسط دوامة حارَّة وغريبة: لم تجد أسفل الممسحة سوى طبقة من التراب.

وفي الصباح عثرت عليها جارتها هناك.

الآن نامي يا "ريبكا". ربما سيولد من اسمكِ كل شيء من جديد، تمامًا كما يزدهر سطح نباتات الماء المتشابكة من بذرة واحدة، وأنا سأميل عليكِ، نحو رائحة شعركِ بعد أن تنامي. كنتِ تؤكدين لي وأنتِ صغيرة أنكِ تنامين وعيناكِ مفتوحتان مثل السمكة.

انتبهت إلى أن "وارهول" يراقبها. حاولت أن تبتسم من وراء المعطف الجلديّ. فجأة شهق بطريقة هزليّة كالأطفال، بلا توقف حتى راحت النظارة تهتزّ فوق أنفه. لم ترغب في أن تنظر إليه

وكي لا يشعر بالارتباك. استدارت، رأت على الحائط في الخارج، أحرفًا تجري، وكلمات أخذت ترددها في سِرّها كي تكتشف معناها: "فمي فيها"، ربما تكون

Twitter: @ketab_n

أجزاءً من قصيدة عاطفية، أو... "فمي فيها"، "فمي فيها" – أخيرًا فهمت المعنى؛ لم تكن قصيدة بأي حال من الأحوال، بل اسم شارع: "فميفيها".

وصلوا إلى الحديقة.

خرجت طبيبة من جناح الاستقبال، وأعطت للرجل الأحمر بعض الأوراق. وتقدمت السيارة على الطريق الأسفلتيّ، ونسيت "إيما" العطش. توقفوا.

«ديتوكس»، مصحة لعلاج المدمنين. إذن لن أغادر المكان قبل ثلاثة أشهر على الأقل. الأعراض الجانبية: عزوف عن ممارسة الجنس، تساقط الشعر، أحلام غير طبيعية.

– هلُمّي يا سيدتي! لقد وصلنا!

سحب الرجل الباب بسعادة ليفتحه، وفكّ عني الأربطة. أناول "آندي" المعطف، وأحمل الحقيبة بكل اطمئنان... لم يكن ينتظر ذلك من امرأة مهدّمة: أمسكت مؤخرة رأسه بيديّ بقوة حتى صرخت الآنسة العارية من الألم. انتهزت الفرصة، وفي نوبة قوة مباغِتة لكزته، فراح يترنّح، ثم لاذت بالفرار.

صاح "وارهول" بصوت مفعم بالحيويّة:

– اهربي!

واختفت الشهقة من حَلْقه.

هربت. كنت أعرف جيدًا طريق الخروج؛ فقد جئت إلى هنا في الصيف مع "ديتا" لحضور احتفالية بعنوان «بين الحواجز»، واشتريت سلة مصنوعة من غصون الأشجار لأضع فيها أدوات الحياكة. وجئت من بعدها مرة أخرى لزيارة "داليبور" عندما قُدِم إلى هنا ليحصل على شهادة زرقاء كي لا يلتحق بالخدمة العسكرية.

بالطبع طاردوكِ. أخرجتِ الهاتف من حقيبتكِ وأنت تهرولين:

- "ريبكا!"

- "ماذا يا أمي؟"

- ماذا يحدث؟ أين أنتِ؟ لماذا تتنفسين بصعوبة؟

- لا تخافي، أنا عائدة إلى البيت... سيأخذون منّي الهاتف... فمي فيها. ديتوكس.

ظهر أحد المجانين، يلفّ جسده بالكامل بطوق من القماش، وصار يشبه مومياء جاءت من زمن غابر. صعد فوق أحد المقاعد، وأخذ يحثّني بقوة، ويحرك يديه، ويصيح:

- هيّا! هيّا!

لم يكن واضحًا مع من يتضامن، هل مع رجال الإسعاف، أم مع المرأة التي ترتدي خفًّا؟ ما العيب في أنها بفضل ذلك الخفّ الغبيّ الذي أعطته لها أُمُّها في أعياد الميلاد استطاعت أن تجابه الإثارة في كل المشهد. ما العيب في أنكِ خلعت أحد زوجَيِ الخفّ – وأنتِ تنظرين بطرف عينيكِ، فتَرَيْن المومياء وهي وهي تثب من فوق المقعد، وتهجم على الفريسة، فتقتنصها مثل مُشجّع يلتقط فوطة لاعب رياضيّ مُهملة، وتلفها في القماش سريعًا ووجهها منتشٍ بعلامات النصر – ما العيب في ذلك؟ في أن تتحول تلك المرأة إلى قارب تندفعين فيه من منحدر الحديقة، وتسقطين مباشرة في أحضان "ديتا" الهادئة لتواسيكِ. في مطبخ أمكِ، حيث مياه قهوة تفور. قطعتان سكر، وزفير:

- اسمعي يا أمي! لقد روادني اليوم حلم سخيف جدًّا.

Twitter: @ketab_n

لم تستسلم بعد. لو تمكنت من الوصول إلى كشك الهاتف هناك، ثم المرور بالمبني الرئيسيّ، ثم الدوران حول غرفة الاستقبال لتصل إلى بوابة الدخول ثم الدرَج، ستصل إلى الجانب الآخر. هناك لن يلحق بها أحد.. من يدري ما الذي جعلها تعتقد ذلك. تقسم "إيما" وهي تجري، وهي تفرّ مذعورة بطريقة تدعو للسخرية:

- لو قُدِّر لي الهرب سأبدأ من جديد، سأتخلص إلى الأبد من هذه القذارة، سأقدر عليها، فقد كانت فترة أنا في غنًى عنها، مثلًا...

لكنها عجزت عن أن تتذكرها، عجزت أن تتذكر الوقت الذي لم تكن فيه في حاجة إلى شيء كهذا، لم تتمكن من تحقيقه. كان بعيدًا للغاية. تصدّع خلف الأفق مثل بيضة، وسال في الحديقة، واختفى أثره.

تلمس السحاب، وتضغط عليه بقوة إلى أن يتدفّق منه نهر.

أمسك بها الرجل الأحمر من الخلف برابطة عنقه، ولوى السائق معصمها. ثم قال لها بلهجة تصالح:

- كفاكِ مشاغبة يا امرأة!

سبّها الرجل الأحمر غاضبًا، في الغالب بسبب عصير الـ "موخيوتو" الذي انسكب فوق مؤخرة عنقه:

- داعرة قذرة!

قالت وهي تنشج:

- ليس عندي سوى زوج واحد للخفّ.

Twitter: @ketab_n

شهقت وكأن الظروف هي التي حالت بينها وبين العلاج الإجباري في قسم مغلق.

لكن الحقيقة غير ذلك. لأن القارب الذي وضعت فيه تلك المرأة الأخرى آخر آمالها، انقلب بعد تلك المطاردة، واختفى معها وسط الدوامة.

طوقها الرجال من الجانبين، وسحبوها قدر استطاعتهم. تخيلت أنها بضياع الخفّ ستفقد قدميها معه، وكأن جسدها قد تحول من خصرها حتى كعبيها إلى زعنفة سمكة عاجزة. تحولت إلى سمكة، يهرول من حولها قطيع من الخنازير يشرف عليه رعاة عرايا. ولِمَ لا؟ فكل شيء في الحديقة كان جائزًا.

دق الرجل الأحمر جرسًا على باب الجناح رقم 8، بينما توقفت المسيرة الغريبة التي تسبقه. رفعت "إيما" بصرها إلى السماء لآخر مرة وقلبها يخفق: سُحُب وغيوم، مشهد حزين. ورغم ذلك: سال المطر من كتلة سحب مثل جبل جليديّ يتصدّع بقوة، وينطلق في طريقه عبر فراغ مكسوّ بثلوج جافة.

اشربيها! ارتشفي هذه السحب، تجرعيها بكل قوة لديكِ؛ فليس أمامكِ منذ الآن سوى السقوف.

علا في الرواق صوت يقول:

- استقباااال!

وصفق للأبواب. تركوها أمام غرفة المرضات وهي ترتدي الجوارب. يوجد أمام غرفة المرضات مطبخ. ترى وعاءً ضخمًا ممتلئًا بالسبانخ، وصفًّا من المقاعد أسفل صندوق الهاتف، وبابًا يقود إلى غرفة الطعام. وسيدات تتهادى خارجة منها على مهل، بخطوات فاترة. وما إن رأينها حتى لمعت أعينهن، وانفرجت شفاههن، وامتقعت وجوههن. شيء ما يحدث على الأقل، هذا الشيء

Twitter: @ketab_n

يبدو أكثر منهن بؤسًا، وهو ما يدعو إلى السرور. ظلال دبّت فيها الحياة تقترب وتبتعد بتحفّظ، تختفي في غرفة الطعام، ثم تظهر منها من جديد، بعضها بدون سيقان، أقدامهم تنبت من رؤوسهم مباشرة مثل الحيوانات رأسية الأرجل التي كانت "ريبكا" ترسمها وهي صغيرة. أخذ الرواق يمتلأ بشبكة من التفاصيل: ابتسامة من فم خاوٍ من الأسنان، عمامات من فوط الحمام، عين فاغرة متلهّفة، وهمسات باهتة:

- هل أجد معكِ سيجارة؟ التدخين في القسم العلويّ ممنوع.

وقبل أن تجيب؛ تأتي امرأة ضخمة بشعر منحلٍّ، وتلفها بذراعيها حول كتفيها، وتقول:

- مخدرات أم كحول؟

"إيما" لم تفهم، لم تتوقع أن تسمعهم وهم يلقون هذا السؤال هنا آلاف المرات بدلًا من التحيّة. لا تفهم، العطش يضغط على رأسها من جديد، ويدفنها في تل من الرمال. تتأرجح في غيبوبة بين النوم واليقظة، من جانب إلى آخر، هنا وهناك. وعلى رتابة بندول وضعته "ريبكا" فوق البيانو. وفجأة يلتفت إليها كائن ما، طعن جلد وجهه الأبيض بحُلي، ويقبلها بعنف في فمها، ثم يهمس بنبرة غريبة:

- "Chaimo margiz duz!"

ربما أنها لم تسمع جيدًا. ولا يمكنها أن تكرر ما سمعته للتوّ. رغم ذلك كانت تلك الأصوات مألوفة لها. وكأنها كانت تعرف معناها يومًا، وكأنها كانت لغتها الأم في حياة أخرى. مألوفة، بالتأكيد أكثر من لغتها التي تتحدث بها الآن. أكثر من الجمل التي تدور حولها، وتلفها على مدى أشهر وأعوام، وتجعل منها مومياء، مثل رداء المجانين هذا.

وجه الكائن الأبيض ما زال قريبًا من وجهها. سطح القمر الممتلئ بفوهات البراكين. لو بقيت لحظة أخرى لاختفت فيه إلى الأبد في انتظار تعويذة أخرى. بدلًا من هذا تجشأت المرأة بقوة في وجهها مباشرة، ثم انفجرت في ضحك هستيريّ. عاصفة من الرائحة الكريهة اجتاحت "إيما":

- ما هذه النتانة؟ أمي! أكاد أصاب بالجنون هنا، تعالَيْ إليّ، بعد الغذاء، لا تتركيني هنا!

تغلغلت فيها هذه الرائحة الخضراء النتنة مثل قاتل يطاردها فوق السلم، فتسقط، وتتقلب فوق الدرج، وتصطدم بدرجات السلم درجة وراء الأخرى. كل درجة تبدو وكأنها إصبع في لوحة البيانو. فتسقط وتشكل "إيما" بسقوطها نغمة مزيفة. نغمة تضاف إلى نغمة في مقطوعة صاخبة لا مقام لها. وتجوب فوق رأسها التي تتصدع فيها كتلة من جليد. وتخرج "ريبكا" من فرج كتلة الجليد.

- يا إلهي! كفاني أني استطعت أن أهاتفكِ. ستعثرين عليّ، وستصفحين عنيّ يومًا. ستجدينني أسفل الدرج الإسمنتيّ، وستصنعين من فوضى الكسرات شكلًا جديدًا، سننجح معًا.

لكنها ظلت تسقط طويلًا حتى عوت الرياح في أذنيها، وصرخ الهواء من حولها مثل حيوان من المطّاط. واصلت سقوطًا لا يتوقف، قالت لنفسها:

- ماذا لو أن السلم لا نهاية له، ماذا لو أن ما سيبدأ في الحديقة لن ينتهي.

رأت قاعًا سحيقًا وهي تنظر من تحتها. ما زال هناك بضعة مفاتيح دامية، أشياء، وخبطات، وأسنان متساقطة، ونغمات، ودموع، ولعنات، قبل أن تتهشم فوق مشمّع الأرضيّة، وقبل أن تسقط في مطبخ شقتها في حيّ "سميخوف"، وقبل أن تهبط وتقف عند قدمَيْ أمها.

Twitter: @ketab_n

***

- "إيما" الحبيبة! كفاكِ كسلًا، والعبي بشيء ما! الغذاء سيحين بعد قليل.

تهم على مهل من فوق الأرضية. بضعة كدمات، ورضوض بسيطة. ترفع نظرها إلى أعلى، نحو الدرج الذي كان يدوي، لكنها بدلًا منه لم ترى سوى سقف مطبخها الهادئ. تسمع صوت طرقة غريبة، وكأن أحدهم نفخ في كيس، ثم فرقعه. ابتلع المستقبل درجات السلّم وكأنه مروحة ضخمة.

مدت يدها، وأعطت أمها فأرًا، وقالت:

- يا أمي، تحدّثي نيابة عنه!

كانت أمها تتقمص الدور في الحال، وكانت أحيانًا تتحول إلى فأر. أما الآن فقد استدارت نحو الموقد، وأخذت تحرّك شيئًا أخضر، من المؤكد أنها لن تقوى على ابتلاعه.

- ليس الآن يا "إيما"؛ لاحقًا.

فكّرت في كلمة "لاحقًا". كلمة غريبة. لكن "لاحقًا" كانت تعني المستقبل. بعدما تضع لها أمها الطعام في الطبق، ستحاول أن تقول:

- ليس الآن؛ لاحقًا.

بعد أن فكّرت كثيرًا في كلمة "لاحقًا"، وصعدت بعد كل "لاحقًا" وكأنها تصعد درجة من درجات السلّم، وتتجه إلى أعلى، رأت كائنًا غريبًا، بعبعًا يتجه نحوها،

Twitter: @ketab_n

ويهمهم بصوت غريب، ويصدر كلمات غير مفهومة. وضعت قدميها فوق زلاجة ملاصقة لدرجات السلم تمامًا، وانزلقت عليها بسرعة عائدة إلى المطبخ.

لاحظت أن حرارة تتصاعد من بطن الفأر. كان الموقف يتطلّب تخديرًا فوريًا. وضعت القلم في المبراة حتى صار رأسه حادًّا مثل الإبرة، ثم دكته في جسد الفأر، في مكان قريب من الجرح المفتوح، وبدأت العملية الجراحية. أخذت تسحب أحشاء الفأر بتركيز كامل، جزءًا، جزءًا ووضعتها تحت المصباح بخرقة بالية:

- أمي! هل كل هذه الأجزاء ستموت؟

جاء سؤالها عفويًا. لم تكن على ثقة من أنها ستعيد المريض إلى الحياة مرة أخرى.

أجابتها أمها من عند طاولة المطبخ بذهن شارد:

- نعم.

كان الأمر يتطلب تدخلًا سريعًا – فتحت "إيما" بطن الفأر بقوة، أرادت أن تُدخل إلى أحشائه بعضًا من الطعام المطهوّ الأخضر، لكن الفأر فقد وعيه، وذبل وجهه، وخرجت من أحشائه مواد صناعية، وتشوّه وجهه تمامًا.

- أنا لن أموت. أنا لن أموت.

وقبل أن يرى أحد عمليتها الجراحية الفاشلة ألقت بالفأر في سلة المهملات.

أخذت تكتب شيئًا على الورقة، وكأنها تسطّر خطابًا هامًّا، ربما كان إعلان وفاة الفأر، ثم صوّبت رأس القلم نحو أمها بكل شجاعة، كي تعطيها فرصة أخرى.

- ربما سيموت الجميع، أنا أعرف هذا، لكنني لن أموت.

Twitter: @ketab_n

- وأنتِ أيضًا. وأنت أيضًا، وأنتِ أيضًا، وأنتِ أيضًا.

أخذت تنشد وهي تتخيل رجل الأسكيمو فوق لوح يطفو عليه في الماء.

- وأنتِ أيضًا وأنتِ أيضًا.

وفجأة تذكرت سلحفاتهم التي نفقت، وهي تدفعها بعصاة المطبخ بحذر فوق أرضية الغرفة. ظلت تدفعها حتى وصلت إلى الطاولة، لكن بلا جدوى.

لم تفهم مغزى كلمات أمها إلا الآن، التقت أعينهما.

- أنا لن أموت.

أعطت أمها فرصة أخيرة لتصويب الخطأ.

- أنتِ أيضًا يا "إيما"، وأنا أيضًا، كلنا سنموت. هذا هو قانون العالم.

يبدو أن أمي لم تنم جيدًا.

صاحت الطفلة:

- أنا لن أموت، لا تكذبي! الكذب ممنوع!

أرادت أن توجه لكمة لأمها كي تستفيق، وتتوقف عن تكرار الكلام الفارغ، فرفعت قبضتها التي سقطت في الهواء. فقد بدأت أمها تتباعد عنها بسرعة رغم أنها لم تغادر مكانها. ظلت واقفة عند طاولة المطبخ، وسرعان ما اختفت وسط مستنقع أخضر كثيف، لم تتمكن "إيما" من التعرف عليها فيه.

لم يكن هناك شيء آمن، وعندما رشَّتها أمها بماء بارد كي تتوقف عن الصياح، رأت "إيما" حشدًا رائعًا: أجسادًا وأشياء رُسِمت بصورة جميلة مثل صور كتاب اللغة الإنجليزية المخصص للأطفال في سن ما قبل المدرسة، صورة كلب، وقطة، ونمر، وحمل، وصبيّ، وصبيّة، وساعي بريد يحمل حقيبة،

Twitter: @ketab_n

وبحّار يرتدي قميصًا مخططًا، وحصان يتأرجح، ومهد طفل، وخفّ، ومعطف مضاد للمياه، وخبز طازج، وحزمة من الجزر، وترام يحمل كل هذا ويدور به في المدينة. إضافة إلى جدّ، وجدّة، وكثير من الكائنات المعروفة. طابور امتد لمسافة كبيرة، تلويّ وصَغُر حتى اختفى عن الأنظار. وأحدهم ممسك بالآخر، القطة تلاحق كلبًا، والكلب يلاحق الفتيات، والفتيات تلاحقن الجدّ، والجدّ يلاحق الجدّة. وطال الطابور وطال. كان عددهم لا نهائيًّا، ولم يكن ممكنًا نزع كل ذلك الثقل الذي دبّت جذوره في أعماق الأرض.

***

تجمعت من حولها أيادٍ مرنة على غير العادة، أيادٍ تهتزّ وتتطاير في غرفة صغيرة لا تتسع لهم. صغيرة وما زالت تتقلص، ما لم ينسحبوا في الوقت المناسب ستعصرهم الحوائط، وتسحقهم ومعهم النساء الثلاثة الغرباء، المتشابهات وكأنهن من بيضة واحدة. إنها أيضًا أيادٍ تعمل بنجاح، وعن معرفة، ولهدف محدد، إنها كلها أيادٍ تعمل. ترفع عنها السترة عبر رأسها، وتخلع عنها رداءها، وتوثّق يديها بحبل مطاطيّ.

– سمعي يا سيدة "تشرينا"، لا تنامي منا، وتقيئي هنا!

ما هذا الهراء! كيف يمكنها أن تنام، أن تستسلم للنوم وسط هذا الحشد من الأيادي! إن الأساور فوق معاصمهم تنبح مثل مناشير كهربية، وساعات اليد تهدر كعاصفة جبلية.

مستندات، وسجائر، وولاعة سجائر، وهاتف محمول، ومفاتيح المنزل أيضًا... اختفت من "ريبكا" في الخزانة، أصابع غليظة لإحدى الأيادي تسعى

Twitter: @ketab_n

لأن تفكّ أقراطها، إنها تضع أربعة أقراط، وذلك يستغرق وقتًا. أخيرًا؛ تقف هنا عارية، لا ترتدي سوى جوارب وسروالها الداخليّ. هل ما زالت قادرة على تحمل الدهشة؟ نعم، ما زالت، تمسك بها أيادٍ ناعمة، وتتحسسها بين فخديها، وعيون مُرقّطة تشبه حلمات الصدر تتطلع إلى جواربها.

- هل أنتِ بخير؟

- بخير، لا شيء.

يتأرجح عند باب المرضات شبح يرتدي قميصًا قصيرًا لا يكاد يصل إلى مؤخرته. هكذا بدت بعد أن أزالوا عنها ملابسها. يحدق ذلك الشبح بفضول، وصار وجهه مجرد عينين، يقول:

- انصرفي إلى غرفتكِ يا "جيزيلا".

تقول في دهشة:

- لكني في حاجة إلى...، أيتها المرضة، أنا أعاني من اضطراب عقليّ.

يلطّف التنين من نظرته، ويقول:

- نعم يا حبيبتي، كلهم هنا في مكان واحد.

فجأة: زوبعة، ورقص، ودبيب يأتي من خلف الحائط الذي تقف عنده "جيزيلا"، الحائط الذي كان يومًا فضاءً. موسيقى صاخبة انطلقت ثم اختفت فجأة وسط النبع الكبير.

لم تستسلم "جيزيلا"، وقالت:

- لكني أعاني من...

ثم رفعت قدمها العارية، وأسندتها على ركبتها، وظلت عالقة أمام الباب مثل لهب هزيل. ثم صاحت صيحة انتصار، وقالت:

- إنها أوهام.

برزت في الهواء أياد التقطت "جيزيلا" من كتفيها حتى أخذت تترنح، ثم اقتادوها إلى الغرفة.

- أوهاااام!

لم تكن هذه المرة صيحة انتصار، بل صرخة مُروِّعة، ومرعبة، صرخة رهيبة جابت الرواق. "إيما" تنظر كيف ظهرت مخالب وسط هذا الصراخ، إنها ترى تلك المخالب وهي تحاول أن تلصقها بالجدار مثل الخطاطيف، نعم؛ نجحوا بعض الشيء رغم أنها كانت تنفلت منها، لكن المخالب لم تستسلم، وواصلت عملها بكل عناد. أخيرًا تسلّق الصراخ الجدار، وأخذ يعلو حتى وصل السقف، وظل عالقًا هناك من رأسه مثل الخفافيش.

تنزل من فوق الميزان:

- سبعة وأربعون يا سيدة "تشيرنا"، أنتِ نحيفة للغاية! ألا تأكلين؟

لم تأكل شيئًا هنا، ما زالت عالقة من صراخها فوق السقف، إنها بالطبع تأكل وتشرب! لكن ما هو مذاق الطعام! لمدة عام لم تأكل في اليوم سوى موزة واحدة، ومشروب متعدد الفيتامينات. وهناك، في المكان الذي انطلقت منه الموسيقى العابثة منذ قليل، توجد لوحة إعلانات مكان صراخ "جيزيلا"، لوحة من المطّاط، عليها صور المشاهير اللامعة. تشبه كل منهم الأخرى. وجوههم مزّقها نَصل الابتسامة إلى نصفين، تبدو مرعبة. ومن المؤكد أن تمتعهم بالصحة هو سبب

Twitter: @ketab_n

سعادتهم. يرتدون ملابس نوم قصيرة تصل أسفل مؤخراتهم، وفتحة صدر تصل إلى معدتهم، وينتظرون إلى أن يأتي دورهم في العلاج هنا.

تضاءل الزمن وذاب بعدما وضعوها أخيرًا في السرير. كانت تتناقش يومًا ما مع "داليبور"، في الزمن الغابر، عن طبيعة الزمن، ويمتد النقاش حتى الصباح (إلى أن تتحول النظرية إلى تثاؤب حيوانيّ)، لكن هنا، والآن، غير مسموح إطلاقًا أن تقول: أثناء ذلك. صار الزمن حبيس جيب بلاستيكيّ شفاف يشبه مسخًا مخلوقًا من السائل. تسرّب هذا الزمن إلى شراييها مباشرة بكل ثقة، وكأنهما كانا يجلسان معًا على مقعد واحد في المدرسة. تسرب في البداية ببطء يدعو للجنون، ثم تسارع شيئًا فشيئًا. تظاهر بأنه لا يريد منها شيئًا، وأنها مجرد إحدى المعارف القديمة، وأخذ يقطر، ويقطر، ويقطر:

- مرحبًا، اسمي "جيزيلا"، هل أنتِ مخدرات أم كحول؟

- همم! لم أسمع هذه التحية منذ فترة. في اليوم التالي امتلأ جسمي بالكدمات. يا "ريبكا"، بسبب شجاري معه طوال الليل، وصراعي مع ملاك الوقت.

لم تتلعثم وهي تقول:

- بنزوديازيبين*.

"بنزوديازيبين بنزوديازيبين بنزوديازيبين"، كررتها ثلاث مرات بصوت مرتفع. لم تتعثر فيها مرة واحدة. جلست "جيزيلا" الغجرية عند أرجُل سريرها، عمرها يقارب الثمانية عشر عامًا، تحتضن ركبتيها، وتنتشر الندب فوق قدميها، وذراعيها، ورقبتها. اختفت سِنَّتان من مقدمة أسنانها، تبتسم،

* دواء مهدئ ومضاد للاكتئاب - المترجم.

Twitter: @ketab_n

وتحاول هي الأخرى أن تنطق اسم الدواء، لكنها فشلت، تعثّر لسانها، انتابتنا نوبة من الضحك، فانفلتت الحقنة من شراييني.

قالت "جيزيلا":

- أنتِ إذن مصابة بالهذيان الارتعاشي.

لأول مرة تلاحظ "إيما" السقف، فتصاب بالاندهاش، ليس لأنها لم تحقق فيه نظرها، بل لأنها لم تنتبه إليه، كما لا ننتبه إلى شاشة العرض في دار السينما. استعلى هذا السقف – لا يمكن أن أصفه إلا بهذه الكلمة – على ارتفاع شاهق وعميق. لم تفهم السبب، فهي لم تر من قبل سقفًا بهذا الارتفاع. حاولَت أن تصل إلى تفسير مقبول، هذا الجناح يعتبر أقدم مبنى في الحديقة. بُنِي ربما في نهاية القرن التاسع عشر، كُتِب فوق بوابة الدخول إلى مباني الحديقة تاريخ 1909 وإليه تعود بالتأكيد تلك النوافذ الخشبية الضخمة التي تلتهم الحائط بالكامل. نوافذ بها عدد لا يحصى من الهياكل المتصدعة التي تترنح وسط رياح فبراير وكأنها مكعبات تحملها في راحتك قبل أن تقذف بها على الطاولة. ربما كانت السقوف الشاهقة في عِمَارة المستشفيات وقتها موضة.

سرعان ما أدركت ضرورة أن يكون هناك مفتاح لذلك السقف، فتحَت درج طاولة بجوار السرير، ربما اعتقدت أنها ستعثر فيه على المفتاح. وجدت مناديل ورقية عليها آثار يد إحدى المرضات، وكُتيّب بأوراق مبعثرة، وخطاب من "ريبكا"؛ الزيارات ممنوعة في القسم، وحبات لبان بطعم النيكوتين، كانت تعتريها رغبة في التقيؤ كلما مضغتها؛ التدخين ممنوع في القسم. قلم جاف، وكرّاسة مربّعات.

- أين المفتاح؟

Twitter: @ketab_n

تخيلت رغم ذلك أنها ترى في هذه الغرفة العالية أماكن ذات أبعاد واضحة، سقوف عليها آثار أثاث انتزعوه منها. كان بها طاولة، وفي الركن مكتبة. كان أحدهم يسكن هذا السقف، ثم هجره على عجل. وهذا ليس غريبًا طالما ظهرت في غرفة الاستقبال كل يوم دفعات جديدة من مدمنات خمور يرتدين ملابس رَثّة. من يدري مَن غيرهم ظهر هناك. لو تمكنت من العثور على المفتاح ستدخل إلى هناك، وستجلس في المكان الذي كان به مقعد هزّاز، ستتأرجح فوقه بلا توقف، وتعلق رأسها في الهواء مثل صراخ "جيزيلا".

سرعان ما فهمت أن الليل والنهار لا يتعاقبان في هذه الغرفة، ورغم محاولات الممرضات، كنَّ على سبيل المثال يطفئن الأضواء ويشعلنها. وكان هذا ذا مغزى؛ كانت تعرف الصباح من رغيف الخبز المُغطّى بحبة البركة، وبعينة الدم. والمساء من عينة الدم، ومن رغيف الخبز المغطى بحبّة البركة مع الزبادي. كانت النساء تستسلمن للنوم لساعات طويلة، ليوم كامل أو أكثر، أو يتحركن بخطوات ثابتة من عند النوافذ الضخمة حتى الباب، ثم يعدن مجددًا وهنّ يلفظن كسرات زجاجية من أفواههن. ينتفضن أمام المحكمة التي انعقدت في عقولهن، يقلّبن أكفهن (رأت "إيما" لأول مرة في حياتها أحدهم وهو يقلّب كفّيه. من قبل كانت تعتقد أنه مجرد تعبير شائع)، أو يعقدن أيديهن خلف ظهورهنّ مثل الأجنحة، ويتحركن ذهابًا وإيابًا: للأمام مارش! ويكررن هذا على الدوام، مثل "إيرينا" التي ينادونها باسم "السيدة الفاضلة".

الساعة الحادية عشرة مساءً، وثلاث وأربعون دقيقة، وعشرون ثانية – يجب التحكّم في الوقت بحساب الزمن بين كل قطرة تسقط بشكل منتظم، من أجل أن يكون الليل ليلًا، والنهار نهارًا. فخاتم القمر المستدير الباهت يتلألأ فوق سقف شقة مهجورة. أنه في الحقيقة مكان لساعة حائط كانت معلقة

فيه. وفي تلك اللحظة بالتحديد، بعد أن وضعوا "إيما" في السرير، وأوصلوها بزجاجة المحلول، دخلت ملكة الشطرنج البيضاء الشامخة التي نحتوها من قطعة واحدة إلى الغرفة رقم 1 وفي صحبتها المرضات.

- طاب يومكم يا سيداتي!

لم تتحرك الشرانق الساكنة، انفجرت "جيزيلا" في الضحك، وجحظت عيناها حتى غطتا وجهها، وصارتا وكأنهما هدفان.

آه يا شقيقي! آه يا شقيقي! اسمه "بوبل"، يا شقيقي؛ أنتَ من أتذكره، ولا يجب أن أغفل عن ذكره في كل الاستبيانات والسير الذاتية، أنتَ يا من أذكره في كل الجلسات وفي كل المحافل، وفي جلسات العلاج الجماعية، يا من علّ أيضًا أن أرسمه في كل عمل تصويريّ في جلسات العلاج بالفنّ كلما كان الموضوع يخص أسرتنا. ليتني لا أنسى أي تفصيلة تبدو من الوهلة الأولى تافهة، من أجل شهادة محتملة، أو لمجرد أن تكون هناك بلا سبب. ليتني لا أغفل عن أي حركة من حركات الملكة البيضاء. وهي تتقدم بحذر فوق رقعة الشطرنج، أو تتجه نحو سريرها، ثم تتقدم إلى المنطقة رقم سي 8 بعد أن تتردد قليلًا، وهي تضع برشاقة حقيبتها التي صنعها «لويس فيوتون» فوق طاولة السرير. ليتني لا أراها وهي تتقدم من حوض السمك في معطفها الرثّ، بل تدخل صالون سفينة فخمة تجوب المحيط وهي ترتدي عباءة بفتحة صدر جريئة وكبيرة. لا أريد أن أخسر هذه الصورة. إنها ملكي أنا، أنا صاحبة كل تعبير، وكل كلمة، وكل تنهيدة، أنا صاحبة الخط التي صنعته من حاجبي عينيها اللذين ترفعهما، وهي تتقدم مني.

- منذ متى وأنتِ هنا يا عزيزتي؟ كحول؟ كلا؟ آه... آلام، وأَرَق. فهِمْت. اسمي "إيرينا". سعدت بمعرفتكِ، سعدت جدًّا بمعرفتكِ يا سيدة "تشيرنا"....

Twitter: @ketab_n

وفجأة بدأ ما كان محبوسًا خلف نبرة متحفظة يغلي ويفور. أخذ يتدحرج في الغرفة بلا توقف، وكأنه مشهد من حكاية: "اهرب أيها القَدَح!" مع كل جملة قادمة، حتى طال الجميع.

- هذا غير صحيح، إنه خطأ فادح يا سيدة "تشيرنا". اللعنة على ذلك الـ.. ما هو اللفظ اللائق بذلك الخنزير.. ذلك الحيوان! أنا لست مدمنة كحول! حبسني.. حبسني هنا وكأني مجرد.. هذا ليس موجه لكِ يا سيدة "تشيرنا"...الحمد لله. أنتِ حالة مختلفة. أنتِ امرأة متعلمة، وهذا واضح عليكِ من الوهلة الأولى... لكن ذلك الحقير لديه علاقات. ستتعجبين لو قلت لكِ إنه يلعب الجولف مع عمدة المدينة! يلعبون الجولف، وأنا هنا في حوض السمك! عار عليهم!

- في حوض السّمك؟

"جيزيلا" تنفجر في الضحك، وتضع الوسادة في فمها الأدرد*. لا شيء. أنا الزمن. أنا الزمن، أنزل القطرات. أدور الآن بوتيرة أسرع، الفواصل بين القطرات المختلفة صارت قصيرة. بعد اثنين وثلاثين دقيقة وواحد وثلاثين ثانية يمكنكِ أن تذهبي إلى الحمّام.

- هذه هي أسوأ غرفة في القسم كله. أتسمعين، طالما تمنيت أن يضعوني في غرفة أخرى بما أنني مضطرة إلى البقاء هنا...

تشير برأسها ناحية باب الغرفة.

- لا، هناك، لا.

* الأردد هو من ذهبت اسنانه، وخلا منها فمه – المترجم.

Twitter: @ketab_n

تلوّح بيدها نحو الحائط. لم تنتبه "إيما" من قبل إلى أن الحائط زجاجيّ، وأن النافذة تقود إلى غرفة صغيرة للممرضات، وفي كل لحظة تطل إحداهن منها برأسها عليهم، على حوض السمك.

- أنا هنا! وسط هذه الحثالة من غجريات قذرات مدمنات للمخدرات!

أقف مشدوهة. وضحكات "جيزيلا" تتبخّر. صحيح أن الممرضات ترانا، لكنهن لا يسمعن كلمة مما نقوله. أفواه الأسماك تنفتح على لا شيء. وتدور الأسماك حول بعضها، وخياشيمها المرتعشة تلقي بخنازير ذهبية فوق الحائط. يتوجه بعضها من وقت لآخر نحو السقف الكبير. فتصطدم به برأسها، وترتد إلى القاع.

وقفت "جيزيلا" منتصبة فوق السرير. تقف فوق السرير، وتبسط ذراعيها على مهل، وتباعد بين أصابعها ببطء، و"إيما" ترى غشاء حيوانيًّا رقيقًا يظهر بين أصابعها. وتهم بالوقوف فوق السيدة الفاضلة. تغرز فيها ذراعيها، فتخرج منها القذارة.

- دعكِ من هذه الحثالة يا "جيزيلا"!

- هل فعلًا أنتِ من قال ذلك يا "إيما" تشيرنا"؟ تتحدثين هكذا ولم يمض وقت طويل على وجودكِ هنا؟ ماذا ستقولين لـ "داليبور"، زوجكِ السابق الفقيه؟

وهنا حدث شيء غريب: تقدمت "إيرينا" من سريري، وصرخت فيَّ:

- ما هذا يا "إيفا"؟! لم يكن لائقًا أن تلدي لي طفلين، ثم تهجريني بسبب هذه المرأة الحقيرة!

- لكن...

- لن أنسى لكِ هذا.

Twitter: @ketab_n

- لكن اسمي "إيما"...

ثم مالت السيدة الفاضلة، ووقفت على أطرافها الأربع، وهرولت نحو المقعد برشاقة الكلاب، وأخذت تربِّت على مسنده، وتقول:

- حبيبتي "ماركيتا"! كلي هذا الطعام، أنتِ نحيفة جدًّا!، ظلت تُطعم المقعد لدقائق، ثم همَّت فجأة وانتصبت، وتقدمت من النافذة التي تتأرجح أُطُرها بشكل يثير القلق. وقفت تنظر إلى الخارج طويلًا، في ظلام تظاهرت بأن لا علاقة له بالحديقة.

سألت:

- أين أنا؟

قالت "جيزيلا":

- في "ديتوكس" في مستشفى "بوهنيتسا"* أيتها الجميلة.

ثم أخذت تراقب بشغف كل حركة تقوم بها "إيرينا".

لكن السيدة "إيرينا" قالت:

- هذه ليست مستشفى "بوهنيتسا". أنتِ مخطئة يا عزيزتي! إنها مدينة "تشيلاكوفيتسا" التي ولدت فيها! هناك على اليسار يوجد مبنى البلدية، وبجوار المدخل يوجد كشك لبيع الكوكاكولا. وأنا أقف مُصفَّدة عند هذا الكشك منذ عام 1989، منذ أن نجحت الثورة.

* مستشفى للأمراض العقلية شمال مدينة براج – المترجم.

Twitter: @ketab_n

"جيزيلا"، ماذا دهاها فجأة؟ انفتحت إحدى الشرانق، وتلتها شرنقة أخرى. وبعد لحظات راحت كل النساء تتابع تجوال "إيرينا" في الغرفة، تتابعن أكثر الحركات الدقيقة للملكة البيضاء المرتبكة.

ظهر رأس بشعر أشعث من تحت الغطاء، وأطلق ضحكة خشنة، وقال:

- هكذا يكون الهذَيان الارتعاشي. قرأت عن هذا في صفحات الإنترنت كي أعرف ما ينتظرني.

أومأت "جيزيلا"، وقالت بنبرة خبير:

- نعم، هذيان ارتعاشي حقيقي!

تسمّرت أعيننا جميعًا على السيدة الفاضلة. كانت أعيننا تلمع، وأفواهنا فاغرة، واستردت الوجوه المتقعة لونها. على الأقل شيء ما يحدث. وهذا الشيء كان في حالة أسوأ مما نحن عليها، وهو أمر يدعو للسرور. دخلت السيدة "إيرينا" إلى الغرفة منذ ستة وثلاثين دقيقة وخمس ثوان – في هذا الجوّ المسموم.

تراجعت الملكة البيضاء إلى الخلف بعيدًا عن النافذة، واتجهت نحو طاولتها، وألقت نظرة متسائلة على حقيبتها. الأشياء المعدنية الحادة أيضًا ممنوعة في القسم. مبرد تسوية الأظافر، ومستحضرات التجميل التي تحتوي على كحول، والمرايا. قلّبت الحقيبة بين أصابعها بتشكك، ثم قرّبتها منها، وفتحتها. أخرجت منها إصبع أحمر شفاه تخيليّ، ثم فتحت قاعدة المرآة، وأخذت تمرر الإصبع فوق شفتيها بحركات ماهرة. صفّقت لها "جيزيلا". وضعت الحقيبة فوق ذراعها بعد أن انتهت من وضع أحمر الشفاه، ثم تقدمت نحو الرواق بخطوات تحاكي خطوات السيدة الفاضلة.

لم يأت من الرواق غير أصوات تقول:

Twitter: @ketab_n

- يا سيدة "إيرينا"! ارجعي إلى الغرفة.

- إني راحلة. سأعود إلى مدينة تشيلاكوفيتسا!

- يا سيدة إيرينا! ...

قرع، ولطم على الباب.

صاحت الملكة البيضاء في محاولة يائسة أن تخرج من على رقعة الشطرنج:

- اطلبوا لي سيارة تاكسي فورًا!

- تاكسيييي!

تكسير زجاج، وعودة إلى البحر. دفع، وشدّ، وصياح استمر لبضعة دقائق، انفتح الباب، وظهرت ثلاث ممرضات يحملن "إيرينا"، ويتجهن بها نحو السرير. الآن فقط استطاعت "إيرينا" تمييزهن عن بعضهن، بعد أن كانت تراهن متشابهات. واحدة منهنّ كان تلفّ شيئًا ما حول جسدها، وستعرف لاحقًا أن الكل هنا يعرفها على أنها "رامبو" المخيف. كانت تتحرك بطريقة حِرفيّة، وأيضًا، لا أدري كيف أصفها، تتمتع بقدر كبير من الاستحسان. ربطوا السيدة الفاضلة بالسرير بسرعة لا تخلو من خبرة. أوثقوا يديها وقدميها. أحكموا الرباط، وصفقوا الباب. وانتهى العرض.

لزم الجميع الصمت. بما فيهم الملكة التي راحت تلهث. ساد الهدوء من جديد، وأخذت واحدة بعد الأخرى تدخل إلى شرنقتها. من كان منهم على سرير بجواره حائط، يا لها من ميزة رائعة!

استدار نحوه. تحاول "إيما" أن تأخذ نفسًا عميقًا كما كانت أمها تنصحها وهي في الغابة، ومن بعد أمها كانت "ديتا" أيضًا تنصحها. تتنفس بعمق، وتعود إلى السقف الذي صار سقف حصن بابل. تعود إلى السقف.

آه، من ذا الذي أقام هناك في الأعالي، ولم يترك لي سوى ذكرى قمر باهت بدلًا من ساعة الحائط؟ لا يمكن أن أستسلم للنوم في هذه الغرفة. لن أستسلم يومًا للنوم. فهناك، حيث انعدم الليل، سيظل تيار الوعي يلتفّ حول السيقان، وحول جذور المشاهد إلى أن يقضُم ذيله.

لكن في الواقع وبعد كل تلك الساعات التالية لم يتوقف للحظة صوت السيدة "إيرينا" الهادئ الذي يتوسّل، ويقول:

-يا "إيفا"! أرجوكِ، فكّي عني هذه القيود! أنا هنا مكبّلة، تخيلي، منذ عام 1989، وبدون سبب! إنها تشحذ يدي وقدمي حتى سال الدم منها. حرريها! بالتأكيد معكِ مفاتيحها، إنه مفتاح صغير جدًّا يشبه مفتاح صندوق البريد، أو الدراجة. أنا أعرفكِ، أنتِ لم تضيّعيه، فأنت امرأة منظمة ومثقفة. أنا واثقة من هذا... لم أعد غاضبة منكِ لأنك تركتني وحدي، فقط ساعديني أرجوكِ...".

انبعث ضوء من مكان المراقبة، كانت الممرضات يقمن على حراستنا. من فضلك يا "إيفا"! سقط هذا الضوء على السقف، واخترق الغرفة. مستأجر جديد أخذ يبدل الأثاث عن عمد، حرري هذه الأغلال. التخفيضات في "ايكيا" بعد انقضاء أعياد الميلاد كبيرة. مرت سنوات طويلة وصناديق الموز ملقاة في كل مكان. صندوق فارغ انفتح فوق رأسها مباشرة. أنا مغلولة هنا بلا سبب. نظرتْ إلى الصندوق ولم تصدّق عينيها. إنها تشحذ يدي وقدمي حتى سال الدم منها. كانت غرفتها الجميلة في الصندوق عندما كانت طفلة. نامت في تلك الغرفة في سرير صغير فوقه غطاء أطفال يبعث على السعادة، ولم تنم هكذا من قبل. فكّي قيدي. لم تنم لأنها تقيأت السبانخ السعيدة التي صنعتها أمها.

لم تكد أمها ترفع الدلو. غادرت الغرفة على عجل، وذهبت إلى المرحاض، ثم عادت. كانت تهرول بسرعة متزايدة، من هنا إلى هناك، ومن هناك إلى هنا،

Twitter: @ketab_n

وكأنها في فيلم كوميدي صامت. وكان خفها الذي تمشي به فوق خشب الأرضيّة يسرع من إيقاع الجملة: "أنت-أيضًا-أنتِ-أيضًا" إلى أن تحول إلى اصطدم بواقع أبدي، غير قابل للنقض.

راحت "إيما" تقول لنفسها في الصندوق:

- هذا هو الواقع إذن.

وتيار أخضر ينساب منها. من الواضح أن الممرضات لم يلحظن أي شيء. لم يكن دورهن أن يراقبن السقف. انشغلن في غرفة المراقبة بمتابعة التلفزيون، ومن وقت لآخر تنتابهن نوبة ضحك – بالتأكيد هو فيلم «قصة كلب أشعث».

"اسمعي! ربما قد يكفي مقص صغير، بالتأكيد لديك في درج الطاولة مقص ما. إنها لست سلاسل، بل مجرد مادة ما عادية...".

أخذت الفتاة الصغيرة القابعة في الصندوق تفكّر مليًّا:

- لو أن أمي كانت تعرف أنها ستموت أيضًا يومًا ما، فلماذا جاءت بها إلى العالم؟ لماذا فعلت بها ذلك؟ إما أنها فقدت صوابها وقتها، أو فعلتها عن سوء نيّة. وماذا عن الآخرين، ربما لا يعرف الأطفال شيئًا، لكن ما بال الكبار؟

وصار غطاء السرير المُبهِج ثقيلًا على "إيما"، ومخيفًا بسبب ذلك الخداع. ضغط عليها بثقله مثل ركام المقابر، أو ثلوج المؤامرة التي تداعت عليها وسط أكوام الجليد الملوث بالطين.

نهضت "إيما" دون أن تخلع خفّها، ثم تقدمت من السرير الذي تنام عليه "إيرينا". سقطت على ركبتيها، ومالت نحو رأسها. كان شعر السيدة الفاضلة ما زال مفعمًا برائحة الشامبو، أو برائحة أشياء أخرى دهنوها بها في إحدى صالونات التجميل الفاخرة. من يدري.

Twitter: @ketab_n

همست لها:

- اعذريني يا مليكتي، لا يمكنني أن أساعدكِ. فليس لديّ حتى ذلك المقص الصغير. ولا حتى المفتاح الصغير.

لاحظت جلدًا داميًا فوق قبضة يد "إيرينا".

- يا إلهي! استرخي، وكفِّي عن الكلام. غدًا سنرى.

انتفضت من الغضب من هذه الكلمة.

- غدًا!! هل تعرفين أصلًا ما حدث لتلك الفتاة التي تقيأت السبانخ فوق السقف؟!!

حاولت "إيرينا" أن تنهض مستندة على مرفقيها، وبرقت عيناها من الدهشة:

- فوق السقف؟!! لكن يا حبيبتي، هذا أمر مثير للغاية! اسمعوا!

خشخشة قوائم النوافذ. وجوه المرضات عالق على شاشة التلفزيون. سقطت على الأرض امرأة عجوز سمينة، وانطلق من فخذيها الأبيضين شعاع يشبه بريق بطن سمكة ميتة. تثرثر وهي نائمة. تعدّد ما ستشتريه: خمسة أرغفة خبز، وثلاثمائة جرام من النقانق، وعلبتين من القشدة الحامضية، وكيلو لحم بدون عظام.

همست "إيما":

- تخيلي أن أمي استسلمت للأمر وهي ترى السبانخ في كل مكان.

بدا الأمر وكأنه مشهد من حكاية " اهرب أيها القدح!". خرجت السبانخ من جوف الفتاة الصغيرة وكأنها عصيدة فارت من أحد القدور. ملأت العصيدة كل

Twitter: @ketab_n

أرجاء الغرفة، وخرجت إلى الدهليز، ومنه إلى رواق البيت، وفوق الدرَج، وسالت من فتحة المصعد، وتساقطت. كنا نسكن في الطابق الأخير في إحدى العمارات بحي "سميخوف". كادت تزهق أرواح بعض جاراتنا، فخرجن مهرولين من العمارة، وكل واحدة تقلب كفيها. بالمناسبة، هل رأيتِ أحدهم يومًا يُقلّب كفيه؟ وبرفقة كلب صغير، يشتم الروائح، ويعضّ على الأشياء من باب الفضول. لكن فجأة تلتهمه تلك الموجة الخضراء. لم أرثِ لحاله. ماذا أقول لكِ: لم يكن في مقدور أحد أن يوقف ما حدث. حتى أمي أصابها اليأس وأخذت تدعو وتصلي. بلا جدوى. يبدو أنها لم تكن تجيد أداء الصلوات، فبدأت تتحدث بما تعرفه من اللغة اليديشية، وما تتذكره منها ومما كان أبي يقوله. لم تسفر هذا المحاولة عن شيء أيضًا. ببساطة لم ينفع شيء مع ذلك الطين الأخضر. في النهاية هربت في آخر لحظة من الشقة وهي غارقة في ذلك الطين... لم أرها منذ ذلك الوقت رغم أننا نلتقي يوميًا، وعلى مدى سنوات.

في اليوم التالي لم تفتح "إيما" عينيها إلا بعد انتهاء موعد الزيارات. وقف عند باب الغرفة، وجهه يكاد ينفجر من شدة انتفاخه. إنه البابا الشيطان، يرتدي طاقمًا ماركة أديداس، ويسكب مياهًا بها صابون فوق أرض الغرفة البلاستيكيّ.

***

مرحبًا يا أمي.

يسعدني أنكِ استطعتِ الاتصال بي لتخبريني عن مكانكِ. وإلا لزحفت فوق السقف، وربما إلى مكان أعلى منه بكثير. تماسكي من فضلك! أعرف أنكِ في حالة صعبة للغاية. تركت لكِ بعض الأشياء عند ممرضة بدت مستاءة. تركت لكِ الخُفَّ

الذي طلبتيه، بإبزيم، وعليه خطوط مربّعة. إنه خفّ بشع!! وتركت لكِ أيضًا صابونة، وفرشاة، وقلمًا، وكراسة، وغيرها من أشياء قد تحتاجينها. المهم أن تكتبي لي! لا يهم ما ستكتبينه، لأن الأمر لا يتوقف على الكلمات.

ولأن الأمر لا يتوقف على الكلمات، سأعيد كتابة الرسالة القصيرة التي أرسلتها "ديتا":

"شكرًا! الحمد لله أنها لم تلتزم الصمت مثل كل الحيزبونات التي تعيش تحت الماء. سأرسل الخطاب غدًا، لكنه لن يصل إلا يوم الأربعاء. أتمنى أن يسلموها إياه، فلا تنزعجي. لن يتغير شيء، كنا معًا وسنظل كذلك".

ابنتك ريبكا.

***

"تشيرنا!!!!!".

بالتأكيد. لقد قررت أن ترد على الدعوة. وأنا تكون متعاونة، وتكف عن افتعال المشاكل. وأن تتقبل نظام العلاج. تتقبل العلاج إلى أقصى درجة، تستفيد من إمكانية مراجعة النفس. تكشف القناع عن تطور حالة الإدمان، وتصل إلى جذورها. وستتخذ من الصابونة درعًا، ومن فرشاة الأسنان رمحًا في حربها التي عليها أن تخوضها. أسلحة متحضرة لكل من أراد أن ينجو بنفسه.

تعاون. فرشاة أسنان. في الحرب. الجذور. تحاول عبثًا أن تنتعل ذلك الخفّ الذي طالما حلمت به. وفي النهاية تستسلم للأمر. فالجذور تبرز من قدميها من كل جانب. من الواضح أنها جذور الإدمان، وتنبت براعم كثيرة من

Twitter: @ketab_n

يديها التي تحولت إلى أفرع - وترتطم بالحوائط، وتتسلقها دون أن تنثني يداها اللتان تحولتا إلى شجيرة. من حسن الحظ أن السيدة "مارتسيلا" تعرف كيف تتعامل مع الأمر. كل ما تدلّى وصار عائقًا عليها أن تقطعه برشاقة، وتلقي به في الدهليز.

السيدة "مارتسيلا" امرأة صغيرة البِنْية، ومستديرة القوام، وكل ما فيها مستدير: تتدفق الكلمات من فمها فتحدث صليلًا يشبه صوت قطع معدنية. أظافرها تلمع مثل قشور الأسماك، وقلبها، ذلك القلب الصغير، من المؤكد أنه مستدير مثل كرة الجولف. تضغط السيدة "مارتسيلا" برفق على مرفقها، وتخفض من صوتها. فتنتفض "إيما" بنفور رغمًا عنها، وتقول:

- يا إلهي! لماذا يمد كل واحد هنا يده عليّ؟ هل نجلس جميعًا فوق مقعد واحد؟ أم أنه علاج جديد باللمس بدعم من الاتحاد الأوروبيّ؟!!

كانت "مارتسيلا" تعرف كل شيء. كانت تعرف أحشاء الماكينة هنا مثل أحشاء الفأر الساخن. ولمَ لا، وهي تبدأ السنة العاشرة من سنوات العلاج؟! صار هذا القسم بيتها، حوض سمك مألوف، تعرفه جيدًا. تسبح فيه بسعادة بين حوائطه، ومياه محيط غامض تهدر بغضب من خلفها.

- يا حبيبتي، السيدة الطبيبة "فاسالا" تريد أن تتحدث معكِ...

- بكل سرور. فقط حرري مرفقي.

- كوني حَذِرة وأنتِ تتحدثين معها. فهذه الطبيبة... لحمها مُرّ. لا تتحدث معكِ وجهًا لوجه. لم يحدث أن تحدثتْ مع أحد هنا وجهًا لوجه. لكنها في المقابل تسير خلف نائبة الاستشاري مثل ظلها. احترسي مما تتفوهين به أمامها!

Twitter: @ketab_n

على أي حالٍ لن تصدق أية كلمة تقولينها. لقد أصبحتِ مدمنة خمور، وانتهى الأمر. كل ما ستتفوهين به ستستخدمه ضدكِ. فعندما تقولين إنك تحبين أبيك...

- أبي لم يعد على قيد الحياة. كما أنني لست مدمنة خمور. لكني، مصابة بهذيان ارتعاشي.

- اعذريني يا حبيبتي. لم أقصد أن أوذي مشاعركِ. لكني لا تقنعيني بأنكِ كنتِ تحبينه. فقد قرأت في التقرير أنه كان يستغلكِ وأنتِ طفلة، وأنكِ تعرّضتِ لأذى كبير! أنا كتبت في التقرير: تعاطٍ غير منتظم للكحول. نقطة. وبعد أسبوع كذّبوا ادّعائي.

جلست السيدة الطبيبة "مارتِسالا" خلف جهاز الحاسوب بكل فخامة دون أن تلتفت حولها. تخيلت "إيما" لو أنها حافظت طيلة حياتها على جسمها منتصبًا مثلها بهذه الصورة المثالية لوفّرت على نفسها حقن التسريب الوريدي، وجبال الجليد العائمة، وعواصف فبراير، والملكة، وكل تلك السيدات رأسيات الأرجل اللواتي وضعن لهن ولها أيضًا أذيال الأسماك تحت ستراتهن، في مشهد كريه.

ولادة، وتعليم، ووظيفة، وأمراض في الأسرة، وأمراض نفسية، ومدمنون في الأسرة، وأفراح في الأسرة، وطلاق، وإجهاض، وولادة – يا إلهي. كلها حدثت بسرعة جنونية. إضافة إلى أنها كانت تكتب بأصابعها العشر، بأظافرها البنفسجية! رسم هذا صورة مثالية لـ "إيما" تستحق أن نطالعها بكل فخر. التصقت حياتها بلوحة المفاتيح بصورة مجنونة، إلى أن تطاير الشرر تحت أصابعها النحيفة المرنة، وعلق ذلك الشرر بشريط الشاش، واشتعل الشريط، وراح لهب النار يزحف خلفه سريعًا وكأنه يزحف خلف حبل مشتعل. لم تتوقع

Twitter: @ketab_n

خيرًا جرّاء ذلك. كان الباب مواربًا، وكان الحبل المشتعل يصدر حسيسًا يعلو مثل حسيس ثعبان متوهّج في الدهليز الواقع خلف الباب. فضغطت "إيما" بيديها على أذنيها وكأنها تتوقع انفجار ما. أرادت أن تصدر أمرًا "انبطِح على الأرض!"، لكنها لم تكن مجنونة كي تصدر أوامر لتمثال من الحجر. وهنا جاء صوت غريب وكأنه إنذار بحريق، عندما اندفعت نيران الحبل إلى الغرفة رقم 1، إلى حوض السمك، وأصدرت حسيسًا لآخر مرة، ثم انطفأت النيران وسط مياه الحوض، فالتفّ عشب البحر في حوض الاغتسال مسترخيًا قذرًا إلى أن رفعته عاملة النظافة بامتعاض وهي ترتدي طاقم أديداس.

- ... تستحق أن نطالعها بكل فخر. لكن كم كان مجهدًا ذلك السعي! ربما أن الوجه الأيسر أو الأيمن قد فقد سمة ما أو شكلًا ما، وكأن الطبيبة المسكينة "فاسالا" قد عادت من عملية تجميل فاشلة تستحق عليها العقوبة.

- حساسية؟

- حساسية من السبانخ".

عادت الكرة في جزء من الثانية. بالطبع بلا طائل. عبثًا.

- رفيق؟

- رفيقة.

حتى هذا لم يفلح.

فجأة ظهر صوتٌ قَطَع الصمت القابع في الدهليز:

- "الغداااااء!".

Twitter: @ketab_n

أخذت "إيما" تفكّر–وكان هذا مأزق يليق بأوقات الخرافات – ما هو الأكثر جاذبية: حوار مفيد مع تمثال امرأة، أم طعام بصحبة كائنات غريبة. أنصاف سيدات.. أنصاف أسماك. أكتافهن تتلامس حول الطاولة. ليست مضطرة إلى أن تكون هناك لترى ذلك المشهد. فسيجلس معهُنّ أيضًا عدد لا يحصى من الأيام والأسابيع والأشهر. ليست مضطرة إلى أن ترى العبوس الرطب أسفل الطاولة، حيث تتلامس ذيولهن وزعانفهن وهن مُنكبّات على الطعام.

تُكشّر "جيزيلا" عن الثغرات بين أسنانها، وتقول:

– "أوهو تاني!".

انتبهت السيدة "إيرينا"، وقالت:

– ماذا تقصدين بـ أوهو؟ يسعدني أن أتعلم منكن سيداتي الأعزاء!

تقطع ما لا يُقطع بكل مهابة، وتمسك بأدوات الطعام على النحو الذي يصورونه في كتيبات قواعد السلوك. إنها لا تتذكر من هذيانها ولا مشهدًا واحدًا. فتطلب منا من جديد أن نقصّ عليها بعضًا منها...

– أنتُنَّ تبالغن يا عزيزاتي! هذا غير معقول! أنا قلت هذا؟ "تشيلاكوفيتسا"؟ أنا لم أرَ "تشيلاكوفيتسا" في حياتي! وأطعمت المقعد! وأنجبت منكن أطفالًا يا سيدة "تشيرنا". إن "دانا" عاهرة سابقة. سعيدة بأن لديها ما تأكله ولو إلى حين، ولديها مكان يؤويها، وليست مضطرة إلى أن تتسلل عبر نافذة صغيرة إلى قبو أحد البيوت في حي "شيشكوف" لتقضي فيه ليلتها.

قالت:

– نعم، "أوهو...".

Twitter: @ketab_n

ولم تكمل بعدها الحديث. قاطعتها "مارتسيلا" بكل حماس:

- فالإقامة عشر مرات في المبنى رقم 8 يعطيها الحق في تقديم النصائح، وهذا أمر لا أسمح لأحد بتجاوزه.

تبتسم بدلال، وتقول:

- يا حبيبتي، إنها صلصة غامقة تصلح لأشياء كثيرة.

هدوء ناعم. عظام الفك تتراقص، وتعمل. تسحق جرعات الحياة. لكن الكلمة الأخيرة هي لـ "دانا":

- اسمعوا! سأخبركم بشيء. هذا الطعام الكريه لا يطهونه حتى في منطقة "بُوري" بمدينة "بلزن".

تجمع سرب من الطيور بأفواهها البنفسجية الملتصقة، وظلّ عالقًا فوق لوحة المفاتيح.

قاطعت الطبيبة خشخشة أدوات المائدة بنغمة مواساة، وقالت وهي في الدهليز:

- لا تنسي يا سيدة "تشيرنا" أنك مجبرة على الدخول إلى هنا. فسلوكِ في سيارة الإسعاف وفي غرفة الاستقبال يشير إلى أنكِ خطر على نفسكِ وعلى الآخرين من حولكِ".

"إيما" تهزّ رأسها بحماس شديد – بلا داعٍ، فلا أحد ينظر إليها، ربما لأنني خبطت الرجل الأحمر على قفاه، ونهرْت السيدة العارية، فسقط الـ "موخيتو" من يدها. تقهقه.

- ستتأكدين أن الأمر ليس مزحة يا سيدة "تشيرنا".

Twitter: @ketab_n

أين ذهب الخفّ الذي جاءني في أعياد الميلاد؟ ربما أن ذلك المجنون الملتحف بالرداء يلبسه، ويدور به في أرجاء الحديقة مثل مومياء عادت إلى الحياة.

لأنها على العكس منها:

- خلال أسبوعين سيصلكِ قرار المحكمة. وهو ما يعني في الواقع أنه لن يُسمح لكِ بالخروج، ولن تشاركي في جلسات العلاج خارج المبنى رقم 8، ولن يكون من حقكِ الاستئناف.

لأنها على العكس منها لها الحقّ في إجازات خارج المستشفى.

لن ترتدي أي قميص، بل بذلة فضائية قوية كتلك التي تظهر في روايات "يوليوس فِيرن". أو أنها غطست بوجهها تحت سطح الماء، ولم يرَ منها "داليبور" غير زعنفة الغطس. أخذت تنظر إلى الأسماك التي بدت رقيقة مثل الورق. توجهت الأسماك نحوها وهي تخفق بذيولها، ثم اختفت من جديد دون أن تلمسها. تمامًا مثل كلمات هذه الطبيبة. سمعتها، لكنها لم تفهم منها كلمة واحدة، ولم تصل إليها. وكأن أحدهم كان يقرأ لها، على سبيل الخطأ، حكايات ملحمة "جلجامش" بلغتها الأصلية.

ففضلت أن تصرف نظرها بعيدًا، وتنظر عبر التمثال والكلمات. عُلّقت هناك في الجهة المقابلة فوق الحائط خزانات زجاجية بها أدوية، كما هو الحال في كل غرف المرضات. بقيت "إيما" في مكانها. يبدو أنها لن تتناول طعامها اليوم. بدأت ترتعش بصورة جنونية. بدا لها أن جلوسها لن يطول. انظري في اتجاه آخر! إلى سقف مبنى آخر خلف النافذة. توجد في بيتها أيضًا قُضبان، فهي معتادة على رؤيتها. امسكي الصوت، تشبثي بأي شيء، واجلسي فوقه، ثم اختفي من هنا مع موجاته. تعلّقي بأي شيء، المهم أن توجهي نظركِ إلى مكان

Twitter: @ketab_n

آخر. ففي هذه الخزانة التي أمامكِ خلف الزجاج ارتفعت ثلاث مداخن للتنويم المغناطيسيّ نحو السماء.

لم تتمكن من التحكم في رعشتها. وشعرت برائحتها في الطابق الذي توجد فيه. لم تبتلع تلك الرائحة يومًا، فاحتفظت بها تحت لسانها، وتركتها تذوب هناك مثل جسد المسيح. انظري في اتجاه آخر، لكن فات الأوان. إنها في كل مكان، تتجه إليه بناظريها، صناديق مسطحة مرصوصة فوق بعضها حتى وصلت عنان السماء. أعمدة تحمل قبة المعبد – مثل كلب امتلأ فمه باللعاب فجأة. رغبة قبضت على جسمها بالكامل مثل قبضة يد.

رفعت عينيها عاليًا نحو تلك القبة حتى ابيضّت مُقلتاها، وصارت مثل شهيدة في لوحة من العصر الباروكي. كان ذلك السقف مختلفًا عن السقف في حوض السمك. لم تكن به أية آثار للسكن. بل انتشرت فوقه عشرات، بل مئات من علب الحبوب المنومة، ومضادات الأرق "سيلنوكس"، ربما كانت تبالغ، فقد رأت أدوية مهدئة هنا وهناك، وظهرت هناك أصابع مفترسة تفتحها على عجل، وتنزع الحبوب من غطائها، وتضعها في راحتيها. اهتزّت القبة، وتصدّعت. ظهر فيها الشقّ الذي طالما تمنّت أن تراه. ستطير منه إلى الهواء الطلق! ازداد الصدع، فرأت فوقها قبة أخرى، وهكذا ظل الأمر يتكرر بلا نهاية.

فجأة عرفت "إيما" بكل ثقة مَن الذي انتقل للإقامة فوق سقف الغرفة رقم 1، ولن تكون صناديق الموز نصف الفارغة. إنه "بوبل". ما هذا؟! لا أثر لأية صناديق موز! لم تكن سوى صناديق "بوبل" المزعومة. التقطتها على الفور، التقطت واحدة منها على الفور كي تتغلب على الرعشة، وظلت قابضة عليها.

Twitter: @ketab_n

- سيدتي الطبيبة! نسيت أن أقول لكِ. لا تطفئي هذا الحاسوب الآن! إنه أمر هام للغاية. أنا لديّ شقيق! في الواقع أنا لا أفهم كيف نسيت أمرًا كهذا رغم أنكِ سألتني عن أشقائي. لديّ أخٌ، واسمه "بوبل".

هنا التفتت الطبيبة "فاسالا" لأول مرة. استدارت برأسها ببطء شديد نحو "إيما":

- إنه... لا أدري كيف أصف الوضع. إنه تاريخ غامض للعائلة، دراما عائلية مخيفة، وكأنها حكاية من حكايات "إدجار آلان بو".

وبعدها التفتت برأسها نحو "إيما" ورقبتها تتصدّع من الغضب وهي تستدير على مهل، وتصدر صريرًا مرعبًا، وكأنها جناح باب في بيت "أوشر"*.

- كفى! ثقي بأنه ستسنح لكِ الفرصة لتتحدثي عن شقيقكِ في جلسات العلاج، وفي الجلسات الجماعية.

توجّهت نحو الدهليز وهي تتهادى. وهناك فوق الطاولة - التي خلت تمامًا - كانت وجبة الغداء في انتظارها. كانت "دانا" تقوم على حراستها بكل انتباه.

- أنا سأقوم على حراستكِ كي لا تلتهمكِ النساء. ربما كانت تلك المرأة الغبية التي تقيم مع "كثيتا" في الغرفة فنانة كبيرة كما تدّعي. من صاحبات الكعب العالي. هاه!.. لكنها امرأة حقيرة على أي حال. لدي حاسّة أعرف بها أمثالها.

أحدِّق بنظري في الطعام، وكأنه نجوم في سماء الصحراء.

سألت "دانا":

- ستأكلين هذا؟

---

* فيلم رعب أمريكي من عام 1960 - المترجم.

Twitter: @ketab_n

أدير رأسي، ثم أدفع بالطبق ناحيتها. تبتسم بامتنان، وتقول: "شكرًا"، ثم تهمّ بتناول الـ "أوهو".

***

أُخرِج الكراسة المربعات التي أحضرتها لي "ريبكا" من درج الطاولة. أنا مُتعجّلة. لا أحد يعرف هنا ما سيحدث في الثانية القادمة. يجب أن أسجل ما لم يسمحوا لي بالحديث عنه:

"الحادثة الحمقاء التي حدثت منذ وقت بعيد مع بوبل. لا أعرف إن كنت سأقبل بأن يسكن فوقي من الآن، وإن كل منا سوف ينظر إلى سرير الآخر. فدائمًا ما كان بوبل إنسانًا غريب الأطوار".

***

كنت في صغري أحب صناعة صناديق من الورق المقوّى. بعضها كانت صغيرة، بالكاد تصلح أن تكون سريرًا صغيرًا لدمية من علب المكعبات. لكن بعضها كانت تصلح أن تكون خزانة. كنت أضع في تلك الأدراج لعبي، وملابسي. كنت أسوِّي كل شيء على نحو جيد، وبعدما أصبحت على هذا النحو – هادئًا، وأعي كل ما يدور حولي، أضع مقدمة لساني بين شفتيّ – ملوّثًا بصورة دائمة من المادة اللاصقة، كنت ألتصق في أماكن كثيرة. أحيانًا في المطبخ أسفل الطاولة وكأنني لبانة أُلقى بها أحدهم بعد مضغها. لذلك كاد والداي ينسياني وأنا في مرحلة النمو. فضلًا عن أنهما كانا منشغلين كثيرًا.

كانت أيامًا صعبة. طردوا فيها أبي من العمل لأسباب سياسية، وظل طويلًا يبحث عن عمل، حتى عثر على وظيفة حارس في مرفأ بمنطقة "موتول".

كانت أمي لديها ما يشغلها. كان لديّ شقيقة تصغُرني بعام، وكانت دائمًا تسبب لي المشاكل. جاءت على سبيل المثال ذات يوم إلى البيت وهي تدفع أمامها حاوية قمامة، وقالت إنها ستضع فيها أغطيتها. وكأنني لا أستطيع أن أصنع لها خزانة ملابس من الورق المقوّى أكثر منها نظافة. أحيانًا كانت تقضي أيامًا كاملة تعوي وتضرب على الجيتار، وتؤكد أنها "چانيس چوبلين"، وأحيانًا أخرى كانت تحفظ عن ظهر قلب الجمل المعقدة التي صاغها الكاتب "بروست"، رغم أنها ليس بها على كلمة مفهومة. الأسوأ عندما بدأت تعود إلى البيت في صحبة أصدقاء حمقى مثلها. كانوا يجوبون الشقة وكأنهم يتجولون في أحد الأسواق، يشربون كل شيء يقع تحت أيديهم، ويلفّون سجائر من تبغ «درام»، ثم ينفضون رمادها فوق السجادة...

"بوبل"*. سرعان ما أيقنت بأن لديّ سرًّا. كنت أبقى وأنا ما زلت طفلًا متورِّطًا لساعات طويلة وسط إحدى الستائر، وأنظر إلى الشارع. ولمَ لا؟! فقد كان شارع يعجّ بالمارّة في حي "سميخوف"، به محطة للترام، وحشود من الناس، وسيارات ومتاجر. كنت مجرد عين تشاهد ما يحدث دون أن يراها أحد. لكن للأسف، أرادت أمي أن أنزل إلى الشارع كي أتحدث مع الناس، كي أدخل إلى اللعبة، ولا أراقبها. قلت لنفسي: إنه شيء يشبه الجديري المائي. ذلك السرّ. حسنًا. من الضروري عمل لقاح مضادّ كي لا أترك ورائي إلا القليل من الآثار قدر الإمكان. لذلك قررت أن أكون صبيًّا طبيعيًّا طالما أرادوا ذلك. سوف أهجم على الألعاب فوق الملعب الرمليّ، ربما سأتبول على نفسي من شدة الغضب، وسوف أصفّق، وأضحك من كل تورتة تُقدَّم في أعياد الميلاد. عليّ أن

* الاسم يعني باللغة التشيكية رماد السجائر – المترجم.

Twitter: @ketab_n

أنتبه إلى كل هذا عند باقي الأطفال. أخذت أتبنّى بانتظام سلوكيات الآخرين، وكلامهم، وانفعالاتهم، وإيماءاتهم. اخترت من كل هذا ما ظننته مناسبًا، ورحت أحاكيه. وُفّقت في ذلك بصورة مُدهشة. وتساقطت ملاحظاتي واحدة تلو الأخرى في جوف جوزة العدم المسحوقة.

صار من المعتاد أن أُولَد كل يوم من جديد، وأضع على وجهي وجهًا آخر. مثلًا لم أكن يومًا أحب الطعام، وكنت مجبرًا على تناوله. ورغم ذلك طلبت من أبي وأنا في الصفّ التاسع -وكان لديه خطط أخرى لي -أن أتعلم فنّ الطبخ.

لكن سِرّي ظل عالقًا أمام عينيّ. وكان ذلك أمرًا لا يخلو من مخاطر. فقد كانت أمي أحيانًا تظهر بجواري، وكانت علاقتي بشقيقتي أسوأ من ذلك بكثير. لم تكن تقترب مني إلى درجة ملحوظة. لكنها عندما كانت تلتفت نحوي دون أن تحاول إخفاء وميض الشرر المتطاير من عينيها، ولو على سبيل اللياقة، كاد صدري ينشق من الرعب. قلت لنفسي: إنني ربما لا أرى جيدًا. فأصلحت النظارة من نظري قليلًا. لا أكثر.

كنت أعمل في الورشة ليلًا ونهارًا حتى حققت على الأقل بعض النجاح. تمكنت خلالها من إخفاء ذلك السرّ، ودفعت به إلى مكان لا يمكن لأحد، ولا حتى لشقيقتي، أن تطّلِع عليه.

لكن حدث ذات يوم أني قضيت أعياد رأس السنة في عام 1989 عند إحدى زميلاتي في منطقة "شوماڤا". كان الجميع يتسامرون في غرفة كبيرة، بها مدفأة، ويغترفون شرابًا كحوليًّا من طبق ضخم، ويتندرون على الأوقات الصعبة التي ولّت دون رجعة، كما كانوا يعتقدون. كانت النيران تتصاعد، وتلتهم كل خططهم بكل حكمة ووعي، وبدون أيّ مجال لنسيج كاذب. تلتهم المشاريع والأحلام التي كنت أحلم بها أنا أيضًا. وقفنا جميعًا ذات يوم، ومعنا

شقيقتي في حشد من آلاف الرؤوس أسفل شرفة في فندق "ميلانتريخ" الذي تجمّعت فيه شخصيات مرموقة. كانوا يلقون كلمات إلى الشعب، في ميدان "ڤاتسلاف". كانت شقيقتي عالقة بي. لا أتذكر من ذلك اليوم سوى قفازها المُهلهَل. من الضروري في الواقع ألا يفوتني أيّ شيء يبدو من الوهلة الأولى غير ضروري. ثم حدث ما حدث. ظهر في الشرفة اثنان من المتحدثين، وصاح أحدهم في الميكرفون قائلًا:

- كارل وكارل.

انتهى اللقاء، وتُوّجت نهايته بهذا المشهد:

انطلق "كارل وكارل" يصدحان بالنشيد الوطني: "أين هي بلادي..." وغرق الميدان بنغمة تصالح دافئة، تشبه شرابًا سال في الميدان. نعم، يجب أن أصف المشهد بهذه الكلمة. تدفق صياح كل من كان في الميدان عبر الصخور. لكننا التفتنا إلى الخلف، وأخذنا ندفع الحشد في الاتجاه المعاكس. كانت شقيقتي طوال الوقت تدكّ بغضب قفازها البالي في ساعدي بقوة، تركت فيه كدمة استمرت لمدة أسبوعين، تناوبت فيها ألوان العلم*. نعم، منذ تلك اللحظة التاريخية عن حق وأنا أفسّر الأمور على طريقتي. لذلك لم أخطط لليلة رأس السنة مع الباقين المتجمعين حول المشروب الكحولي لأنني كنت أقطع الخشب في حجرة الأخشاب. كنت سعيدًا بذلك العمل. فأنا لم أفعل شيئًا مماثلًا في حياتي من قبل. كان الخشب يفوح برائحة قوية لا شبيه لها. وكيف هذا وأنا مجرد خزانة ضخمة تحتوي على سرّ صغير يسكن في قاعها. وقتها ارتشفت القليل من زجاجة فودكا فنلندية لم أتذوقها هي الأخرى من قبل. فقد اعتقدت وقتها أن الفودكا تليق بشخص يُمسك فأسًا في يده.

---

* ألوان العلم التشيكي هي الأزرق والأحمر والأبيض – المترجم.

Twitter: @ketab_n

حملت الرياح هبّات ثلج إلى داخل غرفة الخشب من بابها المفتوح. لاحظت أن البثور انتشرت في قبضتي يدي، ورأيت أسفل جلد إحداها الشفاف شيئًا، لم أعرف له تشخيصًا. بدا وكأنه صورة مصغرة من شيء ما، مشهد امتلأ بأناس متعددة الأشكال، لا أدري من هم... كان مشهدًا يحتاج إلى قفازات شقيقتي. وبدأت تتصاعد من جسمي ألسنة اللهب. ربما بسبب ذلك المشروب الناريّ. لكني استطعت أن أتحكم في نفسي، وأكف عن الشراب. رفعت الفأس إلى أعلى من جديد، ثم تركت رأسها تسقط. سمعت هدير الموسيقى قادمًا من النوافذ، وصوت فتاة تصيح:

- أين "بوبل"؟ كاد الليل ينتصف... اَعِدّوا كؤوس الشمبانيا، واعثروا على "بوبل"!

نعم. تساقط ذلك الصياح مبتلًّا وسط نشارة الخشب. فأنا اسمي "بوبل".

وحدث ما حدث. رأيت ذئبًا يقف عند عتبة الباب يراقبني. كان يبدو مثل ذئب. لكنه بالتأكيد كان كلبًا من فصيلة كلب الراعي الألماني، اصطحبه أحد الموجودين في الحفل. وقف في مكان لا يتحرّك، وكأنه تمثال محشوّ في متحف الشرطة. عيناه نابضتان بالحياة بصورة مفرطة. وكانت هاتان العينان تقولان بحدَّة:

- لا تصدقني! أنا على العكس منك أعرف ماهيَّة هذه الروائح. وسِرّك المدلل اللعين ألتهمه مع الطعام كل يوم. يا لك من شخص بائس...

كانت عيناه تتحدثان. لكنهما لم تواصلا. وفي اللحظة التي قرعوا فيها كؤوس الشمبانيا انشقّ زند من الخشب، وسقطت قطعة خشب من الأخشاب التي تطايرت في حجرة الأخشاب بين عيني الكلب مباشرة.

Twitter: @ketab_n

اخترقتني قطعة الخشب وأنا أميل على الأرض، ثم خرجت مني، والتصق السرّ ساخنًا على جوانب كتلة الخشب. أخذت أراقب الكلب من زاوية النافذة وهو يجرّ نفسه على مهل، ثم ألقى بنفسه وسط نشارة الخشب بكل رَوِيّة. وهنا صرت على قناعة بأنها مجرد خيالات. أغلق عينيّ ثم أفتحها، فأجد أن ما كان على عتبة باب حجرة الخشب لم يكن سوى كتلة من الثلج، حسنًا؟ غير أن الكلب لم يكن يتحرّك، وتراكمت الثلوج فوقه بكثافة، بلا مبالاة تمامًا مثل نظراتي.

كان عليّ أن أفعل شيئًا، أن أزيل الآثار، وأحمل الكلب بعيدًا. بدئوا يبحثون عني منذ وقت مضى. تحرّكت من مكاني. سمعت صوت طقطقة أسفل قدمي. إنها النظارة. صارت بلا جدوى.

تجمّد سِرّي فوق لوح الخشب، وصار صلبًا. وجدت فوق رفّ يبعد عني قليلًا قفازات يستعملها عمال البناء. توجهت نحوها على أمل أن تساعدني في إزالة الآثار بسهولة.

لكن بعد فوات الأوان. ظهرت عند باب غرفة الخشب المفتوح... "إيرينا". أو ربما كانت "إيلونا"؟ بالفعل لا أتذكر اسمها. حاولت أن تساعدني بكل إصرار وقتها. لا أدري السبب الذي جعلها تعتقد بأني... بأني قد أكون رفيقًا لها... ربما أني في ظروف غير تلك الظروف قد أجد في نفسي الجرأة، وأقول إن الرغبة في إقامة علاقة – هذا السعي الكبير من أجل أن تُدْخِل شخصًا ما في حياتكَ – ما هي إلا مجرد مظهر من مظاهر عجز الإنسان على مواجهة سِرّه الخاص. لكنها قد لا تفهمني. فقررت أن أستسلم لرغبتها. فالأمر لم يكن مهمًّا على أي حال. لم يكن مهمًّا على الإطلاق. فقد هبّت حرية الاختيار الباردة على الخزانة الخاوية.

Twitter: @ketab_n

وعندما تطلّعت إلى عينيها الجاحظتين، أدركت بسهولة أنه لن يحدث شيء بعد كل ذلك السعي. فقد استلقى أمامها الكلب ميتًا وسط نشارة الخشب المفعمة بالدماء، وتوارى نصف جسده في الثلوج. نظرَت نحوي. وقفت منتصبًا مثل جنديّ بجوار كتلة الخشب الغارقة في الوحل الذي انفصل عن روحي، لو كان لي روح. وفجأة دوّى هدوء قاتل من حولنا. اختفت الموسيقى، والغناء، والصياح. اختفت طقطقة سدادات الشمبانيا المتطايرة، وفرقعة الألعاب النارية. ولو حاولت بكل ما أوتيت من قوة لن أنزع من ذلك الصمت الصلب كسرة واحدة. سحبت تلك القفازات الضخمة دون تفكير، واعوجّ وجهي بما يشبه الابتسامة وأنا أمدّ إحدى يدي ناحيتها في محاولة يائسة للمصالحة، وقلت لها:

- كل عام وأنتِ بخير يا "إيفانا" بمناسبة العام الجديد!

همست قائلة:

- "بوبل!"..

ثم بدأت تتراجع بظهرها إلى الخلف ناحية الفناء. توقعت أن أجد جماعة من أصدقائي محتشدة هناك.

رفعت صوتها، وقالت:

- "بوبل"..

ثم صرخت فجأة بصوت عالٍ، فاخترق صياحها الصمت، ودار في كل أرجاء القرية، من حائط إلى حائط، وكأن السماء أمطرت صناديق قمامة بمناسبة العام الجديد، أو علب من الصفيح، أو أكفان من النحاس.

حاولت أن أستجيب لطلبها. فأنا لم أتمنَّ في حياتي شيئًا أكثر من هذا. قررت أن أتحطّم إلى قطع. وكان الأمر سهلًا على غير المتوقع. وعندما تفسّخت تمامًا بدأت أطير فوق الكلب، وفوق حجرة الخشب، وفوق القرية، وفوق الحقول المتجمدة، وفي كل مكان، بلا مبالاة، ويبرود. أطير بلا توقف مثل تلك الثلوج.

***

أرادت "إيما" أن تضع الكراسة جانبًا فوق الطاولة، لكنها انفلتت من بين أصابعها، وسقطت فوق خفها. وظهرت على وجهها دلائل جهد لم تر في حياتها مثله. عجزت عن أن تحرك يدها، أو ترفع رأسها. تثاقلت أنفاسها وكأن أطنانًا من الثلوج سقطت عليها، أو داهمتها أطنان القمامة التي سقط فيها شقيقها ذات مرة في منطقة "شوماڤا". حاولت أن تتحدث، لكن شفتيها امتلأت بالثلوج. كانت تعرف طعمها جيدًا. قديمًا أقنعت "كارولينا" بأن تتسابق معها، من منهما سيلتهم رجل الثلج قبل الآخر. فتناولت الثلج، وابتلعته لأنها أرادت أن تفوز بالطبع. وأخذت تنهش التمثال بأسنانها بكل شجاعة حتى ذاب في جوفها، وتحولت إلى تمثال مثله من الثلج، كما يحدث عند تقديم القربان المقدّس الخفيّ.

لم تعد "إيما"، بل تحولت إلى رجل الثلج. واختفى هو الآخر بعد لحظات، ذاب، وتحول إلى العدم. وأخذ شيء ما يقترب. كبرت نقطة قادمة من بعيد، وراحت تكبر وتكبر، وتحولت فجأة إلى شيء ما ينتصب مثل جبل شاهق، أو نسر ضخم له رأس أبيض. اكتسح العدم بجناحه، وألقاه على أحد جوانبه. واستسلمت "إيما" لسبات عميق إلى أن انتهت الحرب التي نشبت في حوض الأسماك، وتأججت على بعد متر واحد منها. شعرت "جيزيلا" بالبرد، وأخذت

Twitter: @ketab_n

تغلق النوافذ المتداعية بسرعة جنونية، وتُؤمّنها بخِرَق من القماش، لكن السيدة "مارتسيلا" فضلت التعرض للهواء الطلق. وما إن تفتح واحدة منهما النافذة حتى تسرع الثانية لتغلقها. واستمر الأمر على هذا المنوال. حدث الأمر في البداية صمتًا، وعلى فترات متباعدة، وسرعان ما تسارعت حركاتهما وسط تعنيف إحداهما الأخرى. كانت النوافذ تهتزّ، والسيدتان تصرخان. وتدخّلت السيدة "إيرينا" في الأمر بصوتها الناعم المنخفض:

- بهدوء من فضلكما! بهدوء! لقد نامت السيدة "تشيرنا" في النهاية، وتخيلوا! بدون حبة منومة! تخيلوا....

لم تهتم "إيرينا" بالأمر. وذهبت إلى متجر "بِيلا" للتبضُّع. وجدت والدة "كارولينا" تقف بجوار صناديق البريد عند المتجر وهي تحتضن رُزمة كبيرة من أوراق الإعلانات.

- أراكِ ترتدين ملابس خفيفة أيتها الطفلة!

لم تكن تخاطبها إلا على ذلك النحو، رغم أنها الآن في الخمسين من عمرها. شيء غريب بالفعل.

- برد اليوم لاذع على غير العادة...

ثم خفضت صوتها، والتفتت حولها، وأضافت:

- وأشتم رائحة غريبة.

كانت على حقّ، فـ"إيما" فتحت باب العمارة، وبدلًا من رائحة البنزين المعتادة، ورائحة شعر الكلاب المبلل، ارتطمت بوجهها رائحة بخور ما. أين كشك الجرائد الذي يقبع فيه ذلك السمين؟ أين المطعم الصغير المسمى بـ "يفونكا"،

ومجموعة الشباب التي تمسك بزجاجات البيرة في أيديها، وتقف هناك طوال الوقت؟ أين الطريق المختصر وحشائشه المسحوقة وسط مسطح الحشائش؟

أمسكت مقبض الباب بقوة وهي لا تدري إن كانت ستدلف إلى داخل البيت أم لا. لم يكن باب البيت يفتح على شارع شهير – لكن الآن فقط انتبهت إلى كلمات جارتها "برد لاذع"، و "رائحة غريبة" – بل يؤدي إلى أرض فضاء باردة تابعة لأحد المعابد. امتدت الأرض الفضاء أمامها وكأنها حلبة جليد بشعة. الصور في الطريق المؤدي إلى الصليب تسبح وسط أمواج قزحية الألوان. كان من الصعب التعرف على هوية من فيها، وبدا الصليب الذي يحمله المسيح في يديه من بعيد وكأنه ذبابة زرقاء غريبة، مثبت عليها تاج ذهبيّ.

ضغطت على أسنانها، وتقدمت فوق الثلج.

قالت لنفسها:

– من المؤكد أنه فخ نصبته الطبيبة "فاسالا".

لكنها فخّ يتسم بفخامة حقيقية لولا هذا البرد القارس... كما أن القميص الذي ينتهي فوق الركبة ليس ملبسًا مناسبًا لتدخل به إلى الكنيسة، ولا إلى حلبة الجليد. لو عرفت أمها بذلك لجعلتها ترتدي حذاءً نصفيًّا بلون السبانخ، وللفَّتها بكل حرص برداء محبوك... كانت الكنيسة خالية من الزوار لحسن الحظّ. لكنها رأت جسد رجل رابض فوق منضدة بعيدة. اقتربت منه، ومدّت يدها فوق ذراعه بتردد.

– عفوًا، أرجو المعذرة على إزعاجي لك. ألم تر ابنتي هنا؟ اسمها "ريبكا". إنها طويلة، ونحيفة، وشعرها عبارة عن جزائل...

Twitter: @ketab_n

كان دويّ صوتها تردده آلاف الأصوات، لكن الرجل لم يتحرّك من مكانه. دسّ رأسه في راحتيه. من الواضح أنه كان يصلي.

همست بصوت لا يكاد يسمعه:

- إنها تقيم في حي "ستراشنيتسا"، في 12 شارع "ستودني". لكنها اختفت من البيت، ولا يعرف أصدقاؤها شيئًا عنها، ولا تردّ على الهاتف.

لا شيء. لازم الصمت، وتسمّر في مكانه لا يتحرك. يبدو أنه تجمّد هنا في ذلك الوضع الغريب لذنب ما كبير ارتكبه. مالت عليه، فسمعت صفيرًا ضعيفًا يتردد بانتظام. لقد نام الرجل.

أخذت تهزّه بوقاحة ظاهرة، لأنها اعتقدت أنه ربما اعتبرها جزءًا من حلم يراوده، ولو لم يستيقظ فلن تستيقظ هي الأخرى، ولن تعثر على "ريبكا". ذعرت فجأة؛ ماذا لو مات الرجل، أو أنه قد مات بالفعل؟ عندها لن تستيقظ "إيما" مرة أخرى، وستبقى إلى الأبد حبيسة كاتدرائية لا توجد إلا في خيال رجل غريب.

تطايرت الثلوج إلى المعبد هادئة وناعمة، وظهرت سماء مليئة بكتل الجليد في مكان القبّة. اعتقدت عن خيلاء فارغة أنها أخيرًا ثقبت ذلك السقف الأخير الذي لا يعلوه سقف آخر. ووقفت هناك صورة آدمية صغيرة للمعبد، وملايين من ندف الثلوج تتساقط في جمجمتها المتصدعة.

لا يهم السقف أو غيره. عليها أن تعثر على "ريبكا". بدأت تصعد درجات خشبية في سلم دائري يصل إلى المنبر. تتجاوز كل درجتين بخطوة واحدة. ظهرت فوقها قدما المسيح الضخمة مغطاة بالثلوج – بدت وكأنها إحدى المعروضات الدميمة في بيت الرعب. لقد رأت في حياتها تماثيل عديدة للمسيح، لكن لم تر

تمثالًا كهذا من قبل، له ستة أصابع في قدمه – إنه دليل على أنها مجرد خيالات تراها. لقد تلاشى الفارق بين الحلم والحقيقة، وبين الخيال والواقع، وربما أيضًا بين الحياة والموت. فقد اتحدت كل الأمور في إصبع وحيد زائد.

فجأة علا صوت الموسيقى في الكاتدرائية بعد أن توقفت الثلوج. إنه صوت الأرغن بالتأكيد، معزوفة باخ الموسيقية، "فوجا". أزعجتها هذه الموسيقى المبتذلة. لم تتحمل أن يتلاشى من حياتها مطعم "بيفونكا" الصغير أمام هذا المعبد البهيّ. والأدهى من ذلك، أنها وصلت إلى المنبر. كادت أنفاسها تهرب منها. مجسمات صوت الأرغن تهزّ كل حجر من أحجار المعبد، وكل ذرَّة، وكل خليّة. لم يكن أمامها مهرب من هذا المشهد المهيب. فحاولت أن تصرخ ليعلو صراخها فوق صوت الأرغن، فأخذت تصرخ وتصرخ. حتى ضاع منها صوتها. كانت تصرخ مثل طفل غاضب، يحاولون أن يدسوا في فمه خلاصة القيم الثقافية. وفجأة سمعت صراخها يتحول رغمًا عنها إلى كلمات:

أمي، لماذا فعلتِ بي هذا؟ لماذا جئتِ بي إلى العالم وأنتِ تعرفين أني سأموت يومًا؟ كيف أمكنني أن أفعل بـ "ريبكا" هذا؟ أين أنتِ؟ أين تختبئين في هذا العالم المخيف؟ هل ستصفحين عني يومًا؟ أم أنني فقط نسيت المكان الذي كان يومًا ما مسكنًا لنا، وعما قريب سأتذكره من جديد؟ من المؤكد أنها ستنقضّ عليها خلف ذلك الباب الصغير، كما كانت تفعل من قبل!

أمسكت بالمقبض، وفتحت الباب بقوة.

ابتسمت لها مضيفة ترتدي زيًّا أزرقَ أنيقًا، وقالت:

- مرحبًا بكِ على متن طائرة الركاب، بوينج 737.

ثم أعطتها نسخة من مجلة "بليسك".

Twitter: @ketab_n

- أنا... يبدو أن هناك خطأ ما... أنا أبحث عن ابنتي، إنها تقيم في حي "ستراشنيتسا"، في 12 شارع "ستودني"... كما أني لا أملك تذكرة سفر...

لكن المضيفة فرجت فمها بابتسامة العارف بخبايا الأمور. ابتسامة عريضة، اختفى فيها جزء من فمها خلف فصّ أذنها. ثم ربطتها فوق المقعد بحزام أمان معقد، تمامًا كما فعل "رامبو" بالأميرة البيضاء عندما أرادت أن تذهب إلى "تشيلاكوفيتسا".

قالت:

- نحن سعداء للغاية باختيارك شركتنا والسفر معنا.

ثم أعطت "إيما" كيسًا مُغلفًا بالبلاستيك تتقيأ فيه عند الحاجة. كان الكيس ممتلئًا بشيء غريب، شيء يشبه السبانخ التي كانت يومًا ما في أحد المطابخ.

انتبهت إلى أن الطائرة مكتظة بالركاب. كانت أعينهم جميعًا تلمع فرحًا وسعادة بعطلة بدأت تطل برأسها، باستثناء رجل واحد. كان هو نفسه الرجل الذي رأته جالسًا فوق الأريكة بالكنيسة. الرجل الحلم. طرح رأسه إلى الخلف وهو يغطّ في نوم عميق.

واصلت المضيفة حديثها، وقالت:

- بالفعل، إنها شركت السياحة التابعة لنا. شركتنا التي تنظم رحلات إلى أرض كل الاحتمالات.

كان وجهها هذه المرة مجرد شرخ كبير.

سألت إحدى السيدات الأنيقات التي جلست بجوارها بصوت خفيض:

- ماذا تعني بأرض كل الاحتمالات؟

Twitter: @ketab_n

إنها السيدة "إيرينا"!

قالت بكل ودّ:

- كما تعرفين يا حبيبتي، لا يوجد في بلدنا سوى اختيار واحد على حساب باقي الاختيارات. لكن في بلد مثل "ستراشمانيا"...

- تقصدين "ستراشنيتسا"؟

- "ستراشمانيا" أو "ستراشنيتسا" لا يهم. فما هي إلا صيغ مختلفة من لغة الأموات. اعلمي أنها مجرد صيغة بنظام صوتيّ مختلف. ففي "ستراشنيتسا"، كما تقولين، يتحقق كل شيء في وقت واحد.

- يا إلهي!

ابتهجت المرأة، وقالت:

- نعم، أرى أنك تفهمين ما أعنيه! مات أو لم يمت.

صاح أحدهم من خلفنا وهو يحاول تفسير الأمر:

- كسب أو خسر.

قالت "إيما":

- صحيح، خلّص أو لخّص. كل هذا لا يعنيني في شيء! يجب أن أعثر على ابنتي، أتفهمون؟ ولن أنجح في ذلك طالما ظل هذا الرجل نائمًا.

رأت امرأة ما تتقدم نحوها في الممرّ الصغير بين المقاعد. لم تبدُ تلك المرأة كمضيفة، لا من قريب ولا من بعيد. اكتست برداء أسود، هزيلة مثل "إيما"، لكنها أطول منها قليلًا. بدت وكأنها إحدى آلهة الطيور المصرية. لم تستطع "إيما" أن تتذكر أين رأت هذه المرأة من قبل...

Twitter: @ketab_n

من حسن حظها أن عيني أبي الهول كانت تتطلع إلى العدم. نظرات لا يمكن أن تتحملها. ترى من خلالها وكأنها صارت هواء، لا شيء، وكأنها صارت حلمًا لشخص آخر. وكأن تلك المرأة صارت بذاتها حلمًا. وألقت فوق ركبتيها ورقة مطوية على شكل مربع صغير، واختفت على الفور. لا تدري "إيما" إن كانت فعلت ذلك صدفة أم سهوًا.

فتحت "إيما" الورقة بحرص كي لا تراها السيدة "إيرينا". وأخذت تقرأ ما فيها بصوت منخفض:

- "Chaimo margiz duz".

عرفت على الفور مكان البلاد التي بها كل شيء ممكن: إنها بلاد ستجد فيها "ريبكا"، وليس عليها أن تبحث عنها. بلاد دُفِن أبوها في أرضها بعد أن حرقوه، وتحوّل إلى رماد – وهنا رأت أسفل باطن الطائرة أسرابًا من النسور وسط فجوات بين السحب – وقطعوه إلى أجزاء عند سفح جبل "كايلاس" حسب رغبته. هو الآخر لم يمت.

***

استيقظت. رأت الشمس ساطعة فوقها، فاندهشت. ربما كان قمرًا، أو منطادًا، أو إطار سيارة، أو حتى قرصًا من الجبن الأبيض. من يدري.

- هيا يا حبيبتي، استيقظي! أنتِ تصرخين دائمًا وأنتِ نائمة، وتتحدثين عن "ريبكا". يبدو أنكِ فقد صوابكِ في حوض السمك هذا.

إنه وجه "مارتسيلا" المستدير الأبيض.

- أين هذه الورقة؟

أخذت "إيما" تبحث حولها في هلع. تنظر أسفل الغطاء، وتحت الفراش. وجدت أن أحدهم وضع كراستها التي سقطت من يدها فوق الطاولة. أخذت تقلب في أوراقها فوجدت صفحة عن "بوبل"، ولا شيء غير ذلك.

- عن أية ورقة تبحثين يا حبيبتي؟ يبدو أنكِ تتحدثين عن شيء لا وجود له. أنا لا أرى شيئًا هنا. لكني أكاد أُجنّ من هذه الأحلام. ربما كان هذا بسبب الحبوب المهدئة.

سقطت السيدة "إيرينا" في أحلام اليقظة، وقالت:

- أنتِ لن تصابي بالجنون من المهدئ، بل من الطبيب الاستشاري! إنه... إنه رجل له سحر لا يُقاوم. أنيق...

- كيف وأنا لا أقوى على تذكر هذه الكلمات الثلاث!

قالت "جيزيلا" بنغمة رقيقة:

- بجدّ؟

بالغت السيدة "مارتسيلا" وهي تقول:

- يا "إيما"! يا "إيما" عليكِ أن تذهبي فورًا إلى غرفة الممرضات لتأخذي الدواء. عليك أن تذهبي إلى الممرضة.

قالت دانا:

- الممرضة؟! تقصدين رامبو؟

- الممرضات يراقبونكِ وأنت تأخذين الدواء. فبعض السيدات هنا يتاجرن بحبات الدواء، يقمن بمقايضتها؛ خمسة حبات مقابل حبّةٍ مهدئة. كانت هنا ذات مرة امرأة جمعت خمسًا وعشرين سيجارة، ودخنتها مرة واحدة.

Twitter: @ketab_n

عقدت "جيزيلا" وجهها، وقالت:

- لم تتذوق بالتأكيد ولا واحدة منها.

"إيما" تضرب الباب بقدمها. هناك يوجد حوض الاغتسال. وربما ما زالت به بقايا الحبل المحترق. "جيزيلا" تخبط بيدها على الطاولة وهي تقول:

- "إيرينا"! "إيرينا"! "إيرينا" تحبُك دمية بسرعة وكأنها في فيلم كوميدي – إبر الكروشيه ممنوعة في الغرفة – وصارت للدمية رقبة ورأس – ثم تضمّ كل هذا بقوة، وتصنع منها كرة صلبة وقوية وكأنها الكون قبل أن ينشأ، ثم تدسها خلف أذنيها. بالكاد أمسكت حوض الاغتسال.

- "إيما"! هل أنتِ بخير؟

سأقضي على هذا الحيوان قبل أن يمسسني.

- لا شيء، رأسي تؤلمني قليلًا.

ثم سمعت صوتًا خلفها يقول:

- لا تفكري في "إيبلاجين"*، فلن يعطوكِ إياه!

سمعت الطبيب الاستشاري يقول أثناء الزيارة:

- إن لديّ رغبة قوية في تناول المُسكّنات!

"رامبو" تقف منتصبة في غرفة الممرضات، تخيلت "إيما" أنها تقف في فضاء موازٍ. و"رامبو" توجّه السيدة الفاضلة نحو السرير بلا توقف، وبحركات سريعة محترفة تسحب يديها وقدميها وتضمها، ثم تعاود الكرّة من جديد. إنه فضاء خالٍ من الرحمة، يقسو عليها هي أيضًا. "رامبو" تسحب

* عقار مضاد للصداع النصفي – المترجم.

Twitter: @ketab_n

وتضم، وتربط، والسيدة الفاضلة تقاوم، وتحبو على أربع مثل الحيوان. ترفع الغطاء الذي تراكمت فوقه طبقة من التراب.

تضع لها في كفها حبتين وهي تراقبها.

- أيتها النسوة! أنتن اليوم تتحركن وكأنكن في مسيرة.

- جرعة مسكن ومهدئ.

- إنها جرعة أطفال رُضّع. مهدئ واحد واثنان وثلاثة، مسلسل "أكشن" جديد.

- أين كوب الماء؟

- أنا لا أبتلع الحبوب بالماء.

- بل ستفعلين! اذهبي وأحضري الماء!

قالت "مارتسيلا" بحذر:

- ماذا قالت لكِ؟ أنها لن تعطيكِ "إيبالجين"؟

لكن "إيما" نسيت السبب الذي جاءت من أجله. واستسلمت "جيزيلا" للنوم.

- جئت أستنشق الهواء. رائحة الهواء هناك كريهة.

تقدمت "مارتسيلا" من النافذة على مهل وهي تتطلع إلى "جيزيلا" النائمة فوق السرير.

- "رامبو" إنسانة متوحشة. أنت تعرفينها يا "إيما" من القسم السفلي. انظري إليها، إلى تلك المرأة الذّكَر! ليتني أعرف ماذا لديها بين فخذيها! لديها هواية كبيرة: تحب الغزوات! سترين بنفسكِ وعيناها تبرقان عندما تقف

Twitter: @ketab_n

السيدات في طابور تفتيش في الغرفة. تعبث في أشيائهم، وتفحص كل شيء، ولا تترك عصًا تافهة لتعليق الملابس في الخزانة إلا وتفحصها. إنها لا تَملّ من تفكيكها للبحث عن سجائر مخبأة فيها. إنها شخص لا يمكن إيقافه. تنطق الكلمات وكأنها حلقات نارية.

وهنا اعتدلت "جيزيلا" فوق سريرها. فقد تخطى أحد كلاب "البودل" حلقة النار. لكنه يتصلب في مكانه وهو يواجه "جيزيلا" وجهًا لوجه، ويتوقف عن الحركة.

- من المجنونة منكن التي فتحت النافذة؟

آها. إنه الماء. تقف "رامبو" عند النافذة وهي تتحسس بيدها مظروفين:

- ابنتكِ كانت هنا، وأحضرت لكِ بعض الشيكولاتة، والعصير. هذا الخطاب منها، وهذا الآخر مِنْ... .

ثم جعّدت أنفها، وقالت:

- مِنْ صديقتكِ.

يداي. أرجو ألا يهتزّا الآن. راحت الرأس الصغير في رأسي تخفق، وتهددني بالظهور، تهددني هنا، والآن، في نقطة الصفر بأنها ستفعل. من يدري ماذا قصدت بذلك. ربما كل شيء، "رامبو"، و"مارتسيلا"، مسكنات، وأحلام، وشِباك، وسقوف سكنها أعضاء أسرة كاد يطويهم النسيان، جسد المرأة الغجرية موسوم بالندب وبأكاذيبي. أكاد أراها وأسمعها. كل تلك السنوات الزرقاء المختبئة أسفل جلدي وجلود الآخرين، كل تلك السنوات التي اتصلت ببعضها، من كتلة ثلج إلى أخرى. ربما ذابت كلها وتحولت إلى رجل ثلج واحد وحيد، عليّ أن آكله... عليَّ أن أكون هو، أقف وأذوب.

Twitter: @ketab_n

لن أقرأها الآن. تلك الخطابات التي أرسلوها. بعد لحظات، بعد أن أبتلع أول وجبة من الثلوج.

***

أقبل الليل. وظهر على السقف مطبخ جديد.

- اسمعي، ما أكثر شيء تتمنينه بعد أن تخرجي من هنا؟

ثم تبدأ السيدات في الأحلام، أحلام اليقظة العالية.

- أن التقي بحفيدي! أن يعطونه لي أرعاه دون أن يخافوا من أن أثمل، ويختفي من الشقة كما حدث في ذلك. كان باب البيت مفتوحًا، وعثر عليه رجال الشرطة في حي "أنديال" في متجر لعب الأطفال.

- أن أتناول بيتسا هاواي. بيتسا كبيرة، أكبر من عجلة السيارة!

- أن أرى نجوم السماء في الصحراء.

- أن يضاجعني أحد بأفضل طريقة ممكنة!

- أن أحضر حفلًا موسيقيًّا لـ شاكيرا.

- أنا أرى البحر.

- أن أستحمّ في حوض ممتلئ بالرغوة.

- أن أرى بناتي، ومدرب الرياضة البدنية.

- أن أصمت صمتًا أبديًّا!

.

Twitter: @ketab_n

تنتهي اللعبة. يحدث من وقت لآخر في حالة بين اليقظة والنوم: أن أضحك حتى الصباح، أن أرى ظلالنا وهي تسير أمامنا ونحن نعبر شارع المستقبل. لا نعرف إلى أين نتجه، أن أرى ظهرك الطري المحني الذي يشبه وجه صبية صغيرة، أن أرى خطواتكِ القوية التي لا تنبئ بأنها لفتاة، أن أرى النار، أن أراكِ وأنتِ تمسكين بالكوب عند النافذة وسط عمود الضوء الصيفيّ – أتطلع إلى كل ما هو خلاف العطش.

ثم بعدها، بعد حالة صمت طويلة يخترقها ضوء وجه إحدى المرضات التي تلتصقن بزجاج حوض السمك، أسمع صوت "جيزيلا" من جديد:

– أكثر ما أتمناه هو الوقت الذي أتمكن فيه من إغلاق باب المرحاض وأنا فيه.

***

بعد انتهاء الزيارة في اليوم التالي جاءت إلى الغرفة فتاة شقراء نحيفة الجسم، شعرها قصير. جلست في منتصف الغرفة، واتخذت وضع بوذا وهو يتأمل، وأغلقت عينيها. قامت "إيما" من باب الاحتياط بعدّ أصابع يديها وقدميها لتتأكد من أن عددها طبيعيّ. فجأة انتفض ذلك المخلوق، وجحظت عيناه، وأخذ يصرخ.

– هذيان؟

قالت "جيزيلا" باشمئزاز:

– كلا، إنه تأمل ديناميكي.

ثم التفتت نحو الحائط.

أخذت المرأة الشقراء نفسًا عميقًا، ثم زفرته.

شهيق:

- مرحبًا يا بنات!

زفير:

- أتمانعون لو قمت بعمل تدريبات رجال التبت الخمس؟

وبدلًا من أن تقوم بتدريب رجل التبت الأول، توجهت نوح سريري، وقالت:

- لم يسبق لي أن قابلتكِ يا أختي.

بالتأكيد ستحتضنني. ستمسكني من ذراعي، وتقبلني على جبيني. هذه هي العادة هنا.

تضغط على يدي، وتقول:

- اسمي "بلانكا"، لكنكِ غالبًا ستعرفينني باسمي الفني: "كارميلا".

آها، إنها هي ذلك الكائن الذي كاد يلتهم طعامي.

أخذت السيدة "إيرينا" تنطق الاسم بارتباكٍ:

- كا-را-ميـلا؟

بينما "جيزيلا" تغطّ مثل الخنزير على الحائط.

- كارميلا يا أختي!

نطقت الاسم بصورة صحيحة ومتأنّية وكأنها تؤدي امتحان القبول في أكاديمية الفنون. ثم صاحت بنشوة مباغتة:

Twitter: @ketab_n

- أيتها الأخوات! لقد سقطنا في القاع، وصلنا إلى أحطّ درجة يمكن أن تصل إليه البشرية. لقد فشلنا كأمهات، وزوجات، وبنات، وحبيبات....

صاحت "جيزيلا":

- ربما أنتِ من فشل

ثم أخذت ترسم شيئًا على الحائط.

- ... وها نحن هائمون في وادي من الدموع، نحمل على أكتافنا عبئًا ثقيلًا من الخطايا. لكن صدقوني! إنه مجرد اختبار يا أخواتي....

- انصرفي إلى غرفة الممرضات!

لكن تلك الردود الخرقاء لم تخرجها عن هدوئها. إنها فتاة رائعة، وفاتنة. تكبر مع كل كلمة تنطقها، وتعلو، وتعلو حتى كادت رأسها ترتطم بالسقف.

- اختبار وتحدٍّ، وتحدٍّ و...

ثم توقفت فجأة. يبدو أنها فقدت خيط الكلام.

أكملت السيدة "إيرينا" كي تحافظ على اتساق العبارة، وقالت:

- واختبار!

- إن الله يحبكن أيتها الأخوات، إنه يتابع كل خطوة تخطونها...

قالت "جيزيلا" من جديد من عند الحائط:

- إنه يشبه الطبيب الاستشاري هنا في المستشفى.

- إن الله سوف يغفر لكنّ جميعًا.

ثم التفتت نحوي فجأة، وقالت:

Twitter: @ketab_n

- سمعت أنكِ مِثليّة يا أختي. أؤكد لكِ أن الله يحبكِ أنتِ أيضًا.

مالت عليّ، ففزعت خوفًا من أن تُقبّلني. لكنها وضعت لي شيئًا ما أسفل الوسادة.

هذه صورة الأم تريزا. كانت الأم تريزا راهبة جليلة، وهي مَثلي الأعلى. لولاها لما تحملت الحياة هنا.

ثم خفضت صوتها، وأضافت:

- لو احتجتِ إلى أي شيء، إلى أن تفضي بما في قلبكِ مثلًا، لا تنسي أني هنا، رهن إشارتكِ.

فكّرت في الموضوعات التي تصورها هذه المرأة. فقد أخبرتني "دانا" أنها تعمل مُصوّرة، لكني لم أتوقع منها أكثر من صور إباحية.

ظهر "رامبو" فجأة في الغرفة بينما كانت "بلانكا" التي أطلقت على نفسها "كارميلا" تقوم بحركات تنمّ عن مرونة بديعة في جسمها رغم خطورتها. قال رامبو:

- يا آنسة "فوسيدلاكوفا"! ألا تعرفين أن التواجد في غرف الآخرين ممنوع؟

- أعتذر يا سيدتي، لكن السيدة "كفيتا" التي تقيم معي في غرفتي تمنعني من التركيز بسبب آلامها التي أتأثر بها كثيرًا.

سادت لحظة صمت أخيرًا. سحبتُ الصورة من تحت الوسادة، وأخذت أتفحص وجه امرأة عجوز ترتدي فستانًا، وشيئًا ما تضعه فوق رأسها. عندما حلّ الليل رفعت الصورة في يدي نحو السقف.

- خُذ هذه الصورة يا أخي لتضعها في شقتكَ الجديدة!

Twitter: @ketab_n

مرت دقائق لم يحدث فيها أي شيء. وفجأة ظهر صَدْع صغير، وانفتح السقف قليلًا. وخرجت من ذلك الصدع يد تلتقط الصورة.

علت ضحكات "جيزيلا" في المكان وهي تقول:

- رائع! "كارميلا فوسيدلاكوفا"!

***

أمي الحبيبة،

جئت اليوم لزياتكِ، وتركت لكِ الشيكولاتة والعصير، وكل ما طلبتِه مني. أرجوكِ أن تأكلي! لا يمكن أن تعيشي فقط على العصائر مثل العجائز. تجولت في الحديقة قليلًا، ومررت بالمبنى رقم ثمانية، وتطلعت نحوه لأُخمّن أي الغرف هي غرفتكِ. اكتشفت شيئًا لا يُصدَّق: يوجد أحد التماثيل أمام المبنى الذي أنتِ فيه، تمثال ضخم لرجل رياضيّ يرتدي زيًّا رياضيًّا. بالفعل يرتدي زيًّا رياضيًّا، وينظر برأسه نحو الأرض. لا أفهم، من هو الغبي الذي وضعه هناك! إنها سقطة كبيرة. حاولي أنْ تميلي برأسك وأنت تدخنين السيجارة سرًّا، وستطال يدكِ قدمه. إنه يشبهكِ. لقد عادت "ديتا" من (قـ). تقول إنها اجتزّت نصف أشجار الغابة بمنشارها الكهربائي الجديد. ذهبت معها إلى البار الذي نتردد عليه، البار الذي تأكلين فيه دائمًا الـ "هالوشكي"*. كم أتطلع إلى أن نذهب إلى هناك جميعًا لنشرب البيرة سويًّا. ذهبت عندكِ في الشقة لأروي الزهور، وأطعم السلحفاة. لاحظت وأنا أنتظر الحافلة في محطة "كنيچتسي" حشدًا من متعاطي المخدرات المساكين، كانوا يتسكعون هناك على

* أكلة سلوفاكية تقليدية وهي نوع المعجنات – المترجم.

Twitter: @ketab_n

مدى عدة أيام. شعرت بالحزن عليهم. تحدثت مع السيدة الطبيبة، وأخبرتني أنهم سيضعونكِ في الجناح الأرضي في المستشفى بعد بضعة أيام. وهناك ستكون الزيارات متاحة. تماسكي! ونلتقي عما قريب.

ابنتكِ ريبكا.

ملحوظة: لقد سلّمت الشهادة المرضية في جهة عملكِ، وزملاؤكِ يتمنون لكِ الشفاء العاجل. هاها!! لديهم موضوع يصلح لكتابة مقال صغير أسفل عرض سخيّ لمجموعة جديدة من أدوات التجميل.

ملحوظة أخرى: كدت أنسى! تخيلي أني رأيت في الحديقة شابًّا يجلس فوق الأريكة. أحد المجانين، لفّ جسمه بالكامل بقطعة من القماش، يرتدي في قدميه نفس الخفّ الذي أعطته لكِ جدتي في أعياد الميلاد!

***

- - يا سيدة "تشيرنا"، ربما هي المرة الخامسة، وأنا أقول لكِ: غير مسموح لكِ بالتنزه في الدهليز!

هل فعلًا قالت "التنزّه". التنزّه هذه كلمة جميلة للغاية. فتحت "إيما" باب المرحاض الذي لا يمكن غلقه – يبدو أن "جيزيلا" كانت محقّة في أمنيتها تلك. كاد يرتدّ فوق رأسها. يا إلهي! ما هذا؟ كان سقفه منخفضًا، واضُطرّت إلى أن تحبو فيه. اعتقدت في البداية أنها صارت طويلة فجأة، لكن الحقيقة كانت خلاف ذلك. مستحيل... وجدت فوقها أسطوانة خشبية صلبة لإحدى الطاولات، والشيء الحقيقي الوحيد هو ما كان يظهر تحتها، النصف السفلي من الجسم. مالت

Twitter: @ketab_n

أسفل الأسطوانة الخشبية، فرأت أربعة سيقان. اثنتان لأمها، واثنتان لجارتهم، والدة "كارولينا". اثنتان تلبسان سروالًا، واثنتان تلبسان تنورة.

بسطت يدها تعبث في كومة فاصوليا، وأخذت ترتّبها في عشرة صفوف فوق بعضها. كان عملًا مثيرًا للأعصاب. فحبات الفاصوليا تجلجل وترتطم بأرض الغرفة. لكن كان من الضروري بناء جيش من الفاصوليا، وعمل مواقع دفاعية متعددة تقاوم بها السيقان الكبيرة، تلك الحصون التي صنعتها الأمهات.

- "إيما" الصغيرة لا تحب السبانخ على الإطلاق.

- لا يهُمّ، إن بها الكثير من الحديد.

- لكنها تتقيؤها في كل مرة.

- ستفعل لثلاث أو أربع مرات، وفي المرة الخامسة ستأكلها.

- تلك السلحفاة التي أحضروها لنا من يوغوسلافيا، تخيّلي أنها عندما ماتت...

- هل ماتت فعلًا؟

- ألم أقل لكِ؟ عندما ماتت، لم تنزل من عينيّ "إيما" دمعة واحدة حزنًا عليها... إنها امرأة... لا أدري كيف أصفها... امرأة جافة مثل زوجها.

سمعت "إيما" فجأة أحد الأصوات. لم يكن صوت أحد ممن كان نصفه الأخر فوق الطاولة في المرحاض. كان صوتًا رنّانًا وكأنه يتحدث في كوب. وضعت أذنها فوق ساق الطاولة التي يخرج منها الصوت:

- جسد ومعبد، مثل فضاء وصندوق. إنها كلها أماكن مغلقة. أنا وحدي من يستطيع أن يصنع فيها فجوة كي تلتقطي أنفاسكِ، ثم تحلقين.

Twitter: @ketab_n

ربما قال ذلك المخلوق المحبوس شيئًا آخر. لكن "إيما" لم تفهم منها أية كلمة، كما أنها سمعت صوتًا قادمًا من أعلى يقول:

- ليس في صالحكِ ألا تأكلين السبانخ، وتكتمين مشاعرك في نفسكِ. هل تمانعين في أن تذهبي لتلعبي مع "كارولينا" في غرفتها؟ إن صوت الفاصوليا مزعج جدًّا.

رفعت "إيما" رأسها بكل اشمئزاز. لن أفعل! عندما رفضت في المرة السابقة أن تغيّر ملابس الدُّمى، وتُلبسها رداء النوم، صنعت "كارولينا" منقار دجاجة بقبضة يدها، وأخرجت لها لسانها. لم يكن في يدها أن تفعل أي شيء. ودفعتها نظرات أمها المتأرجحة أن تدخل إلى غرفتها.

بدا أن "كارولينا" لم تنتبه إلى قدومها: أدارت الدمى النحيفة، واحدة تلو الأخرى، ووضعتها على بطونها في سرير صغير. رفضت الدمي النوم بتلك الطريقة، فأخذت تشرح لهم بكل إصرار بأن النوم على البطن أكثر أمنًا كي لا تدخل بقايا القيء إلى الرئتين، فيختنقوا. راحت "إيما" تتابع الموقف باهتمام كبير. تراقب حركات أصابع "كارولينا" الرشيقة تحسبًا من أن تتحول من جديد إلى منقار دجاجة. وقررت أن تفتح معها حوارًا.

- هل أخبرتكِ أمكِ بأنكِ أنتِ ستموتين؟

اندهشت "كارولينا". واتسعت حدقة عينيها، ولمعت أكثر من أي مرة. وأخذتا تدوران في الحجرة مثل مصباحين صغيرين.

- إنها الحقيقة. ولو لم تخبركِ بعد، فستعرفين ذلك بنفسكِ قريبًا. قريبًا...".

ثم أخذت تفكّر في مقابل مناسب لكلمة "قريبًا" كي تجعلها دهشة، فقالت:

Twitter: @ketab_n

- غدًا صباحًا أثناء تناول الإفطار. وسيقولون لكِ أنه أمر لا مفر منه، وأننا جميعًا سنموت. لكن هذا...

اقتربت "إيما" من "كارولينا" على مهل، ولما صارت في قريبة منها بدرجة كافية ألقت في عينيها الواسعتين بجزء من رمال الحقيقة، وقالت:

- لكن هذا افتراء. فأحدهم سيبقى على قيد الحياة. أتفهمين؟

ارتبكت "كارولينا"، وقالت:

- ومن... ومن ذا الذي لن يمُت؟

قالت "إيما" على عَجَل:

- عندما تلتقي أعين اثنين، فسيبقى منهما على قيد الحياة من يطيل النظر أكثر من الآخر.

قالت "كارولينا" مستنكرة:

- هذا هُراء.

ثم بدأت عيناها تلتقط الطُّعْم. ظلت صامتة للحظات، ثم التقت عيناهما، وحدقت كل منهما في الأخرى. واختفى كل شيء. غرقت نظراتهما المتأججة. التهمتها تلك المباراة التي لم تكن من أجل الحياة أو الموت. بل من أجل الخلود.

اختفت الشهود. نامت كل الدمى وأعينها فوق الفراش. حاولت "إيما" ألا تنظر إليها. توقف الزمن، ولم تعد الأمهات أمهات. وتحولت الغرفة إلى عين ضخمة من عيني "كارولينا". قطرة ماء في محيط تسبح فيه "إيما"، وتبحث فيه عن "كارولينا". يبدو أنها تجلس صغيرة منزوية مثل المحار القابع خلف

Twitter: @ketab_n

تلك الشعب المَرْجانية، تائهة في فراغات عينها اللانهائية. فقد تحول التحديق المتواصل إلى كيان كبير، أو بالعكس.

أخذ الدمع يتدلّى على وجهيهما، واهتزّت جسداهما. كانت الفاصوليا في المطبخ قد نَبتت، وتجاوزت البيت بطولها. وشاخت الأمهات وهن يواصلن الحديث. ثم ماتت، وتحولن إلى رماد. فلم تقوَ إحداهن على المباراة.

لم تتوقع "إيما" على الإطلاق أن تبدأ "كارولينا" في الاختباء وسط دُماها. حاولت عدة مرات أن تتحكم في عينيها قبل أن تسقط، لكن عبثًا. سقطت فوق السجادة، وانكفأت على نفسها، واستسلمت للنوم. وضعتها "إيما" في الفراش فوق بطنها. وجهها نحو الفراش كي تتنفس القيء وهي نائمة.

***

جلسن حول الطاولة يتناولن طعام الغداء. التزمت كل منهن الصمت اليوم على غير العادة. وغرقت كل واحدة في طعامها. مسحت "إيما" آخر بقايا الطعام على فمها بقطعة خبز. فقد وعدت "ريبكا"، وتعهدت لنفسها بأنها ستتناول الطعام منذ الآن فصاعًا. التهمت "كارميلا" وجبتها بشراهة حيوان جائع دون أية رويّة، ثم دارت بعينيها الشاحبتين الغاضبتين بين الأطباق، تبحث عما تبقّى فيها. كانت "دانا" مُحِقّة: ذات مرة نسيت "إيما" أن تطرق على باب المرحاض، ودخلت فرأت فيه الأم تريزا. لم يكن أحد في القسم يناديها إلا بهذا الاسم. وجدتها تحتضن حوض المرحاض، وتتقيأ فيه كل ما التهمته من طعام.

انتابت "إيما" موجة من التعاطف نحوها. تعاطف عجزت عن مقاومته وكأنه ليس منها، وكأنه لم يأت من داخلها، وجاءها من حياة أخرى عاشتها

Twitter: @ketab_n

من قبل. لكن شيئًا من هذا لم يحدث. أغلقت الباب على الفور. بالطبع لم تحكِ لأحد عما رأته، وظلت عينا المُصوّرة تطاردها منذ تلك اللحظة. نظرات تضرّع وتودد لا يتوقف كي لا تحكي لأحد شيئًا عما رأته.

قطع الصمت الرهيب صوت الأم تريزا المتهدّج الرقيق مثل خيط العنكبوت، وقالت:

- يا "إيما"، أود أن أطلب منكِ شيئًا...

لم ترفع عينيها عن الطبق. تركتني للحظات غارقة في وهم أني وحدي، أرُصّ أوعية الطعام فوق حوض المطبخ، ثم أصنع قهوة – شرب القهوة في القسم ممنوع – ثم أنصرف بعدها لزيارة أمي في حيّ "سميخوف". تَهمّ أمي بالانصراف بكل همة، تتقدمني في الشارع، ثم نتوجه إلى مقهاها المفضل حيث يصنعون فيه الحلوى. تطلب إكليلًا من الخبز. تطلب أن يكون مستديرًا، فالإكليل المكعب لا يكون إلا في أيام الأحد. أي بعد لحظات.

واصلت "كارميلا" وهي تكاد تهمس:

- أحاول أن أتجاوز هذه الفترة الصعبة من خلال الإبداع.

- الإبداع؟ لكنها لا يمكن أن تمتلك كاميرا للتصوير هنا؟

- لا، لا، لقد بدأت أكتب. أصبح لدي خمس عشرة صفحة، أكتب مقالًا.

بقيت هذه الكلمة عالقة، تتردد طويلًا، تهتزّ وتموج مثل الهواء فوق النيران. المقال يبحر، ويصل عبر سطح ماء أسود إلى الصندوق، حيث تتبادل ممرضتان الخدمة. تندهش الممرضتان، فتلتفتان نحونا. إحداهما ترغب في التقاط الكلمة، فترفع يدها مثل طفل يمُدّ ذراعه ليصل إلى الفقاعة، فينفجر المقال في كل اتجاه.

Twitter: @ketab_n

"إيما" تفكّر مليًّا في السيدات المنكفئات فوق الأطباق؛ مَن منهن تعرف معنى هذه الكلمة، ثم تنفجر في الضحك بصورة هستيرية. ترى في تلك الموجة المباغتة، في الفراغ خلف أسنان "جيزيلا" فراغًا آخر اختفت فيه كل التناقضات، التهم كل ظاهرة الأخرى، البيضاء تبتلع السوداء، والعلم يمتص الجهل، والكلام العاقل يمتص هذيان المجانين، والعكس. الفراغ الذي تنتصب فيه أجساد كل هؤلاء السيدات وكأنها أحجار ضخمة منتصبة منذ الأزل، جلمود يهتزّ من كلمة غامضة تخترق طريقهم، من مقال يشبه سفينة تائهة في عرض البحر.

التقطت "إيما" الطُّعم، وراحت تهتزّ في طرفه.

- وما هو موضوع المقال؟

- عن الآلام. عن الآلام وأسبابها. لأن...

وهكذا استردت "كارميلا" عافيتها، وصارت من جديد امرأة مُتّقدة ومستنيرة، لا تخاف شيئًا. واثقة من الأجواء التي توفرت لتتحدث في أمر يهُمّها.

- لأن الألم مثل العقاب، لأننا نتألم بسبب خطايا الآخرين، كما يتألم الآخرون بسببنا. إن البشرية كُلّ لا يتجزّأ، إنها بمثابة كائن حيّ، كل خلية فيه، وكل حزء...

نهضت "دانا" بِحدّة، وأخذت تجمع الأطباق فوق العربة. ولم تكسرها لحسن الحظ. وبدأت السيدات يتسللن إلى الغرفة واحدة وراء الأخرى، وتركوني وحدي معها. حتى "جيزيلا" قالت: "اخرسي أيتها الغبية!" بصوت مكتوم، وبدون أية إيماءة، وهي عند عتبة حوض السمك. خلّفت وراءها باحتقار مهيب امرأتين تهذيان! لكن "إيما" كانت ترغب في متابعتها رغم الألم. فبعد مرور بضعة أيام على وجودها هنا صارت جزءًا من المجموعة.

Twitter: @ketab_n

فالإنسان بعد أن يقضي بضعة أيام هنا لا يدرك الأمور بعقله، بل بمشاعره. كانت لا تطيق رائحة "كارميلا"، وغم ذلك يجمعهما الحديث الراقي. إنها لتتتبع رائحة "جيزيلا"، مدمنة المخدرات الغجرية، حتى آخر العالم. أمر غريب: أنا لا أصدق كلمة مما تقوله، لكن دمي يصدقها.

انصرف الجميع. لذلك لم ترَ إحداهن ما حدث لاحقًا، باستثناء "مارتسيلا" المستديرة.

بعدما صارتا وحدهما سمعت "إيما" وهي تجلس أسفل لوحة صورة المشاهير السعداء صوت غناء مكتوم قادم من إحدى الغرف. كان ذلك الصوت يغني على نحو حزين ومتردد، تمامًا مثلما كانت أمها تغني يومًا ما.

بقيت في مكانها لا تتحرك. تخيلت أنها لو نهضت من مكانها ستتوقف الأغنية على الفور، وربما اختفت من ذاكرتها إلى الأبد. نسيت "كارميلا" تمامًا. لم تنتبه إلى تيار الكلام المتدفق من فمها، ولا من ابتهالاتها في قضية الآلام. لكن "كارميلا" أخذت فجأة نفسًا عميقًا– شهيق – ثم زفرت بطاقتها الرابحة في وجه "إيما":

– خذي الهولوكوست –مثلًا.

كان لتلك الكلمة التي جاءت على لسانها تأثير كبير على "إيما". انتشرت الغشاوة أمام عينيها، وتوتّر جسدها وكأنها تستعد كي تقفز، ونتأت من مسامّ بشرتها شوكة صدئة من أحد الأسلاك الشائكة. وبعدها – وبعدها ظهر ضوء أبيض حاد، وظلام، ورنات جرس.

– أمي! أحدهم يدق الجرس!

Twitter: @ketab_n

تهرول ناحية الباب وهي تجر وراءها الفأر الذي عثرت عليه أمي في سلة القمامة، ورتقت جرحه، ثم نفخت فيه حياة جديدة. وقفت خلف الباب سيدة سوداء طويلة. أعطت لأمي قطعة من القماش، قطعة صغيرة ومستديرة.

- طاب يومُكِ. اسمي "شفارزوفا"، وأسكن في الطابق السفلي. وأردت فقط أن أسألكم إن كانت هذه القبعة لكم، فربما سقطت من شرفتكم...

اختفى الضوء، وتبخّر معه الظلام. وأخذت القبعة الصغيرة تتراقص، وصندوق ضخم يدور في الفراغ الممتد. مالت السيدة على "إيما"، وملّست على رأسها، ثم دست في يدها بيضة من الشكولاتة بها لعبة ما. فتحت "إيما" البيضة فوجدت فيها بيضة أخرى من الشكولاتة. بيضة ضمت في داخلها بيضة أخرى مثلها، وأصغر منها بقليل. وهكذا إلى أن سئمَت من الأمر، ونامت.

عندما استيقظت وجدت قدميها ويديها مُقيّدتين بالسرير. أرادت أن تلقي نظرة على السقف. من المؤكد أن ذلك الغناء، وتلك الأغنية الروسية قادمة من هناك. لكن "مارتسيلا" وقفت عائقًا أمامها وحجبت عنها السقف:

- ياه يا "إيما"، يا لكِ من امرأة مشاكسة! أنتِ نحيفة جدًّا، وكأنكِ عائدة من معسكر الاعتقال. لم أر شجارًا كهذا من قبل! لقد عجزوا عن أن يحولوا بينكِ وبينها، رغم أنكما كنتما تتحدثان بطريقة جيدة، أنتما سيدتان مثقفتان. وهذا واضح عليكما! وفجأة...

قالت "جيزيلا" وهي تتثاءب:

- أيتها الجمييييلة!

ثم عقّبت على ما قالته "مارتسيلا":

- كان بالفعل صياحًا هادرًا. في البداية أخذتِ طبقًا به بقايا الحساء، ثم...

Twitter: @ketab_n

صمّت "إيما" أذنيها. همهمت "جيزيلا" وهي تعطيها كتيّبًا كان فوق الطاولة الصغيرة، وقالت:

- اسمعي! دعكِ من هذا الأمر. سرعان ما سيفكون وثاقكِ. اقرئي لي شيئًا يجعلني مثقفة مثلكما.

إنه كتيب أحضرته "ريبكا"، أحد الكتب التي كانت تقرأها. أرادت أن تتخير جزءًا يناسب "جيزيلا"، لكن الوقت لم يتسع لمثل هذه الأمور. كما أنها لم تستطع تقليب صفحات الكتاب بيديها المغلولتين. ففتحت الكتاب بشكل عشوائي، وأخذت تقرأ منه. علا صوت شخير "دانا" الهادر، القادم من ركن الغرفة المقابل:

- لنأخذ صفحة من الورق كمثال. إن الصفحة الورقية لا تتكون فقط من قلم ومداد، لكن من كل شيء. الورق يتكون من عناصر أخرى غير الورق. ولو تتبعنا تلك العناصر منذ بدايتها، من الألياف حتى الخشب، ومن الخشب وصولًا إلى الغابة، ومن الغابة إلى الحطّاب، ومن الحطّاب إلى أبيه وأمه، إلخ سنتأكد من أن الورقة هي في الواقع شيء فارغ. لا هويّة له. تتكون من عناصر ليست منها، من عناصر غير ورقيّة. وعندما نأخذ منها تلك العناصر، نجد الورقة فارغة، ولا وجود لها.

صمتت "إيما" وهي تشعر بوجهها يتورّد خجلًا، وكأنها قرأت قصيدة في حفل مدرسيّ. وكأن شغلها الشاغل هي الكلمات، والصياح، والبكاء، والابتذال، وآلاف التوافه المشابهة. وكأن الحرية انتزعت منها، وكأنها صارت عاجزة على أن تخترق الحوائط، وتتجاوز السقف لتدخل إلى ماضيها وماضي الآخرين، أو تذهب إلى مستقبلها ومستقبل الآخرين كما يحلو لها. وكأنها عاجزة عن أن تقرأ أي شيء بصوت عالٍ، سواء كان قُرآنًا أو بيانًا من الحزب الشيوعيّ. وكأن كل شيء غير مسموح به هنا. أحضروا الليلة الطبيبة "هيلجا" وهي في حالة

Twitter: @ketab_n

إغماء، وراحت تلك الطبيبة تتغوط على نفسها في السرير حتى الصباح. هل تخجل من مقطع ألقوه في العدم، أو من كلمات لم يستمع أحد إليها؟

ورغم ذلك – تتجول في الغرفة وهي غارقة في أفكارها، تحوم، وتقترب، وتشرح تمثال الطبيبة "فاسالا" المصنوع من المرمر – ورغم ذلك تنبح "جيزيلا" وسط الصمت الذي رغبت فيه "إيما" بشدة، وتقول:

– يا إلهي! إنه لهراء، أليس كذلك؟

أخذت الطبيبة "فاسالا" تترنح بعض الشيء، ثم تتجمد في مكانها فجأة، وتتحدث إلى الحائط، على بعد خمسة عشر سنتيمترًا من رأس "إيما"، وتقول:

– للأسف يا سيدة "تشيرنا"، نظرًا للحادثة التي وقعت اليوم، كنا نريد أن نضعكِ غدًا في القسم السفليّ، لكن نظرًا للحادثة التي وقعت اليوم...

كانت تهتز قليلًا وهي تتحدث. لم يكن أحد يرغب في أن يسمع كلمة "حادثة" للمرة الثالثة، ولا حتى هي نفسها. فراحت تتحدث إلى ذلك الحائط الذي صار لونه قرمزيًّا تحت وطأة الكلمات، وجرّاء طلائه مئات المرات منذ نهاية القرن التاسع عشر. لقد عقدْتِ العزم على أن تقبلي التحدي، وتظهري قدرًا من التعاون. وألا تتسببي في مشاكل، وأن تتقبلي نظام العلاج. وأن تكشفي القناع عن تطور حالة الإدمان... وأن تتقبلي التحكم في نفسكِ تحت رعاية الآخرين... وأن تَصْقُلي يوميًّا درع الحضارة قبل أن تدخلي إلى هنا.

والآن آلت الأمور إلى هذا الوضع. من يقول إني أبكي لأول مرة في حياتي وأنا في الخمسين من عمري عندما فكوا قيدي بذلك المفتاح الصغير الذي يشبه مفتاح صندوق البريد أو مفتاح الدراجة. فكّوا قيدي وكأن شيئًا لم يكن، وسقطت القيود على أرضية الغرفة المغطاة بمشمّع بلاستيكيّ، وصاحت الممرضة:

Twitter: @ketab_n

- إلى الحمّام أيتها السيدات!

واستلمنا الفوط، وقطع الصابون والشامبو، وخلعنا ملابسنا، ثم دخلنا عرايا إلى حجرة الاستحمام، دفعة واحدة. نتخبّط من البرد. قامت "جيزيلا" على الفور برسم شكل المعيّن على نافذة مفعمة بالبخار، ثم فتحتها قليلًا، وأشعلت سيجارة. فثارت ثائرة النسوة، وتوجهن نحوها يضربنها، فالتصق بالزجاج جسد "جيزيلا" النحيل المخضّب بالندب، وراحت تنفث دخان السجائر في الحديقة المظلمة الباردة القذرة. تحرّكت أجساد النساء وسط البخار، أفْخاذ نحيلة وسمينة، رُكَب وسيقان انتشر عليها الوشم هنا وهناك. صراخ ولعنات، وضحك وسط تيارات المياه. كشفت "إيما" أخيرًا عن جسدها، وتقدمت نحوهن بتردد كبير، عارية مثلهن رغم خوفها مِن أن تفتح بابًا وهي لا تعرف ما يوجد خلفه. وهنا انفلت قدمها، وانزلقت فوق بلاط الحمّام. سقطت، وسقطت فوق جرف جليديّ، حتى وصلت إلى شاطئ النهر.

أخرجت لسانها، وابتلعت ندفة الثلج. كانت الثلوج تتساقط بكثافة، والنهر يتقلّب من جانب إلى آخر وكأنه كائن خياليّ ضخم. لم تشعر بالبرد رغم أنها عارية، ولم يعترها الخجل. لم تشعر بأي شيء. لم تشعر إلا بشوق إلى "ريبكا". نهضت كي تقتفي أثرها الذي ربما انطبع في الثلوج. لكنها كانت تتساقط بلا توقف. فرأت "إيما" الشاطئ المقابل للنهر وقد غطته الثلوج، وكأنه لوحة انطباعية، وجسدًا محدّبًا لأحد الصيادين، قابع فوق ذلك الشاطئ الذي كسته الثلوج.

كان الرجل يجلس ساكنًا فوق مقعد قابل للطيّ عند الشاطئ لا يتحرك. لم تعرف أي شيء عن صيد الأسماك. لكنها تعجبت من أنه يصطاد الأسماك في فصل الشتاء، من نهر تسبح فيه كتل الثلوج. كان يضع عند قدميه علبة من

الصفيح بها طُعْم السمك. تحتشد فيها الديدان بالتأكيد كما تحتشد الأفكار في رأسها.

صاحت بصوت واضح كي تختفي كلماتها وسط النهر: "ذلك الصيّاد الجالس هناك، ذلك الصياد البدين، يصطاد الأسماك بأفكاري. عقدت يديها فوق صدرها، وأخذت تنظر إلى الشاطئ الآخر من النهر. قام الصيّاد بنفس الإيماءة. رفعت يدها على مهل، ونقرت بإصبعها فوق قبعة تخيلتها فوق جبينها. أجابها ذلك الرجل الذي صنعته ندف الثلوج، بإيماءة مماثلة.

تخيلت "إيما" أن كلا الشاطئين متشابهين. فالرجل يحاكيها في كل حركة تقوم بها وكأنه صورة منها. بدا النهر وكأنه انفلق وسط حائط من المرايا، تنعكس عليها صورتها هي نفسها، لكن على هيئة رجل. صورة غير دقيقة، ومتأرجحة، تظهر فيها بعض أجزاءها كي تُظهر لها صورة أخرى من الحقيقة. تسمّرت في مكانها عندما أدركت أن صائد الأسماك عند الشاطئ المقابل ما هو إلا أبوها الذي مات.

انتبهت إلى هذا بعد فوات الأوان. بدأت المساء ينتشر فوق قناطر الجسر التي تشبه حويصلة الطائر المنفرجة. وأخذ أبوها يضم قصبة الصيد، ويلقي بما في علبة الصفيح ومعها ذكرياتها إلى النهر. وقبل أن يستقل سيارته، وقبل أن يختفي في وسط شباك الموت وعُقدِها الواضحة التي رسمت صورته، تمامًا كما فعلت ندف الثلج منذ لحظات، التفت إليها، ونظر في المرآة، ولوح بيده ليودعها. بادلته "إيما" نفس الإيماءة.

لاحظَت كتيبًا صغيرًا بجوارها فوق الأحجار. أزالت الثلج عن ورقة الجريدة التي كانت تُغلّف الكتيب، وفتحته.

Twitter: @ketab_n

- لو أننا تتبعنا تلك العناصر من مصادرها... من الألياف حتى الخشب، ومن الحطّاب إلى أبيه وأمه، إلخ... كان ذلك هو الجزء الذي قرأته "جيزيلا" اليوم. هذا يعني أن "ريبكا" كانت هنا، وأنها جلست في نفس المكان الذي تجلس فيه الآن! ما الذي رأته على الجانب الآخر من النهر؟

نظرت "إيما" مرة أخرى إلى النهر. لكن النهر لم يكن نهرًا، ولم يكن الثلج ثلجًا، ولا الكتاب كتابًا: طاقة مخيفة في قلب كل الأشياء صهرتها في مادة متجانسة نابضة، خليط من الألوان، والأصوات، والحركات التي تحررت من الإدراك الإنساني.

حاولت أن تصعد التل بمساعدة من إحدى يديها. كانت يدها الأخرى ممسكة بالكتاب، فصار الصعود صعبًا. سمعت صوت لهاث وأنين. استمر الأمر للحظات إلى أدركت أنه صادر منها. زحفت فوق يديها وقدميها، إلى أن أمسكت بسور من الأسلاك. زالت عن الثلوج. لاحظت وهي تنظر إلى راحتيها أن الدم لا يسيل منها كما توقعت، بل يتدفق منها النهر الذي أخذته معها دون أن تدري. ابتعدت عنه. كان النهر يضيء بعدد لا نهائي من مصابيح فندق عائم ضخم يرسو في الجانب الذي ظهر فيه أبوها. سمعت هدير الطريق الأسفلتي قادمًا من بعيد. تعثّرت قدماها في الظلام، وألقى إليها في الطريق بقطع من الأسلاك، وقوارب قديمة، وأكوام من البراميل الفارغة. لكنها لم تشعر بشيء. لم تشعر بأي ألم، خيط سنارة أبيها الخفيّ يجذبها نحو ابنتها.

تسلقت جبلًا، لم يكن سوى كتلة من نشارة الخشب، والرمل، وشيء آخر عَصِيّ على التسمية. ظهرت السماء من فوقها مترامية الأطراف، مصنوعة من ورق مقوّى، والثلوج لا زالت تتساقط، فجأة أمسك أحدهم بساعدها بقوة، وقال:

- أطفئي النور!

Twitter: @ketab_n

كادت اليد التي ترتدي قفازًا أن تسحقها. لكن "إيما" لم تهتم. ارتسمت بجوارها في الظلام ملامح رجل عجوز، يرتدي فوق رأسه قبعة رُوسيّة الطراز، وجسمه كله ملفوف بالقماش كالمومياء.

- لكني لا أضيء! ما هذا الذي تنتعله في قدميك؟ إنه خُفّي الذي جاءني في أعياد الميلاد!

- بل تضيئين، عيناك بها ضوء. أطفئيه!

أطفأت عينيها بكل استسلام.

- هل أنتِ ذاهبة لحضور اجتماع لجنة شركة الحفاظ على الظلام؟

لم يحرر يدها، بل سحبها بمحاذاة الحائط. ثم انعطف عند ناصية الشارع. وراح يثرثر مع نفسه بصوتين مختلفين وهما يتعثران في أحد الأفنية:

- الجذور تقف صلبة في الأرض من عصر إلى عصر.

ألقى الجملة بطريقة مسرحية جعلته يسخر من نفسه بصوت غريب:

- أتقصدين البنجر؟ القطة تلاحق كلبًا، والكلب يلاحق فتيات، والفتيات تلاحقن جدًّا، والجدّ يلاحق جدّة، يتبع بعضهم البعض، ويتلاحقون...

- اخرس! إن الأموات، والأحياء ومن لم يولد بعد يتتبعون بعضهم منذ أبد الآبدين...

سحبتها يد العجوز القوية خلفها وكأنها دمية عارية لا حياة فيها. مرّا بدهليز ضيق تنبعث منه رائحة بَوْل، وأشياء أخرى، ثم وجدت نفسها تقف على أعتاب أرض فضاء كبيرة، يبدو أنها كانت صالة إنتاج يومًا ما. فقد رأت بقايا ماكينات مبعثرة هنا وهناك، وسيور لا تتحرك. وفوقها، تحت السقف مباشرة خطاطيف

Twitter: @ketab_n

حديدية لامعة قليلًا فوق حبل من الحديد، تتأرجح وسط تيار الهواء. وتصاعدت النيران من أرضية المكان الإسمنتية وانتشرت في أماكن عِدّة. حامت حولها أجساد مُلْتَفّة في أكياس النوم على هيئة حشرة عملاقة تصدر حفيفًا.

توقف الحشد عن الحركة لدقائق، وتسمرت أعين تلك المخلوقات على القادمين بكل صلابة وبرودة. انطلق الكلب نحو "إيما". وظهرت بين عينيه ندبة، ينبش بمخالبه في أرض خرسانية، ويصدر صوتًا يتناغم مع أغنية عيد الميلاد التي فات أوانها منذ وقت بعيد. إنها تعرف – بالتأكيد! بلا أدنى شكّ من أين جاء هذا الحيوان: تحرّكت كتل الثلج عند عتبة باب غرفة الخشب، ودبت فيها الحياة فجأة. وقف الكلب على أقدامه الأربع، ونفض الثلج عن جسده، وانطلق ناحية الفناء. أخذ يجري بجوار السور بقلق. كانت البوابة مفتوحة. انطلق الكلب في طريق المرور، وانقضّ على السور، وأخذ يجري ويجري، ويطير بأقصى سرعة متجاوزًا العواصف الثلجية، والطقس السيئ، إلى أن وصلت إليها تحية الكلاب التي أطلقها "بوبل".

مالت كي تلاطف الكلب.

– احترسي! إنه يعَضّ!

تجمدت يدها في منتصف الطريق. كان صوتًا مألوفًا لها، أين سمعتْه؟

– جيزيلا"، هل أنتِ هنا؟"

ابتسمت، وظهرت لها واحدة من تلك الفراشات التي تحوم حول النيران. لكن "جيزيلا" ظلت تتقلب في كيس النوم، ولم ترَ "إيما". نعم، إنهن سيدات حوض السمك. رأت "دانا"، والملكة البيضاء، ووجه "مارتسيلا" المستدير الباهت الذي يظهر من بين ملابسها، وأيضًا عيني الأم تريزا الكبيرة الشاحبة

Twitter: @ketab_n

التي أمسكت بها مثل تلك الخطاطيف الحديدية هناك عند السقف، وأخذت تجوب بها الصالة وهي قابضة عليها. رأت الكثير من النساء. كان كل شيء يتصدع ويتكسر وسط ألسنة اللهب، كل شيء تصل إليه النيران. وتطايرت بقايا حياة قد انتهت منذ زمن نحو السقف وسط دخان خانق.

تناثرت حولهن صناديق النبيذ المعبأ في عُلب ورقية، وحقن الدواء. أدركت "إيما" أنهن جميعًا في حالة نشوة غامرة، خارج الواقع، في حالة سكر شديد أسفل اللوحة. وجاءها صوت من مكان ما يقول:

- أنتِ أيتها الجمييييلة! إنه سَفَر في الدرجة الأولى!

التفتت "إيما"، وهمت بالانصراف، ومغادرة هذا المكان. توجهت إحدى شخصيات "إيما" نحو باب الخروج، وتسمرت الأخرى في مكانها. لقد نسيت تمامًا أنها تبحث عن "ريبكا"، وتوجهت نحو السيدات. فمن المؤكد، لم يكن لديها أدني شكٍّ في ذلك، أن لديهن ما تبحث عنه. لاحظت وجود حافظة أقلام ملقاة فوق كومة من الأشياء. مدت يدها وأخذتها. كانت الحافظة متهرئة وممزقة، وصارت صور ميكي ماوس عليها غير واضحة المعالم. لكنها كانت واثقة من أنها ستعثر عليهم بداخلها. شقّت الحافظة بالزمام المنزلقِ – مبراة أقلام، وثلاث أقلام للرسم، وجدول للحصص اختفت معالمه تقريبًا – فأمسكت في يدها شريطًا ممتلئًا بحبات الدواء.

كادت تفرغه في قبضة يدها لولا أن أحدهم ثنى يدها، وأخذ ما بها من كنز ثمين.

- انتظر، انتظر! إلى أين تهرول أيها الرجل؟

إنه عجوز يرتدي قبعة. أدهشها أنه ما زال موجودًا. لكنه في هذه المرة يتكلم بصوت امرأة.

Twitter: @ketab_n

- هل دفعت رسم الدخول؟

أخذت تتابعه بقلق وهو يدسّ شريط الدواء الذي يشخشخ في قفازه.

يا إلهي! يجب أن ترمي للنيران شيئًا لتطعمها به. لكن لم يكن معها شيء، لم تعثر أي شيء، ولا حتى ملابسها! أدركت وقتها أنها عثرت على كتيب "ريبكا" هناك عند النهر. أين وضعته قبل أن يدخلوا؟ نعم. إنه هنا. أعطته للعجوز بسرعة.

همهم قائلًا:

- أنا لا أفهم هذا.

ثم أخذ يقلّب صفحات الكتيب باهتمام. ثم وضع الكتاب أمام عيني "إيما" فلم ترَ فيه شيئًا، وقال:

- انظري! إنها صفحة وراء أخرى. كل صفحة تتلو الأخرى. لكن الكتاب الحقيقي هو الذي تتراكم صفحاته فوق بعضها، صفحة فوق صفحة، ورقة أسفل ورقة أخرى، تمامًا مثل قشور البصل.

لم تفهم هذا الهذيان الذي يتفوه به الرجل. جحظت في القفاز. رفع العجوز يده أخيرًا، وألقى الكتاب وسط ألسنة النيران، ثم خلع قفازه الذي يهتزّ أمام عينيه. تكسّر وجه "إيما" وكأنه كان مجرد رماد يجاهد بكل ما أوتي من قوة أن يكون وجهها. وتحول إلى ما هو ليس بورقة ولا بسعادة.

انصرفت "إيما" الأولى عبر الدهليز النتن، وخرجت إلى الهواء الطلق. أرادت أن تعود من حيث جاءت، تعود إلى الحمّام والنساء التي تسيل المياه على أجسادهن. إلى النساء الذين لم يلقوا بأنفسهم إلى ألسنة النيران. واصلت السير

Twitter: @ketab_n

على غير هدى، فهي لم تعرف كيف ستصل إليهنّ. ومن المؤكد أنها ستجد "ريبكا" في المكان الذي وجدت فيه الكتاب.

راحت تتأرجح وسط الظلام هنا وهناك. ربما كانت في منطقة "بودولي". لكن ما الفائدة من هذا. بما تفيدها قطعة سوداء من أرض مجهولة على أطراف مدينة، أو ساحل، أو بلد، أو حتى كوكب أسود لفظتها فيه غرفة الاستحمام في الطابق العلوي بالمستشفى.

أدركت فجأة بأنه لا يليق أن تتسكع هنا طوال الوقت وهي عارية، متقوقعة على نفسها من الصقيع. تصدّعت السماء مثل بيضة، وانبثق منها ضوء. وظهرت أمامها في ذلك الضوء امرأة، فتلت جسدها مثلها تمامًا. خافت أن تكون واحدة من هؤلاء النسوة المتواجدات في الداخل. لكن المرأة كانت تحمل على ظهرها سَلّة حقيقية. فهمت "إيما" على الفور أن من يحمل سلّة فوق ظهره لا يمكن أن يكون في وضع أسوأ من وضع السيدات هنا.

أدركت "إيما" أن هذه السلة ظهرت هنا من أجلها، من أجل أن تملأها بأحداث سرمدية، وبشباك طرق تعلم منتهاها، تملؤها بها حتى لو فاضت بها السلة مئات المرات.

قالت:

- يا رجل، ألم ترَ "ريبكا"؟

- ماذا؟ تريدين أن أشتري علكة؟

- كلا، أنتِ لا تفهمينني، أسألكِ إن كنت رأيتِ ابنتي تمشي من هنا؟

- ماذا؟ أتريدين أن تأخذي جبنتي؟

- كلا، أقول ابنتي!

Twitter: @ketab_n

- امرأة، عقل بشري متصدّع.

التفتت المرأة نحوها، وسلّتها تصدر حفيفًا وكأنها جناحا خنفساء.

هل تحبين الحساء؟ حساء الدجاج؟ إنه لذيذ، يقوّيكِ، ويكسوكِ أيضًا. كانت بالقرب من هنا جنة الدجاج، وكانوا يقدمونه طازجًا تمامًا.

أدارت الوعاء الساخن نحوها. كان طعمه يشبه لحم الخنزير المختلط بالكحول. طارت "إيما" عائدة إلى الحمّام ورأسها تحترق من ذلك الطعام.

أغلقت صنبور المياه، ثم جففت جسدها، وارتدت قميصها. أخذت تفكر إن كانت شعرت من قبل بمثل هذا البرد القارس. سمعت أسنانها وهي تضطرب بصوت عالٍ. فتحت "فيندولكا" باب الحمّام، وحاولت أن تصرخ بصوت يعلو صراخها وتيار الماء المتدفق، فقالت:

- يا بنات! انتهى الوقت!

أخذت أصوات مياه الحمام تصمت واحدة تلو الأخرى. استدارت الممرضة "فيندولكا" قبل أن تختفي في الدهليز، ثم جعّدت أنفها، وقالت:

- ويحَكم! من منكم دخّنَتْ هنا اليوم؟ سأسجل هذا في التقرير، وسأقدمه غدًا في موعد الزيارة الكبيرة.

عبرت الدهليز سريعًا، ثم دسست جسمي تحت الغطاء. أختفي على الأقل للحظات، للحظات قليلة أتمناها. لم يكن يعنيني أن أجد بُعبعًا قابعًا في طرفيْ فراشي، ويخبط على طبلة بها طفل رضيع سجين.

***

Twitter: @ketab_n

كان الزمن أصمَّ، يمشي مجهَدًا كتلك المرأة التي تحمل السّلة. وقفت طويلًا عند النافذة التي تئنّ تحت خبطات الرياح، أتطلّع إلى الحديقة. كانت أعمدة المطر تتساقط في كل مكان، تنزل وهي تتأرجح من شجرة إلى أخرى، وامرأة ما تفتح مظلة المطر، وتهرول وهي تمسك في يدها طفلة صغيرة تنظر بدهشة إلى أناس عراة يمرون بهما وهم يمتطون الخنازير. ثم تتطلع إلى السماء، التي تتساقط منها الطيور في جماعات. لم تلتفت أمها إلى شيء من هذا، وسرعان ما اختفت كل منهما عن الأنظار.

خُيّل إليّ أني أرى رداء مطر أخضر خلف إحدى الأشجار.

- من فضلك؟

دفعتني السيدة "إيرينا" جانبًا كي تتمكن من تعليق دمية أخرى فوق مقبض النافذة. صار عددهم اثني عشر. أخذت تزين بها وعلى شفتيها ابتسامة احتفالية حوض السمك الذي نعيش فيه، وكأنه لم يكن شهر مارس، بل ليلة عيد الميلاد.

"ديتا" لديها نفس رداء المطر. حاولت أن أدقق النظر، لكن كل الملامح انطمست خلف ستار الماء. وتحولت الحديقة إلى مجموعة من البقع والأشكال. تأكدت أن كل هذا هراء، لكن قلبي كان ينبض بهياج كبير. هل تعمل "ديتا" في المدرسة قبل الظهيرة، ثم تقف خلف الشجرة وقت هطول الأمطار! ..

- يصبح الجو أكثر بهجة هنا، سيداتي الأعزاء؟ -

إنها بالأحرى تشبهني. إنها أنا وليست هي. إني أراها، أرى عينيها الضيقتين الساخرتين، أرى وجهها الذي يشبه حبة اليوسفي، أرى فوقه التجاعيد التي أحبها والتي تبدو من قريب وكأنها أقواس في أحد النصوص. طوّق اثنان منهم حالة الفوضى إلى الأبد، ليست فقط الفوضى التي تسكنني،

Twitter: @ketab_n

بل أيضًا كل الفوضى التي تلفّ العالم. كلا. "ديتا" لا يمكن أن تقف بلا داعٍ تحت وابل المطر بجوار مطعم الوجبات الخفيفة. خاصة وهي تعرف أني خدعتها، وتوقفت عن اللعب دون أية مقدمات.

كانت الدمى التي تراصّت فوق مقابض النافذة تتراقص وسط تيار الهواء. لا أتخيل أننا نتعانق. بضعة أيام كانت كفيلة بألا أستطيع أن أدقق نظري في ملامح العالم التائهة خارج الغرفة. ألمسكِ، فتتبددين، وتختفين في لعبة بشعة لا يمكن تكرارها. ثم تأتين إلى هنا في أول زيارة لكِ. لو أنكِ فعلتِ، ولو سمح لكِ الألم، وجبال الكذب التي وقفت حائلًا بيننا، فلا تنسي أن تنثري خلفكِ حفنة من حبات الفاصوليا كي تعثري على طريق العودة. تعالِ وأنتِ تضعين قناع قرصان إسكندنافي. اظهري هنا عند عتبة الباب وأنتِ تتحصنين بدرع واقٍ مثل المحاربين. تعالَيْ على هيئة صخرة، ارسى بعد أن أصبحتِ بحرًا هائجًا ممتلئًا بكتل ثلوج تتصدع، ارسى هنا على السطح وأنتِ ترتدين حُلّة الغطاسين، أو رداء المطر الأخضر. آمين!

كنت أتخبط ساعات وساعات وأنا ألبس رداء المطر هذا، وسط الجبال، وحذائي مفعم بالماء. تجولنا هناك لمدة يوم كامل والمطر يهطل بغزارة. لم يكن معقولًا أن نبسط الخريطة؛ أظلم الجو وأنتِ تفسحين لي طريقًا وسط الأدغال. ساورني القلق: كنتِ دائمًا الملّاح الذي حمل حقيبة ظهري على كتفيه، ورفع المسؤولية عن كاهلي مثل غيرك من أقاربي الذين فعلوا نفس الشيء قبلكِ. فدائمًا ما ظهر أحدهم، وحمل عني ما كنت أحمله.

أشعلتي المصباح. وانتصب مخبأ إسمنتي من تحت الأرض، على بعد خطوات منّا. لم أكد أراه. دخلنا إلى مخبأ مُضاء بمصباح كيروسين مُعَلّق فوق سقف منخفض تناثرت فوقه أسلحة، وخراطيش طلقات. بنادق على الحوائط، وخريطة للبلاد من عام 1938، وعلى الطاولة جهاز للاسلكي عتيق. وكأننا لم

Twitter: @ketab_n

نته في المكان فقط، بل في الزمان أيضًا. وفي فجوة صغيرة وجدت بوتاجاز يعمل بالغاز، وأكوام من الأطعمة المُعلّبة.

قضى ذلك الرجل كل أشهر الصيف هناك. كان أصدقاؤه يأتون لزيارته أحيانًا، وأحيانًا كان يشرح لأطفال المعسكر، كيف يفكّ بندقيته الآلية وينظفها، وأين يوجد خط الدفاع. كان يمارس لعبة الحرب التي لم تندلع يومًا.

أسعده أن معكِ رخصة لحمل سلاح. نزلت أنا إلى المخبأ وأنتما تتحدثان عن الأعيرة، وعن مدى الطلقات، وأنواعها. نزلت حيث وجدت ستة أَسِرّة خشبية لفريق، صفين من ثلاث ألواح من الخشب فوق بعضها. صعدت إلى ذلك اللوح الأخير، ودسست جسمي في كيس النوم. كان السقف قريبًا مني. كان يكفيني أن أرفع رأسي قليلًا فألمس جدار السقف بجبيني. ورسمت قلبًا به أول حرف من اسمينا بعود ثقاب متفحِّم.

وجئتِ عندي في النهاية، وقلتِ: "سنتظاهر بأن أطفال المعسكر هم من كتب هذا". وصاح الجندي الجالس فوق الخندق، وقال: "تصبحون على خير! أتمنى لكما نومًا هادئًا! عليّ الآن أن أحاول معاودة التواصل".

لم تكن هناك سوى شفتاكِ، ولمساتكِ، وأسنانكِ المضطربة التي اختفت زفراتكِ وسطها. لذّة تحت بقعة سوداء على شكل قلب، والحرب تجأر فوق الخندق.

في الصباح وقف الجنديّ أمام الخندق طويلًا حتى اختفينا بين الأشجار. لوّح لنا بيديه. وعندما استدرت رأيته وكأن درع إسمنتي نما خلف ظهره واكتسى بالطحالب.

Twitter: @ketab_n

ماذا لو أنكَ أيها القنّاص مختبئ هناك خلف شجرة الكستناء، كل حواسكَ منتصبة، أنت يا من يحرسني ويحميني؟ ماذا لو كنت بالفعل من يقف هناك، ذلك التهدّج الأخضر السائل القابع في الحديقة أسفل النافذة؟

***

حدث شيء ما. لم يكن هناك شيء يتحرك سوى تلك الدُّمى العالقة فوق النافذة. وكأن أحدهم منع الهواء عن حوض السمك، وراح يراقب رد فعل الكائنات الموجودة فيه. حبست الملكة البيضاء أنفاسها، وصدر أزيز متقطّع قادم من فراش "دانا". لكن صوت "جيزيلا" ما زال يتردد في الغرفة وهي تثرثر مع نفسها. يخشخش من وقت لآخر مثل الرقائق المعدنية.

لم أستمع إلى ما كانت تقوله. تطايرت إلى أذني بعض الكلمات... نسر ذو رأس بيضاء... قسم المجانين... الزرافة لا تنام سوى نصف ساعة في اليوم. وكأنها تتصفح كتاب أطلس الحيوانات.

كان "بوبل" في الطابق العلوي يفُضّ بالمنشار صندوقًا سميكًا. يستخرج كمية من الصمغ من أحد الأنابيب بأصابع غير ماهرة، ويلصق أجزاء لا تنتمي لبعضها. استمر يفعل ذلك لمدة طويلة إلى أن صنع صندوقًا لا شكل له. أزعجني ذلك كثيرًا. فمنذ لحظات كنت أثني على أنه لم يعد يمارس هوايته الغريبة. وحتى بدونها فقد كان شقيقي إنسانًا غريبًا للغاية – لم يكن الجميع على استعداد بأن يقدم لي العون في البحث عن "ريبكا" بعدما فقدتها نتيجة خطأ ارتكبْته. أيضًا لم يكونوا على استعداد أن يسكنوا معي فوق السقف.

رغم إصرار "مارتسيلا" على تهويتها ظلت الغرفة رقم واحد تفوح برائحة الصمغ العفنة التي كان "بوبل" يستخدمها. رغم ذلك بدأت تتحدث، وتسهب في الحديث. كانت بمثابة أسطوانة لا يمكن إيقافها. حيوان شاذّ يقفز من فمها الأدرد، وثدييها اللذين يهتزان أحيانًا مثل ذيل سِحلية. ظهر في القفص هرج ومرج لم أدرِ سببه. الممرضات، والطبيبة "فاسالا"، ونائبة الطبيب الاستشاري للقسم، وحتى الاستشاري نفسه. كلهم كانوا يتابعون حركات كائن ما من خلف الزجاج، ويتبادلون انطباعاتهم أحيانًا، أو ينظرون إلى شاشة الكمبيوتر. كانت "جيزيلا" هي ذلك الكائن.

يا أخي، أتتذكر ذلك الحلم؟ ها هو عاد من جديد. لم أكن أنتظر عودته. ولم أكن مستعدة لها. ظل لسنوات طويلة يتجنبني. لم يزُرني فيها يومًا، كان يخاف من الـ "بنزوديازيبين"* مثل شيطان يخاف من صورة الصليب. بنز-ديا، بنز-ديا. قولي هذا ثلاث مرات متتالية وبسرعة! لكن "جيزيلا" كانت فقط تبتسم. لاحظت أنها لم تضحك منذ بضعة أيام إلا الآن.

- صديقي، أقصد صديقي السابق، كان يعمل مُسعفًا في حديقة الحيوان في قسم الزواحف.

تدفقت منها الكلمات دون توقف، وبنغمة واحدة. بدأت تتساقط على الأرض من ماكينة الحياكة أجزاء من جمل تتخللها فتحات الإبر.

- يومًا ما قضينا هناك ليلة في دهليز مظلم ومعتم بدون أية أصدقاء. كان الضوء الوحيد يأتي من أقفاص الحيوانات. أخذنا نتعاطى مخدرات سيئة الجودة. كانت تلك الوحوش كانت ترمقنا فعلًا. تنظر إلينا وتتفحصنا. رحنا

* دواء مهدئ ومضاد للاكتئاب -المترجم.

Twitter: @ketab_n

نحن أيضًا نبادلهم النظرات. ألصقت أنفي طوال الليل فوق الزجاج أنظر في أعين أحد الثعابين، وهو ينظر إلى أيضًا...

عاد بعد أن تبخّرت بعض السموم من جسدي. السموم التي يتنافس معها عليّ. أنا في الغرفة، ويجب أن أخرج منها، وأطير ناحية السقف. سأتمكن من شَقّه بكل سهولة لأن الحوائط والسقف قد صنعت من ورق مقوّى. وسأذهب إلى غرفة أخرى. ثم أدخل من فتحة أخرى إلى غرفة غيرها، وهكذا. ثم أبدأ من جديد. غرفة وراء الأخرى، وفي كل مرة أجد سقفًا بدون سماء. لكن ماذا لو أن ذلك الحلم لن يراودني، بل أنا التي أراوده؟ ربما أن حياة "إيما" تشيرنا التي تقضيها مستيقظة ليست سوى تتابع لوقفات، وقفات بسيطة أثناء الطيران الذي لم يبدأ، ولن ينتهي يومًا ما.

صرت اليوم لا أعرف ما الذي كان في البداية: هل صناديق شقيقي هي التي استدعت ذلك الحلم، أم العكس. هل أنني حكيت له يومًا عن ذلك الحلم، فقام هو بتحويله إلى تلك الأشكال الملوثة التي يصنعها.

لم تتوقف ماكينة الحياكة عن الدوران. "... ساعات طويلة. وفي الصباح رأيت فجأة غصنًا سميكًا أين أنا بالله عليكم ومِنْ تحتي رمال ناعمة دافئة، لو فتحتي هذه النافذة أيتها العاهرة سأكسر رجليكِ، وجدت نفسي في ذلك القفص بدون يدين ولا قدمين، ومن فوقي جلود الثعابين، خفت بالفعل، ووجدت في مقدمة أسناني في المكان الذي خلى من الأسنان سِنَّتين جميلتين سامّتين".

كشفت "جيزيلا" عن فكيها لترينا أسنانها. وأخذ الطبيب الاستشاري يرمقها من غرفة الممرضات، ثم طوّق الطبيبة "فاسالا" بذراعيه برفق، وهمس لها بشيء وهو يدسّ أنفه في شعرها الأشقر الجميل، ذي الرائحة الذكية بكل تأكيد.

Twitter: @ketab_n

اختلقت "جيزيلا" على الأرجح تلك الحكاية. أخذت جزئًا من الواقع ونسجت منه تلك الحكاية، تلك الأسطورة التي تُشبع خيالها. لكن ما لم أفهمه هو لماذا قصّت علينا تلك الحكاية بسرعة، وكأنها اضطرت إلى أن تدلي باعترافاتها سريعًا قبل النوم تحت تهديد السلاح. كانت كل واحدة فينا محترفه في الكذب، وروائية مُتمكّنة، وحريصة إلى أقصى درجات الحرص، توزّع كروت مواقف لم تحدث، وبطاقات شخصيات لا وجود لها.

"في الصباح جاء أحد العاملين وطردنا وأوقفوا صديقي عن العمل لمدة ساعة أموت من البرد التدفئة اليوم ضعيفة، ثم عمل سائقًا على عربات الموتى، أيام جميلة، كانت أموالًا كثيرة، وبيت يؤوينا، ثم جاء العلاج بالبرد والصقيع وحقن الثلج، كانت الحُلّة السوداء تبدو جميلة على صديقي جدًّا، والقميص الأبيض أيضًا، لا يمكن لأحد أن يقول إنه متعاطٍ للمخدرات باستثناء ذلك الوشم الذي وضعه في كل مكان على جسده وأراني إياه ذات مرة، النعوش نوعان إما أنها من مادة صلبة وشفافة وقاعها من الزنك أو أنها معدنية بها حشية غير نفاذة، طقوس حرق الجثة لا تستغرق أكثر من ساعة ونصف، كان لديهم تمثال مُلوّن وجميل اسمه تمثال الحريّة. وفجأة...".

كفى. سددت أذني. لم أرغب في سماعها وهي تحكي كيف أنها نزلت مع صديقها إلى فرن إحراق الجثث، وتحولت في الصباح إلى جثة هامدة. كفاني ما سمعته.

لم تكن هناك أية حركة في الغرفة رقم 1. تبعثرت الأشياء في كل مكان جراء حديث "جيزيلا". وقفت النعوش بين الأسِرّة مستندة على الحائط، خرجت الهوام من الأحواض المتكسرة اللامعة، وتدلّى الصمغ الكريه من أعلى. تملكتني فكرة الهروب بصورة قوية. أهرب قبل أن أُجنّ بالفعل مما أراه هنا. لكن الهروب هذه المرة سيكون أكثر إتقانًا مما حدث من قبل، عندما انطلقت

Twitter: @ketab_n

من عربة الإسعاف وأنا أرتدي خفًا! سيطرت عليّ رغبة حيوانية في الجري بلا هدف في مكان ما، بعيدًا عن الناس. التصقت تلك الرغبة بجسدي وكأنها سِنام أحمله على ظهري منذ تلك اللحظة.

وفجأة توقفت "جيزيلا" دون أن تكمل الجملة كي تلتقط أنفاسها، تتنفس هواءً خاليًا من رائحة المُطهّر وطعام المستشفى، هواء بدون لغو لا يتوقف. غيّرت لهجة حديثها تمامًا، وكأنها عادت الآن إلى نفسها، وكأنها التقت بنفسها بعد تجوال طويل – بدا كلامها كأنه صلوات ينبعث منها صقيع – أخذت تدعو، وتقول:

- يا إلهي! يا إلهي! أدعوكَ أن....

ثم تلت كل دعوات المساء التي ترددها الأسماك: البحر، والهدوء، وحوض الاستحمام ذو الرغوة، وطبق البيتزا بحجم إطار السيارة، وأحضانك.

- ...وأن تتمكني من تدخين الهيروين مرة أخرى.

توجهت بسرعة نحو النافذة لألتقط أنفاسي. كدت أختنق من حكايات "جيزيلا"، من جبل القاذورات الذي بنَتْه اليوم هنا. يمكنكِ أن تكسري رجلي لأني أتنفس الهواء الطلق. لا تخافي، سأستمع إليكِ لاحقًا. كل هذا بسبب قلة الأكسجين في المياه التي تشربينها. ستفعلينها فور أن تنصرفي من هنا.

وقفت وسط النافذة المفتوحة على مصراعيها أتلقف من جديد ذلك الهواء الرطب، هواء شهر مارس. جاءت "مارتسيلا" ناحيتي بعدما رأت أن "جيزيلا" غير منتبهة إلى ما يدور حولها. كذلك زحفت "دانا" من تحت البطانية، وهي تئنّ بصوت عالٍ، ثم انضمت إلينا الملكة البيضاء أيضًا. وقتها كان كل شيء -الحديقة أسفل النافذة طبيعيًا للغاية -سائق درَّاجة يمرق بها وهو يرتدي ذلك السروال الضيق اللعين، وعجوزان يمشيان، وكل منهما متكئًا

Twitter: @ketab_n

على عصاه. توقفا، وأخذا يتطلعان نحونا. رفع أحدهما عصاه. لم يكن واضحًا إن كان يلوِّح لنا أم يتوعدنا. وقفنا هناك محشورين وسط النافذة المفتوحة، صامتين، ننتفض من البرد ونحن نرتدي أقمصة قصيرة بالكاد تغطي مؤخراتنا. أخذنا نلوِّح ونهدد نحن أيضًا رغم أن الشارع قد خلا من المارَّة.

لم تتحرك "جيزيلا" من مكانها، وأخذت تراقب السقف. بالتأكيد لم ترَ فيه ما أراه أنا، لم ترَ شقيقي الذي ظهر من جديد بعد أن التبست عليه وجهته، يداه ووجه ملوث ببقايا الصمغ. في الغالب كانت تحملق في نبع الماء الذي انقلب على وجهه، والثعابين تتساقط على سريرها من قاعه – إن كان له قاع. تخيلت أن أصوات فحيح تنبعث من فمها هادئة. وبشرة ذراعيها صارت خشنة، وأخذ لونها يتبدّل. لم تعد هي ذلك الشخص الذي يستلقي الآن فوق السرير ساكنًا. بل كائنًا جديدًا رسم صورة امرأة كنت أعرفها منذ عدة أيام، صورة امرأة خامدة لا تهتم بشيء، أراد ذلك الكائن الجديد أن يقول إنها لا تشبه تلك الأولى.

وقبل أن أنغمس في الحزن عليها تشنّجت "جيزيلا" فجأة، وسرى التشنج في كل جسمها الذي لم تعد تتحكم فيه. انتصبت فوق السرير وكأنها أفعى الكوبرا، وأخذت تخبط رأسها في الحائط بكل قوة. مرة بعد مرة. وتدفّق من حلقها تيار من الصراخ الجارف، واللعنات والكلمات الفاحشة التي لم أفهمها على الإطلاق. أمسكت بها من الخلف بأحد الأشرطة كما علمّني رجل الإسعاف، لكنها انزلقت من الشريط، واتجهت نحو الحائط من جديد. انطلقت الملكة البيضاء إلى الدهليز، وأخذت "مارتسيلا" تصرخ، وتشير إلى حجرة الممرضات. وبعد لحظات، بدت وكأنها دهر من الزمن، جاءت الممرضة مهرولة. أمسكنا جميعًا "جيزيلا" قدر استطاعتنا وهي تقاومنا، ثم طعنتها الممرضة بالحقنة.

Twitter: @ketab_n

كان جبينها مخضبًّا بالدماء. توقفت عن الحركة، ولم تبق سوى أسنانها تقعقع بصورة خفيفة. أغلقْت باب النافذة فورًا، وألقت كل منا بغطائها فوقها.

قالت الأم تريزا وهي تقف عند الباب:

- ألا تعرفون أيتها المرضات بما حدث؟ إنها أرادت أن تشنق نفسها في مقبض باب المرحاض أثناء الليل.

يا ربي! "جيزيلا"! باب المرحاض الذي لا يمكن وصده. لقد سرَقْتِ قطعة شاش من غرفة المرضات، وانتظرتِ حتى تهدأ الأجواء، ثم شرعتِ في الأمر. كيف للأجواء أن تهدأ هنا! أنتِ بالأحرى فعلتي مثلما فعلت أنا، اختلط عليكِ الأمر، ولم تعرفي الفرق بين الشاش والحبل. أنتِ في الواقع أردت أن تفجرين الحديقة. ولأنكِ في عجلة من أمرك فقد بسطتِ قطعة الشاش بتهوّر، ثم لففتها حول المقبض وحول جسمكِ، لكن أصابعكِ لم تطاوعكِ، وفشلَت خطتكِ. فقد كانت قطعة الشاش مرنة، فبقيتِ هناك طويلًا، تتمرغين فوق بلاط الغرفة إلى أن أمسكت الأم تريزا بالمقبض، وأخرجتكِ من الشَّرَك الذي وضعتِ نفسكِ فيه. لن تخرجي من الشرنقة التي حبسوكِ فيها، لن تتحرر الدمية الكبيرة البيضاء، المحبوكة بصورة تثير السخرية.

أخرجت السيدة "إيرينا" إبرة الحياكة وكرة الخيط من درج طاولة صغيرة، وبدأت الحياكة. انغمست في السكون وكأن أصوات النساء تصلها من مكان بعيد.

تظاهرت المرضة بأن الأمور على ما يرام، وهي محقّة في ذلك، فقالت:

- يا سيدة تشيرنا، اجمعي أغراضكِ، سوف تذهبين إلى القسم السفليّ.

الآن؟

Twitter: @ketab_n

- هيا أسرعي! فهناك حالة استقبال في الرواق تنتظرني!

ألقَيْت ما في درج الطاولة في الحقيبة، وخاصة خطابات "ريبكا" و"ديتا"، والبطاقات البريدية التي أرسلتها لي أمي، وعليها صور حيوانات. ربما اعتقدت أني ما زالت في معسكر مع المدرسة.

قالت "مارتسيلا" لتنهي الموقف:

- أتمنى يا سيدة "تشيرنا" أن تعجبكِ الإقامة هناك. في الواقع إن القسم السفليّ مختلف عن هنا. فيه تلفزيون، وفيديو، وأناس يلعبون ألعابًا مسلية، وبعد بضعة أيام سيكون في إمكانكِ ارتداء ملابسكِ العادية. وكل هذا يساعد الإنسان على التحسّن!

أريد أن أودّع "جيزيلا". كانت تحدق ببصرها إلى أعلى بنظرة ثعبان، ولا تَطْرُف بعينيها. وقفت بجوارها، وقلت لها بارتباك: "مرحبًا". لم تلتفت إليّ. هل تسمعني بالأساس؟ مِلت على السيدة "إيرينا"، وسحبت إبرة الحياكة من يدها. وأخذت أضرب بها فوق إطار معدني بجوار سرير "جيزيلا" وأنا أنشد أغنية كنا نرددها معًا:

"فرس كسيح يحملني، وليس سواه ليعطوني

يتهادى فوق الجرف، وقلبي الشجاع يقويني"

لا شيء. لم تتجاوب معي على الإطلاق. لقد تاهت إلى الأبد في فقص لا تصل إليه الأصوات.

بقيت الكراسة بخطوطها المربعة. انفتحت وأنا أضعها في الحقيبة، فوقعت عيناي على إحدى صفحاتها: "هنا ينتهي حديثي عن بوبل"، وبعدها يظهر خط ليس خطّي.

Twitter: @ketab_n

***

ثم انصرفت بعدها في عام 1990، في العام الذي عادوا فيه جميعًا. لم أحمل معي سوى بعض الأشياء البسيطة التي اتسعت لها حقيبة أحملها على كتفي. رسومات لـ "ريبكا" بها لحيوانات رأسية الأرجل، وشهادة تدريب. أنا مضطر إلى أن أعلن بكل تواضع، لو أن هناك شيئًا أجيده في هذا العالم فلن يكون سوى الطعام. ورغم أني رسبت وأنا في الفرقة الثالثة في طهي وجبة "كباب حلة" لكن هذا حدث في الوقت الذي كانت أصابعي حبيسة مادة لزجة تعود إلى السرّ الذي كنت أحتفظ به.

أعطتني أمي وأنا في طريقي لاكتشاف العالم بعض الجواهر التي ورثَتها عن جدتي كي يكون لديّ شيء أبدأ به مشوار حياتي. ما زالت أحتفظ بها إلى الآن. ليس لأني استطعت أن أعتني بنفسي دون الحاجة إليها، لكن ببساطة لأني لم أكن في حاجة إلى أي شيء. لم أهتم بماذا سآكل أو أين أنام. فلم أشعر بالبرد.

استطاع أبي أن يجد لنفسه وظيفة في إحدى الجرائد، وكان ذلك العمل وقتها مصدر فخر كبير. ربما أنه لم ينتبه إلى أني لم أعد أسكن معه في البيت.

لم أفهم يومًا سببًا لأن يسير المرء في رِكاب والديه. لماذا يستحضر مشهدًا لأبيه تجاوزته الأيام، أو يتخيّل موته بكل إعجاب. لقد تراكم لديّ في وحدتي هذه ماضي الكثير من البشر، وكبّدني ذلك عناءً كبيرًا حتى أني صرت لا أرى سببًا لأن أهتمّ بماضيّ الشخصيّ. وبعدها، صرت على قناعة دفينة بأني لم أُولَد مثل الباقين، لكني جئت إلى هذا العالم بطريقة مختلفة، عن طريق الاستنساخ، أو بواسطة انشطار الخلايا، أو أنني نشأت من حرف نطقه رجل وهو على شفا الموت – لا أدري لماذا كنت على ثقة بأن ذلك الحرف هو الخاء.

Twitter: @ketab_n

وفي القطار أخذت أقرأ خبرًا أهمّني بشكل كبير مرات ومرات: "امرأة في مدينة صغيرة اسمها (هلينور) تقع في إحدى الجزر، ما زالت تتذكر كل الأحداث التي مرت بها في حياتها خلال الخمسة عشر عامًا الأخيرة. وقادرة على أن تروي بالتفصيل عن كل ما حدث فيها، مع مَن تقابلت، وماذا تناولت على الغذاء في أي يوم بالتحديد منذ عام 1975.

تجولت في أوروبا على مدى أعوام، وكسبت قوت يومي من أعمال مختلفة: غسلت الأطباق في البارات، واشتغلت عامل نظافة في محطة القطارات الدولية، وعامل نظافة يجمع المخلفات فوق شواطئ السباحة. عند أحد تلك الشواطئ أدركت أن شيئًا قد تغيّر. "الرغبة" ربما تكون كلمة قوية، لكني لأول مرة في حياتي أرغب في شيء، في شيء لم أجده عند الآخرين، ولم أتعلمه بمحاكاتي لهم. أرغب في أن أجد البحر في متناول يدي، أمامي أو خلفي.

في النهاية ألقيت مراسيّ في قرية عند إحدى الشواطئ الفرنسية. في مطعم اسمه "ڤيردي"، لا أعلم سببًا لتسميته بهذا الاسم، توقفت عن تنظيف البلاط، وبدأت أطهو للزبائن. من حسن الحظّ أن الكباب حلة لم يطلبه أحد في ذلك المطعم حتى الآن، ربما كان من الأطعمة النادرة. أحب أن أقف خلف حجاب بحيث أتمكن من مراقبة الزبائن دون أن يروني، كما أقف الآن. أراقبهم يأكلون لقيمات الطعام الذي طهوته: "تيرين دي سان ياكوب" أو "ماجريت دي كانارد"، وفي كل مرة أتخيل نوعًا من التحول، حيث يتخذ الطعام شكل مَنْ صنعه، ويتحول إلى جسد "بيتر بوبل". باستثناء زوجتي – فأنا أعتبر زواجي بمثابة خطأ غير مُبرّر – فأنا أعتبر أن تلك هي الطريقة الوحيدة للتواصل مع الآخرين. بهذه الطريقة وحدها، وسط لعابهم، وعصارتهم المعوية وأمعائهم. أنا أعتبرها طريقة للتواصل مع الكائنات البشرية الأخرى.

Twitter: @ketab_n

طلبت سيدتان تجلسان عند طاولة في أحد الأركان لحم ضأن على الطريقة البورجوندية. شرعت في العمل. إن أساس فن الطبخ، وهي حقيقة شائعة، يكمن في سكاكين مختلفة الأنواع ومشحوذة جيدًا، تصلح لمختلف الأغراض. غرزت نصل السكين في اللحم، وأخذت أردد تعويذة ما بصوت منخفض. كنت أسمح لنفسي بذلك، فلغتي الأم لا يفهمها أحد هنا. وما إن دسست الحديد في اللحم، بحرص بنعومة وبدون أدنى مقاومة حتى وجدت أفكاري وآرائي المجردة والقابلة للتغيير طريقها وسط الجسد الميت الضخم الذي كنت أنا جزءًا منه. فقد كنت أستمع إليها، أسرقها لا أعرف ممن، وأجمعها لا أعرف من أي شاطئ.

كنت أيضًا أتخيل أن هاتين السيدتين اللتين كنت أعد لهما لحم الضأن هما أمي وشقيقتي. كان ذلك احتمالًا واردًا. ربما كانتا بالفعل "إيما" ومعها "ريبكا". ولمَ لا؟ ألا يمكنهما أن يأتيا يومًا إلى مطعم "ڤردي"؟ كتبت أكثر من مرة أني أتمنى أن أراهما، رغم أن ذلك لم يحدث. لكن الإنسان يكتب عن أمور كهذه.

لحم الضأن، "دي لا أجنيو"، "أجنيو"، الضأن، الفداء الإلهي. أخذت بصلة، أكبر بصلة وجدتها. لم يكن البصل يُقطّع مع لحم الضأن على الطريقة البورجوندية. بل كنت أضعه قشورًا منفصلة عن بعضها. وضعت قشور البصل الشفافة واحدة وراء الأخرى في طبق، وهنا – حيث تنتهي البصلة ولا شيء بعدها – ظهرت "إيما".

ذهبنا وقتها في رحلة، "إيما"، و"ريبكا"، وأنا. كان عمر "ريبكا" وقتها حوالي سنتان. حملناها وقتها في حقيبة توضع على الظهر. وتجولنا في إحدى القرى حتى وصلنا إلى منطقة المقابر، كانت قديمة ومُهمَلة. تجولنا بين شهود المقابر، وأخذت "إيما" تقرأ أسماء الموتى، وتتحدث عن الموت. قالت بغضب:

- لماذا لم يعلمونا كيف نموت، هل هذا معقول؟ كيف لا نقرأ دليل الموت ونحن على سفر؟ يا أيها الميت، رجلًا كان أو امرأة! إن كل ما تراه، مهما كان مفزعًا، فاعلم أنه صورة من عملك، اعلم أنه شعاع عقلك وبريقه...

لم أنصت إلى ما قالته جيّدًا لأن "ريبكا" كانت تتبرم فوق ظهري، وتلغو، كما أن هذه القضية لا تعنيني من قريب ولا من بعيد؛ نظرًا لأني لم أُولَد، فمن المنطقيّ أني لن أموت. أجبرتني حالة الارتباك على أن أخبرها ببعض الوصفات التي قمت بتجربتها في الآونة الأخيرة. لكننا تبادلنا وتيرة الحديث؛ أخذت أنا أتحدث عن الباذنجان المحشو بلحم الضأن المفروم، أو المشوي مع نبيذ أبيض، بينما واصلت "إيما" حديثها عن الموت، وكأنها تحصي مكونات الوجبات.

ثم قرأت اسمًا يثير السخرية، ما زلت أتذكره حتى اليوم: هنا ترقد "فاشا شالا*". كانت صورة "فاشا" فوق شاهد القبر في إطار بيضاويّ الشكل. وجه صبيّ في العاشرة من عمره، بأذنين منتصبتين يضيئهما شعاع نور قادم من مكان آخر، وزمان آخر.

كانت الشمس تغيب خلف حائط منطقة المقابر، قرص ذهبيّ ضخم، خرجت منه فجأة حزمة من سنابل ذهبية. التقى ضوء اللحظة التي ابتسمت فيها "فاشا شالا" في وجه الكاميرا مع ضوء المكان الحالي، وانعكس على أذنيه المنتصبتين. إبرتان نسجتا في تلك اللحظة الوهج الوحيد، الضوء الطبيعيّ الأوحد الذي لم يكن لي، ولا للشمس، ولا لذلك الطفل الميت.

عضّ الضوء عينيّ، فتوجهت نحو البوابة. "انتظر، يجب أن ألتقط صورة لهذا المشهد، ألا تراه؟". مرت "إيما" بالمقابر وهي تشير إلى صور الموتى. كانت وجوه بعضها واضحة تمامًا، ووجوه أخرى تركت عليها الزمن بصماته،

---

* عند ترجمة معنى الاسم بالعربية تكون الجملة كالتالي: هنا ترقد "ملابسكم" – المترجم.

Twitter: @ketab_n

وشبكة من الخطوط، فلم نتعرف منها إلا على بعض الملامح وكأننا في أحد المراسم الفنية، خطوط الذقن، وعين، وملامح لتسريحة شعر.

ثم كانت آخر الصور وأقدمها: خطوط انقسمت في الإطار البيضاويّ، وتشابكت، وتفرّعت.

لا أدري ما الذي حدث لها. أخذت تهرول من قبر إلى آخر، وتصور في ذلك الضوء المزدوج، وأحيانًا تصرخ، وتقول:

- تعال هنا، يجب أن ترى ما أراه.

أو تقول:

- عمل فنّي خالص!

وأنا ألهث وراءها، و"ريبكا" تقفز فوق ظهري، وهي تبتسم بسعادة وهي تعتقد أنها لعبة ما نلعبها.

قول واحد أقوله، لقد كانت تتصرف بطريقة جنونية. شعرت بشيء – أقولها وأنا مدفوع بشعور لا أعرفه، لكنه كان مصدرًا للسعادة – شعرت بشيء يشبه الغضب على ما يبدو، لكن من بعيد. فقد تعلمت منذ وقت مضى كيف يتصرف الناس وهم في المقابر، كما أن ما أزعجني هو أن شقيقتي كانت تلعب دور الفنانة التي تبحث عن الإلهام. فنانة تعتقد أنها ترى أكثر مما يراه الآخرون. أدركت فجأة أن الفتاة التي تمعن في الضحك فوق ظهري ستموت يومًا. لم أفهم كيف استطاعت "إيما" أن تفعل بها هذا. هل هي قادرة على أن تلتقط لها صورة بعد أن تحولت إلى "عمل فنّي خالص"؟

أصابها الإرهاق أخيرًا، فجلسنا فوق حجر أمام قبر "فاشا شالا"، وأخذت "إيما" تطعم "ريبكا"، وتناولها طعام أطفال بطعم التفاح، وكأن شيئًا لم يكن. وقالت ونحن نغادر المقابر:

- يوجد في العالم أقلية واحدة تتجاهل الأغلبية، وتبسط نفوذها فوق أرضها، إنهم الأحياء".

ثم أضافت:

- أنتَ يا شقيقي المسكين، يا عديم الرحمة، أحبكَ كثيرًا. عِدني بألا تصنع بعد اليوم صناديقكَ اللعينة!

استدرت، رأيت فوق مدخل أرض المقابر يافطة على شكل نصف دائرة، تكون عادة في المقابر، تقول:

كنا مثلكم، وستصبحون مثلنا.

باستثنائي أنا.

أعطاني "أناطولي" - وهو صاحب المطعم ورئيسي في العمل -الهاتف المحمول. إنها زوجتي. مَن غيرها! هززت رأسي. الآن، وأنا أستعد لطهي طعام لشقيقتي وابنتها بكل اهتمام وحماس. لا؛ كفاني أن وردية ليلية تنتظرني اليوم كالعادة. لماذا يكون الإنسان- وأقصد نفسي هنا، أنا من لا يهتم بشيء، ولا بتبعية لأي شيء -لماذا عليّ أن أتحمّل يوميًّا أكثر حالاتها بذاءة بعد مرور سبع عشر عامًا؟ شعرت بالأسى نحو نفسي. رِثاء الذات عند أناس مثلي هو أمر في موضعه.

لففت الهاتف في فوطة تجفيف الأطباق، ثم وضعت فوقه الغطاء في وعاء الطهي.

Twitter: @ketab_n

كنت أعرف ما سيحدث عن ظهر قلب: بعد الفواق يأتي اللوم، والسباب، والبكاء. وبعد الدموع تأتي نظرة تَفلق الحجر. ثم تليها حركات متشنجة، ورقصة التنين. ثم تتبدّل مرحلة التنين وتتحول إلى نوم. أنظف بعدها آثار القيء، وأضع ملابس زوجتي في الغسالة، ثم أضبط المنبه على الساعة الثالثة صباحًا. ففي تمام الساعة الثالثة وعشرين دقيقة تستيقظ زوجتي، تقبع بجوار سريري وهي تزمجر، وتبدأ في سحب الغطاء من فوقي، وتنهشني بأظافرها، فتترك آثارًا دامية على يدي. أخبرت "أناطولي" أنه صار لديْنا قطة. تَحِين مرحلة القلق، ويصبح الاتجاه الذي يشير إلى علامة "قِفْ" واضحًا. إنها هي مَن تحدده. تسحبني نحوها بهدف أن أسير خلفها كي نذهب سويًّا إلى الأعماق، ولا يمكن أن أطفو فوق السطح إلا برأس متكسّر من نقص الهواء.

- لا أرغب في الموت يا "بيبتر" يا حبيبي. افعل شيئًا! ألا ترى أني أموت؟

أُفلِت نفسي من قبضتها بصعوبة، ثم أذهب إلى المطبخ لأحظر بعض الماء البارد الذي كنت أحتفظ به دائمًا في الثلاجة في زجاجة بخّاخة لرش الزهور. أنثُر عليها قطرات الماء بانتظام: على وجهها، وبخاصة فوق وجنتيها، وعلى رقبتها، وذراعيها، وبخاصة ساعديها، وفي النهاية أبلل قدميها. إلى أن تتوقف الرعشة تدريجيًّا. ولأني لا أطيق أن أحملها وأضعها في السرير ألُفّها وهي فوق الأرض في بطّانية سميكة اشتريناها لضيوف لن يأتوا على الإطلاق.

نسيت ذات مرة أن أضبط المنبه. لا يمكن لأمر كهذا أن يتكرّر. استيقظت في الساعة الرابعة وست عشرة دقيقة على كابوس بشع: رأيت بركانًا مرتفعًا بجوار سريري، ويصبّ فوقي ماءً ساخنًا. تسمّرت في مكاني للحظات. وتحوّلت إلى كتلة هامدة من عجين ألقاها ذلك الحلم في ماء يغلي. كان الهدوء يسود الشقة لأن زوجتي لم تكن تحب أن تسمع صوت عقارب الساعة.

في النهاية نهضت من السرير، ودخلت إلى الغرفة المجاورة. لم أجد زوجتي هناك. وجدت في المطبخ زجاجة فودكا فارغة فوق الطاولة. ربما لم تذهب بعيدًا. فشقتنا ليست كبيرة، ومن السهل تفحصها في لحظات. فتحت باب الخزانة. لم تكن هناك. دولاب الملابس، لم أجدها به. غرفة التخزين. لم أرَ فيها سوى الماء. يومًا ما كنت ألعب مع "إيما" لعبة مماثلة. لذلك تخيّلت أن تظهر زوجتي من مكان ما، وتنهرني. كانت معاطفها وأحذيتها كما هي في دهليز الشقة. من المؤكد أنها ما زالت هنا في الشقة. سمعت بعدها صوتًا غريبًا، صوتًا يشبه التصفيق، لكنه لم يكن سوى صوت قميص مُعلّق في الشرفة ليجفّ، ويرتطم كُمّاه الخاويان بسورها.

تفحّصت الحمام للمرة السادسة. وجدتها كانت هناك، مُكوّمة في حوض الاستحمام، وقد غشيها النوم. أطفأت النور لكن جسمها العاري ظلّ يضيء وسط الظلام.

انتهت الأم وابنتها من تناول الطعام، وبدا عليهما الرضا الكامل. غسلْت السكاكين، ولمّعت الأجزاء الحديدية بفوطة خاصة. لم أكن أسمح لأحد غيري أن يقوم بذلك العمل. كنت أشعر بالرضا في كل مرة أرى فيها صورة وجهي الصغيرة تنعكس على نصل السكين. بالطبع ظهرت على وجهي ملامح عشوائية لا نهائية، اجتمعت من هنا وهناك، ورغم ذلك، أو ربما لهذا السبب كنت أراه جميلًا.

كنت في طريقي عائدًا إلى البيت. اتخذت طريقًا جانبيًّا بمحاذاة البحر. رأيته أمامي أو خلفي، على أية حال كان قريبًا مني، وفي متناول يدي. إنه البحر. انتبهت فجأة إلى السبب الذي لا يجعلني أفهم الإيميلات التي تكتبها لي "إيما". فأنا أقرأها بنوع من النفور رغم حرصي على أن أعرف أخبارها

Twitter: @ketab_n

وأخبار أمي، وأعرف شيئًا مما يحدث في وطني. لكني لم أرى فيها البحر يومًا. كانت أخبارها تئنّ بأرض قديمة قاحلة ظهرت قبل أن يُخلَق البحر.

مشيت بجوار الشاطئ، أعبث في رواسبه بعصي من الخيزران، أتخيل ما الذي يمكن أن أعثر عليه في تلك الرواسب. كنت أحتفظ في مخزن البيت بمجموعة جميلة من الأشياء التي كلفني بها البحر كي أرعاها. رغم ذلك كنت أطبع كل بريد إلكتروني يصلني من شقيقتي، وأضعه في صندوق كارتوني أعددته خصيصًا لهذا الغرض. فكّرت في سبب آخر لحالة سوء الفهم التي تقف حائلًا بيني وبينها. كنت أتلقى الرسائل، وأقراؤها حسب ترتيب ورودها، واحدة تلو الأخرى. ربما لم يكن من الضروري أن أقرأها واحدة تلو الأخرى، بل رسالة فوق رسالة، تمامًا كما أضع قشور البصل، أرتب رسائلها على شكل شمس، ثم أبسطها من جديد في شكلها الأصلي.

لمحت شيئًا يلمع عند قدمي. قلّبت الطحلب البحري بعصاي فرأيت إبزيمًا. ملت على الأرض، وأخرجت من وسط الرمال صندلًا مطاطيًّا أبيَض تلبسه النساء. إنه هدية أخرى من البحر، أضيفها إلى مجموعتي. وعندما ضبطت المنبه في البيت على الساعة الثالثة رحت أتساءل أين ذهب زوج الصندل الآخر.

***

كانت "ريبكا" مُحِقّة. كان الدهليز الضيق ينتهي بنافذة، وعندما مالت "إيما" برأسها حسبما سمح لها به الشِّباك رأت قدمَيْ رجل رياضيّ ضخمة تبعد عنها بثلاثين أو أربعين سنتيمترًا. يقف فوق يده، مستقيمًا مثل شمعة، وعلى ظهره شكل حلة رياضيّة برونزيّة بالحجم الطبيعيّ.

الغريب في الأمر أنهن جميعًا لم يتفوهن بكلمة واحدة يومًا ما عن هاتين القدمين. كان إدمان الخمور كان مصنفًا على أنه مرض، تحت تشخيص رقم

Twitter: @ketab_n

فـ10، وهو الرقم الذي انطبع في عقولهم وعقول أُسَرِهم بفضل طاقم الأطباء، وجلسات العلاج، واللقاءات الجماعية. هذه المقدمة الافتتاحية كانت حجر الزاوية في كل أنواع العلاج. حجرًا تلقيه -لحسن الحظ -كل ردود أفعال الممرضات الطبيعية. ممرضات أعياهن بقوة ذلك التشخيص المبتذل، ورعاية سيدات غارقات فوق الرصيف في القيء بدلًا من أن يرعوا أبناءهم وأُسَرهم مثلهن، وفتيات في أعمار بناتهن، بدلًا من أن يذهبن إلى المدرسة أو إلى مراكز التأهيل المهني، ويقمن في البيت بواجباتهن. فالأمر ليس بمزحة. بدلًا من ذلك كن يسرقن، ويبعن أجسادهن كي يجدن ما يبتاعون به المخدرات، وعلينا نحن الآن أن نحمل لهن طعام الإفطار، ونضعه أمام أفواههن، ونعاملهن برفق ورقّة، ونقيدهن بطريقة لا توقع بهن الضرر، ولا نخدش سواعدهن، كما فعلت بنا تلك السيدة النبيلة عندما ضربتنا بحقيبتها، وعلينا أن نحضر لها سيارة أجرة في الحال لتوصلها إلى مدينة "تشيلاكوفيتسا"، كي لا تشكونا عند الطبيب الاستشاري، أو تكتب شكوى وترسلها إلى الوزارة مباشرة. لذلك كانت كل نزيلات القسم الأرضيّ بالمستشفى على قناعة -عندما رأين هاتين القدمين كما تراهما هي الآن -بأنهن تعانين من تبعات إدمان الخمور، أو بكلمات "جيزيلا" "هلاوس شديدة".

قادت الممرضة "إيما" نحو سريرها، وأرتها خزانتها التي ستضع فيها أشياءها.

التفتت "إيما" نحو امرأة ترتدي بيجاما حريرية بلون الفيروز. لم يبدُ على من هم في القسم بأنهم في كامل وعيهم:

- مرحبًا، اسمي "إيما"!

Twitter: @ketab_n

أخذت المرأة ترمقها، وتتابع حركاتها بكل إصرار، لكنها لم تنبس بكلمة واحدة. على السرير الآخر تمددت جِنيّة أخرى، وأغلقت عينيها. وكان السرير الثالث خاويًا.

استلقت على السرير، وبسطت كراستها المربعات كي تقرأ خطاب "بوبل" مرة أخرى: شعرت بما يشبه الغضب... أنا لم أُولَد، فمن المنطقيّ أنني لن أموت... تعلمت منذ وقت مضى كيف يتصرف عادة الناس وهم في المقابر.

صاحت سيدة الفيروز، وقالت:

- مخدرات أم كحول؟

لم تتوقع "إيما" سؤالًا كهذا على الإطلاق.

- نوبة كحول.

أجابتها بصورة مقتضبة، ثم انغمست في قراءة الخطاب.

فتحت الجِنيّة عينيها، وقالت بصوت ضعيف:

من فضلك يا "فلادينا"، كفِّي عن هذا...

لكن "فلادينا" انتفضت من فوق السرير، وأخذت تدور حول "إيما" باهتياج شديد، وتحوم حولها في دوائر تَصغُر شيئًا فشيئًا: "نوبة كحول، صحيح؟ هل أنتِ طبيبة محرومة من الحب، أم مثقفة منبوذة، ومصابة ببرود جنسيّ جاءت هنا لتلقي علينا قاذوراتها؟ تنظر في أحد الكتيبات، وتتظاهر بأنها تسمو فوق الأحداث؟ وتعرف أكثر من أي منا؟ امرأة لا تلقي بالًا لهذه الهراء، ثم تكتب عنه في الجرائد مقالًا عميقًا. وتحكي فيه عن المساكين مدمنات الكحول ومعاناتهن، لكنهم بفضل إرادتهن القوية، وبفضل رعاية

الأطباء النفسيين بدئوا حياة جديدة؟ سيكتظ كتاب تلك الساقطة بالروايات! هذا الأمر يصيبني بالغثيان! يا ممرضتاااه!".

خبأت "إيما" كراستها سريعًا بدافع أحمق للدفاع عن النفس، ثم خلعت نظارتها. لقد استسلمت من قبل لموقف كهذا لكنها لن تسمح به مرة أخرى. ففتحت في عقلها قاموس الشتائم التي تعلمتها هنا، وأخذت تختار منه بعضها لتلقيها في وجه المرأة كي تُخرِس بها لسانها. لكنها فشلت في هذا أيضًا. ستظل هكذا ضَارِعة مُنكسرة حتى تموت. شعرت فجأة بوعكة صحيّة، لم تكن بالخطيرة. كانت مجرد شعور باعتلال معتاد أثناء الصباح يدّعيه الأطفال قبل ذهابهم إلى المدرسة. باختصار بدأت ترى الأمور من وجهة نظر "فلادينا"، فانتابها شعور بالغثيان.

رغبت في أن تضع إصبعها في أبعد مكان في حلقها، كي تبدو الصورة على أكمل وجه. قالت بابتسامة وُدّ وتفهّم:

- اسمعي يا سيدتي

ثم أعادت النظارة فوق أنفها، وقالت:

عندي اقتراح مناسب: جرّبي أن تتجاهلي وجودي هنا، وإلا سيتصاعد شعورك بالعدوانية.

صدر صوت الجنيّة، وكانت تُدعى "فيرونيكا" وهي تقضم أظافرها وسط الصمت الذي حلّ في المكان، وقالت:

- من فضلكِ يا "فلادينا"، اتركيها وشأنها..

كررت طلبها مرة أخرى بصوت طفل خائف. وعلت خبطات أظافرها التي لا تحتمل كلما غرقت الغرفة في مزيد من الصمت. كان جبل الفيروز العاقل

Twitter: @ketab_n

الذي يبعد مترًا عن سريرها يهتزّ. بدأت "فيرونيكا" تنتحب بصوت منخفض وكأنها دمية تعمل بالبطارية.

تراشقتا النظرات. ثم ظهرت بُقع حمراء على وجه "فلادينا". لكن "إيما" لم ترغب في أن تشارك في حرب النظرات. فهي لم تعد تصارع من أجل بلوغ الخلود. لم تعد تكافح من أجل شيء. لكنها شعرت بالحياة تدبّ في أوصالها لأول مرة منذ رحلتها الأخيرة في سيارة الإسعاف، في لحظة التحفّز والخوف من الجُرح الذي يتقدّم منها.

أخيرًا راحت "فلادينا" تردد، وتقول:

- تجاهل، وتصاعد، وتحليل.

هذه الكلمة الأخيرة التي لم تنطقها "إيما" كانت بمثابة دَقّة انفرط معها العِقْد. استدارت "فيرونيكا" وربّعت قدميها، وتدفق من فمها نحيب يشبه الغناء.

نهضت "فلادينا"، واشتد جسدها كالوتر بجوار السرير وهو ينتفض. كانت حافية. وبدلًا من أن تنقضّ على "إيما" توجهت نحو حوض الاغتسال، وأخذت تنظّف أسنانها، وتتغرغر بالماء بصوت عالٍ. كان تصرفًا مفاجئًا جعل الجنيّة تتوقف عن قرض أظافرها. اعتقدت "إيما" أنه يكون هذا طقسًا يؤدونه هنا قبل بداية المباراة. لكن "فلادينا" فتحت باب الغرفة بتكاسل كي لا تلف إليها الأنظار، وبدأت تصرخ:

- اسمعوا! أرسلوا إلى غرفتي أي شخص تريدونه، فأنا أتحمل كل شيء، أتحمل العجائز التي يسيل لعابها، وحتى مدمنات المخدرات اللعينات المصابات بالهستريا، لكني لا أتحمل وجود امرأة كهذه! هذه الساقطة المثقفة التي جاءت هنا فقط كي تسخر من الجميع، ثم تتبجح لاحقًا بتأملاتها، وتتحدث عما رأته هنا. هذا فوق طاقتي! انظري إليها أيتها المرضة، انظري

Twitter: @ketab_n

إلى شكلها! أمثال هذه المرأة كانوا يُلقون إليّ بالأموال في محطة مترو "أنديال" وهنّ عائدات أثناء الليل من أمسيات تنظمها لهن الشركة.

انتصب "رامبو" عند الباب مثل الجبل، وارتد صراخ "فلادينا" من عندها قويًّا.

- اسمعي يا سيدة "نوفوتنا" اهدئي! سأحضر لكِ هنا "ميدوزا" إن لم تعجبكِ هذه السيدة.

لم تفهم "إيما" من تكون "ميدوزا" هذه. لكن كان لذلك التهديد أثر كبير؛ لم تتفوه بعدها "فلادينا" بكلمة واحدة. توجهت نحو سريرها، واختفت أسفل الغطاء.

كانت السيدة "مارتسيلا" على حقّ. كان بالغرفة جهاز فيديو بالفعل. شاهد الجميع في تلك الليلة أحد الأفلام حول فريق "أبا". لعبت "ميريلي ستريب" فيه دور البطولة. وضعت السيدات المجلات جانبًا، وتوقفن عن الحياكة، وبدأن يصفقن، ويضربن بأقدامهن فوق الأرض على أنغام الأغنية، ويرددن: "money، money، money" . خلع بعضهن معاطف النوم، وأخذن يتلوين أسفل شاشة التلفزيون، صدورهن الضخمة تنتفض وكأننا في صالة ديسكو.

الغريب أنني في تلك الليلة الأولى في القسم الأرضي بالمستشفى لم أتعرض لأي تهديد من "فلادينا".

وبينما كنت أغطّ في النوم سمعت صوت أحدهم يقول:

- اسمعي يا سيدة "تشرينا"، لا تنامي، وتناول هذا من فضلكِ! ما هذا العبث؟ كيف يمكنني أن أستسلم للنوم وسط هذا الضجيج وبين أيادٍ متشابكة؟ هل كانت هذه هي المرضة؟ كانت هناك امرأة تجلس على جانب

Twitter: @ketab_n

السرير، وترتدي ملابس سوداء. دفعت بعض القطرات من حقنة الدواء، ثم غرست الإبرة في الوريد.

سألتني:

- هل تشعرين بها؟

أجابت "إيما":

- كلا، ربما. أشعر وكأن كفًّا كبيرًا كان يقبض على عقلي بدأ ينفرج على مهل. أشعر...

- كفى.

انكفأ عليّ ظل أسود، وظللني وظلل سريري جناح رقيق ناعم.

واصلت المرأة حديثها:

- تتوقف فكرة، وتتعثر الأخرى في الظهور، عندما تختفي الصورة، ولا تظهر الصورة التي تليها، ألا ترين فراغًا بين هذا وذاك؟

أومأت "إيما"، وقالت بارتباك:

- نعم أرى!

- حاولي أن تطيلي هذه الفجوة قدر الإمكان.

فتحت عينيّ، فلم أرَ امرأة تميل فوقي بملابس سوداء. بل رأيت فيرونيكا تحتضن الوسادة، وتقرّبها من وجهي.

همست بلهجة اعتذار:

Twitter: @ketab_n

لا تغضبي مني عندما أقتلك هذه الليلة. يؤسفني هذا، لكني مضطرة إلى أن أقتلكِ. لا حيلة لي في أني امرأة شريرة.

قفزت من فوق السرير، وخرجت مسرعة إلى الدهليز. كانت ساعة الحائط تشير إلى الثالثة وعشرين دقيقة. إنه الوقت الذي يستيقظ فيه شقيقي، ويأتي وهو يحمل بخّاخة الماء. كان الضوء يتسرب من غرفة المرضات من خلال بابها الموارب. شعرت بدقات قلبي تصل إلى حلقي. وصلت إلى نهاية الصالة حيث بها نافذة تطل على الحديقة. حبوت فوق الأرض فتحولت إلى فأر. انطلقت بجوار الحوائط، وتسللت خلف الطاولة حتى وصلت إلى باب موصد. فعدت مرة أخرى نحو النافذة.

دسست أنفي في أحد الشقوق التي يمكنني أن أتسلل منها إلى الخارج. مررت بجوار باب غرفة المرضات بحذر، ثم واصلت رحلتي وأنا أدعو ألا يعلو صوت أقدامي فوق غطاء الأرض البلاستيكيّ. أخذت أتفحصّ من جديد أحد الأركان، فسقطْت من الإرهاق فوق حافة أحد الأرفف التي رُصّت فوقها الكتب. تراكمت فوقي طبقة من التراب، وسقط أحد الكتب فارتطم بأنفي.

كنت ألهث من التعب، وانتابني شعور مزيف بالجوع شأن أيّ فأر. أخذت أقرض إحدى الصفحات، لكني لفظتها على الفور. فقد كانت تحكي قصة أحد البشر، مرة أخرى قصص عن البشر، وليست عن أحد سواهم. قصص البشر كانت تسبب للفأر عسر هضم. أخيرًا وجدت صفحة ليس بها سوى الضفادع. فانطلقت تقرضها بكل رضًا:

كانت هناك ضفدعة، تعيش في نبع مليء بالطحالب. زارتها ذات مرة ضفدعة قادمة من البحر.

- من أين أنتِ؟

Twitter: @ketab_n

قالت الضفدعة:

- أنا قادمة من المحيط الكبير.

- كيف هو كبير ذلك المحيط؟

- إنه كبير جدًّا.

- أتقصدين أنه يعادل ربع هذا النبع؟

- أكبر.

أكبر؟ نصف النبع؟

- أكبر بكثير.

- ربما... كبير مثل هذا النبع؟

- لا يوجد وجه للمقارنة.

مستحيل! يجب أن أراه بنفسي.

انطلقا معًا نحو البحر. وعندما رأت ضفدعة النبع البحرَ أصيبت بصدمة قويّة كادت تُفجّر رأسها.

حاولت أن أطحن الأوراق بين أسناني بصوت لا يسمعه أحد. لكن يبدو أن صوتي وصل إلى أذن المرضة لأنها توجهت إلى الدهليز. فاعتدلت فوق المقعد، وتظاهرت بأني أقرأ في الكتاب.

اسمها "كارابينكا". كان الجميع ينادونها بهذا الاسم. بدت على وجهها علامات طيبة لا تفارقها. يمكنها أن تحمل سلّة فوق ظهرها إن أرادت.

سألتها:

Twitter: @ketab_n

- يا "كارمينكا"! ألا يوجد مكان هنا ترك فيه النجّار فجوة؟

- ماذا؟ تقولين أنكِ تريدين قهوة؟

بالطبع كانت صمّاء. كان هذا متوقَّعًا.

- بلى، أنا أسألكِ أين أجد هنا مكانًا تخرج منه الفئران.

- أنا لا أفهمكِ. تقولين إنكِ ستخرجين من هنا الآن؟!

- اللعنة! يا بني آدم، أريد أن أعرف الطريق إلى خارج المبنى!

هزّت رأسها، وقالت:

- عجوز. حلم وراء حلم، حلم وراء حلم.

- ألا تستطيعين النوم يا سيدة "تشيرنا"؟

- لا أستطيع.

- أتعرفين أني لا يمكنني أن أعطيكِ حبّات دواء؟

- أعرف.

صمتنا للحظات، ثم قالت:

- أنا أيضًا، أحيانًا أعجز عن النوم.

- لكن يمكنكِ أن تأخذي أقراص دواء.

أخذت للحظات تفكّر ببلاهة في ردّ تقوله:

أنتِ محقة. أستطيع. لكني أخبريني، ماذا تقرئين؟

خبأت نصف الصفحة التي أقرضها بسرعة، وأجبتها:

Twitter: @ketab_n

لا أعرف.

طيب، واصلي القراءة قليلًا، ثم اتركي عينك تأخذكِ.

بالفعل قالت:

اتركي عينكِ تأخذكِ.

أيتها الممرضة... "فيرونيكا"... أنا خائفة منها.

ابتسمت، وقالت:

- معقول! تخافين من هذه المرأة الضعيفة؟ صحيح أن البعض يأتي أحيانًا بأفعال غريبة بعد تناول أقراص "سوبوتكس*"، ويقول إنه إنسان شرير. لكنها في الواقع حمَل وديع.

بندقية صغيرة، وعيناكِ تأخذكِ، امرأة ضعيفة، حمَل وديع. واصلت قرض الصفحات.

- من هي "ميدوزا"؟

هل تخيلت هذا، أم أن عيني الممرضة اختلجت فعلًا من الفزع؟ التفتت حولها، ثم خفضت صوتها بشكل ملحوظ، وقالت:

- لا تنطقي الاسم مرة ثانية هنا. إياكِ أن تفعلي!

تمنّت لي ليلة سعيدة، واختفت بسرعة في غرفة الممرضات.

أخذت أراقب بندول ساعة الحائط الكبير. رأيته قد توقّف لحظة، ثم تقدّم دقيقتين إلى الأمام محدثًا طرقة خفيفة. طاكّ. ربما غلب النعاس زوجة "بول"

---

* أقراص لعلاج إدمان المخدرات –المترجم.

Twitter: @ketab_n

أخيرًا، وربما نامت أيضًا تلك المرأة الضعيفة، والحمَل الوديع. لكن الفأر سينتظر. طاكّ!

كنت مهتمة بأن أعرف من هي "ميدوزا". فرغت من التهام النصف الآخر من الصفحة، ثم ذهبت إلى المرحاض.

وجدت فتاة تقف هناك، تضع فوق رأسها غطاءً لسترة ترتديها، وتنفث الدخان في فتحة بالحائط. خاطبتها قائلة:

- من فضلكِ.

لكني بقيت هناك طويلًا وأنا أنظر إلى تلك الفتحة بإعجاب.

- أنتِ مجنونة! أغلقي هذا الباب بسرعة قبل أن تَشْتَمَّ الممرضة رائحة الدخان.

ثم سحبتني إلى الداخل. وفجأة وجدنا أنفسنا متلاصقين في مكان ضيق. امرأتان غريبتان عن بعضهما. التزمنا الصمت، وتناوبنا تدخين السيجارة. وفي كل مرة ننفث الدخان في فتحة الحائط. بدأت أتفحص الفجوة بعض الشيء. من ثلاثين إلى أربعين سنتيمترًا. تراكمت فوق جانبها السفلي طبقة من الجصّ وأعقاب السجائر، بداخلها مواسير ما. حاولت أن أدسّ رأسي في الفجوة، لكني لم أنجح.

- هل جننتِ؟

- فقط أحاول. ربما تمكنت من الهروب من خلالها.

قهقهت، وقالت:

- أنتِ مجنونة! إلى أين تعتقدين أنكِ ستذهبين. تريدين العودة إلى القسم العلويّ؟ حمامات الممرضات توجد أسفلنا.

Twitter: @ketab_n

لم أكن في حاجة إلى أن أسأل عمن هو مدمن على تعاطي المخدرات ومن أدمن المشروبات الكحولية. كما كنت سعيدة أيضًا أنها لم تسألني. تفحّصَتني من رأسي حتى قدميّ، ثم قالت:

- حسنًا، ربما تمكنتِ فعلًا من أن تحشري نفسكِ في الفتحة. إنكِ مثل العنكبوت.

- أنا لست عنكبوتًا، أنا فأر.

- هل هذا أحد الأبراج الصينيّة؟

- من هي "ميدوزا"؟

- لا أعرف. هل هي إحدى النزيلات مدمنات الخمور هنا، أم ماذا؟

توقفت عن مواصلة الحديث. وأشعلت الفتاة سيجارة أخرى. رأيت عينيها تلمعان وسط لهب الولّاعة، وأسفل غطاء الرأس. عينان بنيتان وكأنهما حبّتي كستناء منزوعتي القشرة. فكرت فيما سيحدث لو أني لمست وجهها برِقّة بإصبعين من يدي. فكرة غبيّة.

سألتني:

- لماذا لا تنامين؟

- لا أستطيع. قال لي أبي اليوم إنه يريد أن ينزع عني الأهلية. وقدم بالفعل طلبًا بهذا.

- شيء بشع.

- البشع في الأمر هو أنه كان عليه أن يفعل هذا من قبل.

كنا نتحدث بصوت منخفض. أخبرتها بكل ما خطر على بالي. وكأن الساعة في الدهليز قد توقفت عن الحركة، وكأن كل الأحداث والشخصيات التي تتصاعد مع دخان السجائر عبر فتحة الحائط قد اختُزِلت على نحو غرائبيّ في آخر رنّة للساعة. طكّ. تشرّبها الهواء فوقنا، واختفت واحدة تلو الأخرى. اختفى داليبور داليبور، و"ديتا". تلاشى شقيقي، وغابت أمي، وحتى أبي، وشقيقتي "ريبكا".

حاولت من جديد أن أدسّ رأسي في تلك الفجوة الضيقة المظلمة كي أراهم.

- اذهبي أنتِ أولًا! أغلقي بسرعة بسرعة، ثم تأكدي من أن الطريق آمن.

خرجْت من المرحاض سريعًا، وأغلقت الباب على الفتاة كما اتفقنا، ثم تسللت إلى الحجرة. هدوء. كانت المرأة الفيروزية والجنيّة تتنفسان بانتظام. انتشر الظلام خلف النافذ وكأنه قطعة من الشيكولاتة. راودتني نفسي بتناول قطعة منها، ففتحت درج الخزانة، وتناولت جزءًا منها.

تحرّكت الأرجوحة على مهلٍ وسط فجوة بين لوحتين، تذوب بعذوبة على اللسان: مرة أكون في أعلاها، ثم تتناوب معي "ريبكا". لكن الوجوه على الطرف الآخر للأرجوحة كانت تتبدّل. فظهرت "ديتا" بعد "ريبكا"، وسمعتها تناديني:

- يا إلهي! خذي نفسًا عميقًا!، وارجعي بجسمكِ بقوّة!

وكأنها أرادت بذلك النفس وذلك الارتداد أن تبدد كل مخاوفي. ثم ظهرت أمي أمامي، ترتدي قبعتها المضحكة فوق رأسها، وترتد بهمّة واضحة وكأنها فتاة صغيرة. الغريب أن القبعة لم تسقط من على رأسها. وقف "رامبو" خلف أمي، واحتضن طرف الأرجوحة وكأنها دراجة بخارية ثقيلة، وأخذ يقلّد صوت المحرّك

Twitter: @ketab_n

بفمه مثل الأطفال عندما يلعبون لعبة السيارات. ثم جاء بعد "رامبو" "داليبور"، زوجي السابق الذي كانت عيناه تخاطبني كلما ظهر من فوقي، وتوبخني قائلة:

- كان عليكِ أن تضميها، وأن تصليها ببعضها! لماذا فعلتِ هذا يا "إيما"؟ لقد بنيت قلعة، وأنتِ دمرتِها، وعرّضتِ حفيدنا لمخاطر كبيرة بفعلتكِ هذه.

فضّلت أن أغلق عينيّ، وأرتد بكل قواي. وعندما فتحت عيني من جديد لم أجد "داليبور" على الطرف الآخر للأرجوحة، بل وجدت "بوبل"، يمسك مقعد الأرجوحة بكل عصبية كي يحافظ على توازنه. وفي كل مرة نهبط فيها نحو الأرض يفقد جزءًا من جسده، إلى أن تفكك تمامًا. بعد ما اختفى ظهرت أمامي جدّتي ومن خلفها جدّي، ومن ورائه فتاة، وخلف الفتاة كلب، وخلف الكلب قطّة. لم أفهم كيف اتسع لهم جميعًا المكان. فقد جلس الكثير منهم خلف الفتاة. أحدهم يمسك بالآخر. وأخذت جدتي تناديني وهي غاضبة: كفاكم! أوقفوا الأرجوحة، أتسمعون؟ ألا ترون أنكم هكذا تصيبونني بالإرهاق؟

دقّت الساعة، ثم واصل بندول الساعة التقدم إلى الأمام. تبدّد الجميع في تلك الدَّقة. ولم يبق غيري، أواصل التأرجح وسط أفكاري، عالقة في فجوة بين لوحتين. لم يكن هناك أي وجه على الطرف الآخر للأرجوحة. لم يكن هناك غير ثقل خفيّ يدفعني إلى الحركة الدائمة. بسط ذراعه، وأعطاني بيضة فيها هديّة مُخبّأة. وفي النهاية أخذ يدفعني فوق الأرجوحة، بينما يصدر من الحائط صوت يئنّ، ويقول: حلم وراء حلم، حلم وراء حلم.

***

كانت تراها دائمًا أمام عينيها. تبدد الظلام خلف النافذة، وظهرت إحدى جوانب فتحة الجدار التي يأتي منها الضوء بحافة غير منتظمة. كان عليها أن تقنع نفسها بأنها موجودة، وستبقى موجودة، وأن ذلك لم يكن وهمًا. الآن فورًا. أرخت ساقيها على الأرض، وتركتهما تستريحان وكأنهما مرّا بيوم مليء بالأحداث في أحد معسكرات الصيف. احتضنت الجنيّة الوسادة بكل رقّة، وهي التي كانت منذ ساعة عبارة عن آلة للقتل.

تقدمت بضع خطوات، ثم تسمرت في مكانها. كانت قدماها العاريتان تئزان بصوت مسموع فوق مشمّع الأرضيّة. لا يمكن أن توقظهما. وأرسلت كل رغباتها الدفينة إلى قدميها. لقد استمعت اليوم إلى صوت "ديتا" لمدة دقيقة تقريبًا.

كان يوجد هاتف في القسم الأرضيّ، ويمكنهم أن يتصلوا بذويهم من الساعة الخامسة حتى السادسة. فانتظم طابور كبير منذ الساعة الرابعة والنصف أمام الباب. كان على كل واحدة أن تجاهد لكي تحافظ على دورها في الطابور. كانوا يتاجرون بهذا الأمر مقابل السجائر، وكروت التليفون، والحبوب المنوّمة التي كانوا يكنزونها. لم يكن لمن وقف في آخر الطابور أي فرصة للحديث. فبمجرد أن يضع أحدهم السماعة حتى يصيح: مَنْ بالخارج. كل مكالمة كانت تستغرق خمس دقائق؛ صراخ، وبكاء، وتوسلات، وسِباب. فكل واحدة كانت ترغب خلال الخمسة دقائق أن تعالج قضايا تتطلب سنوات لكي تُحلّ. كان هناك مِن الإدارة مَن يسجل كل مكالمة تليفونية. المكالمات الواردة وتلك التي يطلبها النزلاء، من تحدّث مع من، وكم دقيقة استغرقت. كان الهاتف في مكان أمام غرفة الممرضات. وكانت الممرضة تسجل كل شيء بمنتهى دقة. كانوا يعتبرون أن حالة كل من سالت منه دموعه أثناء المكالمة غير مستقرة. كانت تسجل في البطاقة: علاقته بالأسرة غير واضحة المعالم،

Twitter: @ketab_n

لذلك أوصي بمنع الزيارات. وأخيرًا أصابها الدور، وصعدت إلى قمة الجبل؛ غرزت فيها العلَم بكل قوتها، ثم غاصت وسط الثلوج.

- هل تسمعيني؟ أسمع صوت ضجيج عالٍ عندك! سأحضر غدًا مع "ريبكا" يا حبيبتي! سأصل متأخرة بعض الشيء، فأنا قادمة فوق الدراجة. فكّرت في أن أتّخذ طريقًا جديدًا، من منطقة "تشرني كامن" إلى "حي بوهنيتسا".

لن تضع علمًا. فهذه فكرة حمقاء. ستضع قطعة شيكولاتة في الثلج مثلما تفعل قبائل "الشيرب". فيقال إن آلهة الهمالايا شرهين إلى درجة كبيرة.

كان لها أذنان لكنها لا تسمع. وعينان رأت بهما نظارة بلاستيكية يرتديها "آندي وارهول" بدلًا من أن ترى ثعبانًا حانقًا يمشي خلفها. وخلف هذه النظارة رأت عينيْ رجل لم ترَ النوم منذ بضعة أيام. ألقى فوقها معطفًا جلديًّا. ثم صاح بعد أن فتح باب عربة الإسعاف، وقال لها:

- اهربي!

- ماذا؟ ماذا قلتِ الآن؟ يا ديتا...

أرادت أن تخبرها بأنها ظلت تزحف حتى وصلت قمة الجبل، لكنها تجمّدت هناك. وتحوّلت إلى تمثال من الثلج لا يشبهها من قريب ولا من بعيد. أرادت أن تنبهها، لكن صوتها تاه منها.

- حسنًا، لقد ثرثرت السيدة بما يكفي، أليس كذلك؟

ثم أخذت منها "فلادينا" السماعة، وأغلقت الخطّ.

- يا حبيبي، هل سمعتكِ جيّدًا؟ هل قالت "ديتا" هذا الكلام بالفعل؟

Twitter: @ketab_n

لم تخاطبها من قبل بهذا الاسم. وبدلًا من أن تناديها باسم به بعض التدليل الرقيق، أظهرت لها احتقارًا لا حدود له. ولو كانت "ديتا" قالت ما قالته، فهذا يعني أنها كانت حبيسة عاصفة ثلجية، كتلة ضخمة وقذرة من ثلوج لم تختارها، وسقطت فيها بعد أن خارت قواها.

كررت المحاولة: أخذت تستدعي رغبتها، وتدفعها بكل جسدها حتى وصلت إلى قدميها. وحدث ما أرادته! ارتفعت عشرة أو خمسة عشر سنتيمترًا فوق أرضية الغرفة، ثم وصلت إلى باب الغرفة بكل هدوء، ورويّة، وبدون أن تجهد نفسها. كان الأمر سهلًا للغاية. فأخذت "إيما" تنفث من الغيظ. لم تفهم، لماذا لم تفعل هذا من قبل، خاصة في تلك المرّة، عندما غادرت سيارة الإسعاف، وحاولت أن تهرب من الحديقة. كان في إمكانها أن تختار أي سرعة تريدها. ولو أنها اختارت أقصى سرعة لديها لما استطاع المسعف أن يلحق بها.

كان ضوء منخفض مائل إلى اللون البنفسجي يضيء الدهليز. سمعت زفرات سيدتين ترقدان خلفها. عرفت أن واحدة منهما اسمها "فلادينا" والأخرى "فيرونيكا". والغريب أن هذين الاسمين كان لهما بصورة أو بأخرى أهمية كبيرة. فكل منهما تنام فوق اسمها، عالقة فوقه وكأنه آخر خيط من بيت عنكبوت مُمَزّق.

باب غرفة المرضات موارب. وأصابع أقدام تلوّح في الهواء، تمامًا كما كان يفعل أبي. ما الفائدة لو أنهم ألغوا الجاذبية أو الطيران الاستعراضي ما دامت شقيقتها ستمسك بها؟ على أي حال يجب أن تكون على قناعة بأن ما تريد أن تراه هناك ما زال قائمًا، ويمكنها أن تلمس أصابع أطرافها المتعرجة.

نامت "كارابينكا" لحسن الحظّ. تدلّت من فوق المقعد. انعكس على وجهها ضوء شاشة التلفزيون. بدت مثل امرأة سمينة وضخمة ألقى بها أحدهم فوق

Twitter: @ketab_n

المقعد. تسللت "إيما" سريعا إلى المرحاض، وأغلقت الباب خلفها. كانت هناك. الفتحة التي حفروها في الحائط، ودسّوا فيها بعض الأنابيب. زفرت الأربع والعشرين ساعة الأخيرة التي تراكمت في داخلها، ثم أدخلت رأسها سريعًا وسط الظلام.

همسات ضعيفة كانت تصدر من داخل الأنابيب وكأنها قادمة من بحر بعيد شقته مرآة الحائط. ما زال أبوها يجلس على أحد شاطئيه، فوق مقعد الصيد القابل للطيّ، ويحاكي إيماءتها. وتسمع بين الحين والحين صوتًا مكتومًا وسط تلك الهمهمة، صوت تنهدات، وصراخ أثناء النوم، وصفْق أبواب، وشخير، وموسيقى تصاحب عناوين النهاية في أحد المسلسلات التلفزيونية. ظلام، وهدوء، وليل لا وجود له: آلاف أصوات حفيف متكسّر لا ينقطع يتردد في الأنبوب الذي دسّت فيه رأسها.

وفجأة انتبهت إلى أحدهم يقف بجوارها، ويطلق المياه من صندوق المرحاض. لاحظت أن هدير المياه أخذ يهدر ويعلو بدلًا من أن يخبو ويختفي. وفجأة ارتطم تيار بارد بوجهها. وكأن ذراع صندوق المرحاض فوقها حرر سد مياه ضخم، وبدأت أعمدة الماء تتدفق من فتحة الحائط، آخر منفذ قد تهرب منه. لم تنهض من مكانها، ولم ترتفع في الهواء. ما أهمية ذلك في تلك اللحظة! أمسكت بالأنبوب داخل الفتحة بكل قوة، لكن موجة عملاقة داهمتها، وشقّت باب الحجرة، وملأت كل أرجاء القسم في لحظة. التفتت "إيما" حولها فوجدت سريرين من الحديد يتراقصان عند السقف فوق سطح مياه مفعمة بالرغوة، دارت وسط دوامة. كان السريران يتلاطمان ويتصارعان وكأنهما سيفان متقاطعان.

كان "فلادينا" في الغالب تصرخ، لكن صراخها يرتد إلى فمها حاملًا معه الماء. لكن من هي "فيرونيكا"؟ ارتفعت قطع الأثاث وسط دوامة الماء في أرجاء

Twitter: @ketab_n

الدهليز، وأخذت تتصدّع، وترتطم بالحائط. لكن "إيما" لم تسمع سوى هدير غامض قادم من داخل الأنبوب.

رأت فجأة ضوءين قادمين نحوها وسط الماء، وسمكتين تائهتين شاحبتي اللون. لكن ما هي إلا... ما هي إلا عينين "فيرونيكا"! بدَتا تحت الماء خاليتين من أية معانٍ أو علامات، أكثر مما هما عليه في الواقع. لامستها برفق، وقبل أن تختفيا رمتها بنظرة أنثى الأيل الرقيقة:

ربما الليلة...عديني بأنك لن تغضبي مني!

شعرت "إيما" أنها لن تتحمل هناك كثيرًا. ظلت تقبض على الأنبوب بقوة. أمسكته بأصابعها بقوة، وجسمها يهتزّ عاجزًا وسط تيار الماء. لكن قواها انهارت. ظهر من غرفة المرضات شيء ضخم أبيض اللون.

ظهر وسط فرج صغير في شيء يمكن أن يكون وجهًا نتأت فيه بعض الفقاعات:

- يا إلهي، ماذا يفعلون هناك في القسم العلويّ؟

إنها السيدة المنتفخة، المرضة "كارابينا".

محاولة هروب أخرى فاشلة. ماذا ستفعل. يمكنها أن تستلقي وتنام. لكن ماذا لو أنها كانت نائمة – ماذا سيحدث بعدها؟

قالت وهي تواسيني:

- مع هذا الوزن الخفيف واليدين الصغيرتين النحيفتين لن تَبْقَيْ طويلًا على قيد الحياة يا عزيزتي. ولن يفيدكِ أن تكوني فأرًا أو ضفدعة أو عنكبوتًا.

Twitter: @ketab_n

وجاء صوت طرقة خفيفة قادمًا من الدهليز. تقلّصت ساعة الحائط، وكشفت عن جسدها الشفاف الذي يشبه قنديل البحر. ثم ظهر فوقها توقيت مائي.

- "ميدوزا"*...

وتحوّلت "إيما" في تلك الطرقة، في الآن التي هو أقصر من طرفة عين، حيث سقطت مياه الماضي، ولم تمسسها مياه المستقبل بعد. تحوّلت وكأنها معجزة. كم كان ذلك سهلًا! لم تحتج حتى إلى زجاجة مكتوبًا عليها عبارة "اشربيني!"، ولا كسرة خبز صغيرة. كان يكفي فقط ألا تضيّع فرصة "الآن".

نحل جسدها واستطال أكثر بسبب التفكير الطويل والضئيل. طال ساقاها، واختفى ذراعاها في جسدها كما تختفي عجلات الطائرة في بطنها. وغطّى جلها الجديد شبكة الأضواء المتوهّجة. حاولت "إيما" أن تدفع جسمها الجديد إلى داخل الفجوة وضد التيار.

طار ثعبان البحر، وتلوّى في أحشاء القسم الغارق في الماء، وأخذ يعلو ويعلو. تجاوز برشاقة كل شَرَك نصبه له النفق الضيّق. لم يعد الماء ماءً. صار عنصرًا خامسًا، تحول إلى سعادة خالصة وغامرة. وعندما اختنق فيه الثعبان نسي ماذا كان قبل لحظات، وفقد وعيه بالهدف الذي خلق من أجله. ذابت إيما تشيرنا، ذلك الخيط المتشابك في نسيج العالم، ذلك الكائن الذي يهرب من مصحة الإدمان على الدوام. ذابت بكل أوركسترا ذاكرتها المتنافرة في بحر السعادة الذي صنعه ثعبان البحر، ذابت مثل الأسبرين دون أن تصدر حتى أي صوت لفوران.

وعندما تجاوز الثعبان السقف العالي أصابه بعض القلق. استفاقة غريبة هزّت كل جسده الفضيّ اللامع في الظلام. وظهر فجأة، وأخذت قطع الصناديق

---

* ميدوزا اسم علم ومعناه أيضًا قنديل البحر – المترجم.

Twitter: @ketab_n

الكرتونية المفعمة بالماء تتخبط برأسه. سقوف صغيرة تبعث على السخرية، لا أحد يدري لماذا عجز عن تفاديها. قفص زجاجيّ على يساره، يشبه زجاجة ضخمة بها رسالة وضعها شخص منبوذ في البحر.

فجأة راوده شعور بأن حوض الأسماك يطوّقه من كل جانب، حوض صغير خبيث في قلب الطوفان. حرّك الماء سريعًا بذيله، ثم وصعد برأسه إلى أعلى، وظل يصعد، ويصعد، وطحالب الجمل تتلوى خلفه، ويتعثّر بها:

- أيتها الممرضة، أنا أعاني من اضطراب عقليّ"

- أنتِ إذن مصابة بنوبة كحول!

- فُكّي عني هذه السلاسل!

فَكوني، ووضعوا لي الـ "انتابوس"* لمدة أسبوع

- بالله عليكم يا سيدات، من منكن أشعلت سيجارة هنا؟

- الورقة فارغة، الورقة لم يعد لها وجود

- إنه يحبكم أيتها الممرضات، إنه معكم في كل خطوة تخطونها!

ظهر ثعبان الماء أخيرًا من فجوة بين حقيبتين فوق السقف، وارتفع فوق المبنى. انتاب "إيما" الخوف ممن سيلتقي بهم هناك؛ أخذت تفكر في مدى الكارثة. هل ستغرق المياه مبنى واحدًا أم أن الحديقة كلها ستغرق تحت الماء، أو ربما – لا قدر الله – ستملأ الأجولة بسرعة جنونية بجمل ميّتة بدلًا من أن تملأها بالرمال لتصنع منها سدًّا. من ناحية أخرى يجب أن نعترف أن الكوارث الطبيعية

---

* عقار لعلاج مدمني الخمور – المترجم.

Twitter: @ketab_n

وغيرها من الكوارث تحدث في الأساطير أو في التاريخ من وقت لآخر، وأنه من الضروري مقاومتها عن طريق تعاون كل وحدات الإنقاذ وغيرها.

لكن الثعبان كان أصمَّ، أصمّ تمامًا في مملكة السوائل التي انتشرت الآن في كل مكان تصل إليه الأعين. تحته، في الأعماق أسفل بطنه تنتفض المباني وتهتز وكأنها هياكل سفن تجارية غرقت منذ وقت طويل. تلعق ألسنة الماء المالحة جسده وسط حفيف خفيف لزعانف كثيرة لا حصر لها. شبكة من الطرق الإسفلتية، وطرق محفوفة الأشجار تشبه أشكالها المتحجرة التي ستظهر في المستقبل، صليب القديس "فاتسلاف"، وحدائق النباتات، والبيوت الزجاجية، والمبنى الرئيسي، وإسطبلات الخيل فوق الحديقة. كل هذا اختفى في عتمة خفيفة تحت طبقات الرمل، في سحابة العوالق، وفي خيام الطين المنفوخة والخاوية.

بدأت "إيما" تستيقظ داخل الثعبان. التقطت أنفاسها بصعوبة وكأن خياشيمها قد انفتحت فقط لفترة وجيزة، وقالت:

يا عزيزتي "ديتا"، أردتُ أن أهرب للمرة الثانية. لكن الأمور سارت على عكس ما تمنيت. لا حيلة لي فيما حدث. حقيقي! امرأة غبية من القسم العلويّ أطلقت المياه في صندوق المرحاض. غدًا هو يوم الزيارة، يوم الزيارة الأول لنا. سنتقابل بعد كل هذا الوقت. لكني لن أكون من ستتحدثين معه، ومن تضعين يدكِ عليه. لقد ابتلعت جبال من الثلوج على مدى أعوام، حتى صارت تلك الجبال. ليتكِ ترين ما أنا عليه اليوم! جدائل أهداب متشابكة، محارة برتقالية، وشفتا قوقعة تنفتحان وتنغلقان، سمكة حبّار ضائعة وسط سحب أعيش فيها. فُطر يتكاثر وسط الظلمات – كم أتمنى أن تكوني معي هنا، ترقصين معي. لا تضحكي. أنا جادَّة! ترقصين معي وسط أمواج سعادة ثُعبانيّة، وعلى سلاسل ظهره المزبدة مثل كؤوس الشمبانيا. أسمعكِ وأنتِ تتذمرين، وتقولين: توقفي! تعرفين أني لا

Twitter: @ketab_n

أحب المبالغة. هل نسيتِ أني لا أجيد الرقص؟ السبب يا حبيبتي هو أنكِ لا ترين من عندك ما يحدث هنا. أعرف أنكِ من اليابسة التي تعيشين فيها – لم أنسَ أيضًا أن لديك سطح ماء في مكان ما، سقف العنصر الخامس، ولا يوجد فوقه سوى القحولة–من تلك اليابسة لا ترين جسدي الجديد. أتتذكرين كيف ارتبكتُ في أولى لقاءاتنا؟ ربما تبدد ذلك التشويش لو أنني استطعت وقتها أن أسبح إلى داخل المقهى على شكل ثعبان. الشكل الذي وجدت فيه المسكن والمأمن. تحت جلد سمكة جميلة أطارد سِرْب ومَضات زرقاء وأدفعه إلى الظلام حتى يتشتت. فنلتحف الماء أسفل القبة السماوية، ونأوي إلى بعضنا، يحتوي كل منا الآخر، وتلتئم كما تلتئم ثنايا الأكورديون الرحيم الضخم.

انتهت "إيما" من مخاطبة الأمواج، وفي كل لحظة يظهر لها وجه "ديتا"، وسرعان ما يختفي في أعماق المياه بابتسامة رقيقة. ثم يمر بها سرب أسماك البوري الذهبية، فسال الدمع من عينيها، وصدر من داخلها صوت طرقة قوية، وكأنه بندول ساعة سماوية ثقيلة ومتوهجة مثل النجمة.

فكّاها. انغلقا في المرة الأولى على الخواء. وفي المرة الثانية على سطح الماء. فغاصت في أعماقه. هل يصل إليها أحد وهي في تلك الأعماق؟ هل ما زالت هناك سطح؟

بدأت السعادة من حولها تأخذ لون الدم، مثل سمكة الحبّار التي تاهت من قبل وسط السحب. أخذت "إيما" تترنح باستسلام وسط غمامة دمها، وفي كل خطوة يتناقص صوت الفرقعات "طكّ". صارت لا تعرف إن كانت سمكة أم إنسانًا. وعلى صوت اضطراب أسنانها الذي لا يتوقف صارت في أحلامها قوقعة ملتصقة بحجر، أو صارت صدفة يراها أحدهم في نومه.

Twitter: @ketab_n

أخيرًا لفظها الموج، أو ما تبقى منها، وألقى به على الشاطئ. استقرت وسط أعشاب البحر بين الحياة والموت. لم تتمنَّ أكثر من أن يكون سريرًا عاديًّا في القسم السفليّ بالمستشفى.

مرّ فوق الشاطئ رجل ما، وأخذ يعبث في رواسبه بعصي من الخيزران. مال على "إيما"، وراح يقلّب ذلك الشيء الغريب في يده للحظات، ثم حملها معه إلى البيت، ووضعها وسط مجموعة مقتنياته التي أسماها "هدايا البحر".

***

- صباح الخيـيـيـر!

اندفعت كل المياه فجأة وبقوة إلى كهف صغير، وبالكاد سقطت فيه. لكنها لم تنزعج. فقد كان الجو هناك دافئًا، وقلب أمها ينبض قريبًا منها – اعتقدت في البداية أن العفريت يدق على الطبل في الحديقة.

لم تقدر على أن تتحرك من مكانها أو تفتح عينيها. وكأنها انسلت أثناء الليل إلى جسد غريب عنها، لا تستطيع الآن، بعد أن بدأ اليوم، أن تتحكم فيه. إنها "ديتا". أطلقت "إيما" الحمامة من فوق السفينة، فعادت إليها وهي تحمل أربعة أحرف خضراء.

- أين السيدة "تشيرنا"؟ هل ما زالت نائمة؟ ليذهب أحدكم ليوقظها!

بسطت ذراعي وأنا بين النوم واليقظة. فضلًا عن الغارات وحصانه الأبيض كان "رامبو" يحب أخذ عينات الدم. رفعت عيني نحو السقف كي لا أرى إبرة الحقنة. وجدت فيه شقين متوازيين يتعذر تمييزهما، وصفّين لسكة حديدية بهما عوارض خشبية خفيّة. يتقدّم فوقهما قطار من أحد الأركان فوق النافذة، قطار صغير يشبه قطارات الأطفال الصغيرة. كان أبي يتصفّح

Twitter: @ketab_n

أحد المجلدات السميكة، ثم يضع خطوطًا تحت الجمل بقلم يمسكه في يده، و"ريبكا" تهزّ قدميها في الهواء، فلم تكن قد كَبِرت بعد لتصل الأرض. وحذاؤها الأبيض يتلوّى هنا وهناك. كنا في طريقنا لزيارة أحد القصور.

قالت وهي تدعونا إلى المشاركة في لعبة عرفتها أسرتنا:

- هيّا بنا نلعب على حرف (خ)! أريد أن ألعب لعبة (خ).

أجابها أبي:

- ها أنتِ تلعبينها.

- كيف هذا؟

- بالله عليكَ! أريد أن ألعب لعبة (خ)!

اشتدّ حماسها، وقالت:

- أخطبوط خبط خيوطه!

لم يتردد أبي للحظة، فقال:

- أخبرني خبرًا آخر!

صاح قلب الأم ومعه الحقيبة بصوت الكورال يقول:

- سأراك اليوم. أنتَ و"ريبكا".

تضعون على الطاولة قطعة الشكولاتة وبعض أعداد مجلة نسائية أستقي منها وصفات طعام، وكريم مُزيل للشعر، وإرشادات مضحكة للتعامل مع الرجال. النساء تدفع يدي بعيدًا لأن فيها كلمات متقاطعة وكثير من الاختبارات المُبهِجة، وتحضر لي "ريبكا" كراسة جديدة بمربّعات. لأن "بوبل" كاد يملأ

Twitter: @ketab_n

الكراسة القديمة بكتاباته، ونزع أشخاص من الغرفة المجاورة ما تبقى فيها من صفحات لكي يرسموا عليها لعبة إكس-أو*. تمدون أيديكم فوق الطاولة مرورًا بي فأشتمّ خليطًا من الروائح يروق لي. أحد العطور التي اشتريتها يومًا. شمس ورياح أحد أيام شهر مارس القاسية. منذ متى وأنا هنا؟

لن أهتزّ، ولن أقرض أظافري، ولن أقاطعكم وأنتم تتحدثون. لن أبكي، ولن أضحك كالمجنونة، أو اشتكي من شقيقاتي، أو أتردد كثيرًا على المرحاض. لن أفعل – ببساطة طالما أن من تقع عليّ عيناي لن تكون "فلادينا" الفيروزيّة، فستكون الزيارة ناجحة.

– يا سيدتي، أنتِ في ورطة كبيرة. نحن جميعًا في انتظاركِ. وجه كفوّهة بركان يشتعل من فوقي وكأنه نجمة تبعث على السخرية، يتمنى لي بكل سعادة كل ما هو سيئ في يومي هذا. ربما أن "فلادينا" خبأت طبيعتها الفيروزيّة بقميص ناصع البياض، وسروالٍ ورديّ. هالني شكلها عندما نظرت إليها، إلى تلك الكتل البشرية التي لا أعرف من أين جاءت بكل تلك الكراهية نحوي. الكتل التي حاصرتني بأعمدة متصلبة من كل جانب، واعترض سبيلي إليكم.

تطلّعت إلى جسدي وإلى يدي بكل دهشة: كانت مُجعّدة وكأنني قضيت ليلتي كلها في الماء.

أخذت أترنح كي أصل إلى الدهليز. لفيف من النساء اللواتي يثرثرن منذ الصباح يقف صامتًا، ومنتظمًا، وحزينًا، كأنهن في مسيرة جنائزيّة. كان وجه "كارابينا" الوحيد الذي تلفه الرقّة. ماذا حدث؟ هل كل هذا بسببي؟ هذا الصمت المطبق، والثقيل. الصمت البنيّ مثل حساء المستشفى المعروف.

---

* لعبة يتناوب فيها لاعبان وضع دوائر وعلامة إكس في تسع مربعات مُوزّعة 3×3 – المترجم.

Twitter: @ketab_n

ابتهجت "كارابينا"، وقالت:

- أخيرًا! يا سيدة "تشيرنا"، ناقص اثنين، ناقص أربعة.

لم أفهم معنى لهذه الأرقام. خفت من أنها تنتظر مني نتيجة ما.

- إنه نظام النقاط.

همست "ماريا"، تلك الفتاة التي التقيت بها مساء اليوم – وكأنه منذ زمن بعيد، من العصور الحجرية -وكانت تنفث دخان السجائر في فتحة الحائط بالمرحاض. يجب أن أبتعد عن جميع الأحداث والوجوه هنا فورًا قبل أن تصل إلى ذاكرتي. تومض، ثم سرعان ما تختفي مثل الثعابين التي يمكن أن أتجسّدها والتي لا يمكنني أن أمتلكها على الإطلاق. أنت تعرف عما أتحدث يا شقيقي. وعندما أعود ربما ستجد البحر في رسائل البريد الإلكتروني.

كلهم في النظام مهووسون بجمع النقاط. يقفون في كل دقيقة من أوقات فراغهم أمام لوحة الإرشادات، ويتفجرون في البكاء كلما رءوا أن عددها يتناقص. فعلى أساس النقاط يوزعون الطعام، ويذهبون إلى المرحاض، ويحيكون الملابس، ويضعون الخرزات وكأنها الفاصل بين الحياة والموت، فقط كي يكون لديهن ما يكفي لأسبوعين آخرين. وعندما توزّع الأميرة...

- أية أميرة؟

- أنتِ هنا أول مرة؟ عندما توزّع الأميرة الأدوار يوم الأحد لمهام الأسبوع المقبل...

- الأدوار؟

- كثير من الصياح وكأنكِ في صالة المزادات.

Twitter: @ketab_n

وبينما "ماريا" تصيح في أذني بصوتها الأجشّ أرى كل النساء تقفن في ذلك الحشد البليد الكئيب: "دانا" التي راقها مذاق طعامي، و"مارتسيلا" بجسمها المستدير، وكرة الجولف التي وضعوها لها بدلًا من قلبها، والملكة البيضاء التي عجزت عن أن أحررها من قيودها، تقف في كامل هيئتها وزينتها، كما هي دائمًا، و"فيرونيكا" الرقيقة، والقديسة الساذجة "كاراميلا"... امرأة واحدة لا أراها بينهن. مررت بعيني سريعًا على الحشد مرة أخرى. بلى. إنها ليست بينهن.

- ماريا...

أدارت "ماريا" نحوي عينيها البريئتين اللتين توارتا خلف غطاء رأسها، ثم أمسكت "بني" فجأة من يدي، تحكم قبضتها عليّ وكأننا لم نلتقِ من قبل. أتطلع حولي سريعًا لأري إن كان أحدهم يرانا. "فلادينا" تقف خلفي. تقف خلفي، وترشق سهام ناظريها في مؤخرة عنقي.

تصيح:

- أنتِ أيتها المثليّة الحقيرة، اتركيها وشأنها، وإلاّ...

اختفت كلماتها الأخيرة وسط هدير يعلو. تتجه وجوه السيدات المندهشة ناحية النافذة المفتوحة، شيء ما يتذمر خلفها، ويهدر. صوت زجاج يتكسّر على الأرض التي ترتجف وكأنها على وشك الانفجار. أرى ساعة الحائط تتأرجح فوقه، وأشاهد زوبعة تهبّ، وتعصف بالقناع على وجه "كارابينا". أرى العاصفة وقد حولتنا إلى مجموعة من التماثيل. تماثيل متحجرة، بتعبيرات فاترة وباردة، وأعين جاحظة من الدهشة، تماثيل تشبه نصبًا تذكاريًّا مُشوّهًا لضحايا الإدمان.

تجمّدت قبضة "ماريا" بعد أن كانت منذ لحظات رَطبة وممتلئة بالحياة.

Twitter: @ketab_n

قالت:

- يا إلهي، يا لها من ضربة! هل ستسقط هذه الطائرة المروحيّة فوقنا أم ماذا؟

بالفعل كان الأمر وكأنها قد هبطت فوق سقف المبنى. وأخذ الهواء يهتزّ داخل الدهليز وكأننا في الصحراء. سقطن الساعة فوق الأرض.

- يا أعزاءي السيدات، اهدأن! فما هي إلا...

لكن الملكة البيضاء قاطعت بنشاط غير متوقع "فيرونيكا" التي لمعت عيناها بالحماس وكأنها نصل سكين. ثم أطلقت أمرًا واضحًا خاليًا من أية عاطفة، وقالت:

- إنها الحرب.

يا إلهي، ماذا حدث؟ أشكال من الجبس، وتماثيل حجريّة، وحشد ساكن يتحول كله فجأة إلى قطيع ثائر. يتساقط بعضهن على الأرض غير متأثرات بدعوة "كاراميلا".

- يا أيتها الأخوات! اتلوا الصلوات، واستغفرن ربكن، وهو سيعفو عنكن!

غالبية النساء يدببن بأرجلهن فوق الأرض، ويخبطن فوق الطاولات، ويصِحن بابتهاج جنونيّ:

- الحرب، الحرب!

كيف يجتمع الغضب مع الطيبة أيتها المسكينة العاجزة "كارابينا"! إن مثل هذا التمرد الصباحي لا تستطيع أن تجابهه دبابة اسمها "رامبو".

Twitter: @ketab_n

لم يلحظ أحد وسط نوبة الغضب هذه أن هدير الطائرة بدأ يبتعد تدريجيًّا. وما زلت أقف مع "ماريا"، لا نبرح مكاننا. تمسك بيدي بقوة وسط فقاعة من الصمت المطبق.

"الحرب". واضح بالطبع أن هذين المقطعين اتخذا اللون الفيروزيّ. لون قويّ لا يهزم، أتسمعين؟ من الجائز جدًّا أن تلك المروحية قد تحطّمت فوق المبنى فقط من أجل أن تُبْطِل مفعول سُمِّكِ. والاحتمال الأقوى أن من قادها كان جنديًّا من جنودي. قَنَّاصي الغيور الذي يحميني هنا ويدافع عني من بعيد. قَنَّاصي الذي رأى أن فتاة غريبة لا أعرفها تمسك بي.

كنت أعرف أن لقاءنا اليوم لن يكون مجرد لقاء عابر. أنا أعرفكِ جيّدًا، وأعرف ماذا تشبهين: مكانًا من الصمت المتردد، والزجاج المتحطّم، مكانًا للمواساة الجوفاء، حربًا، ومروحيّة، لا من الدراجة.

أخيرًا قاعة الرياضة البدنيّة. انزوت "ماريا" على الفور في أحد الأركان، وصنعت لنفسها عُشًّا. انكبّت على نفسها في المعطف وكأنها في كيس النوم، واستسلمت للنوم. أقف بجوار "مارتسيلا" التي أخذت تهزّ يدها بسعادة وهي تعيش هاجس التدريب، وتقول:

- يا "مارتسيلا"، أين "جيزيلا"؟

لم ترد. تظاهرت وكأنها لم تسمعها. لم تجبها. أخذت الأم تريزا – ومن غيرها ليفعل ذلك – تقودنا في التدريب، مقابل ستّ نقاط على الأقل.

- يا "مارتسيلا"...

- من فضلكن أيتها الأخوات، اخفضن من صوتكن! أنا أعرف أنكن في حالة انفعال مما حدث... من ذلك الـــ.. لذلك أقترح عليكن أن تقمن ببعض التأمل والتدبّر بدلًا من التدريب.

تُشغّل جهاز الموسيقى، ثم مع أول نغمة تنطلق من إحدى آلات النفخ الأسترالية أو الله أعلم ماذا تكون، ربما من قطعة خشب شامانيّة، مع أول نغمة ثابتة لا تتغير ولا تتبدّل، اتخذت وضع اليوجا المعروف بكل رشاقة. ثم سقطنا جميعًا معها على الأرض بكل استسلام.

همست أنا من جديد:

- يا "مارتسيلا".

أدارت "مارتسلا" نصفها الأعلى بكل صلابة وقسوة لتجيبني بحدَّة صامتة:

- نشابك الأصابع، ونصل أصابع الإبهام ببعضها. ومع كل شهيق يتدفق الأمل، ومع كل زفير يخرج من أنفسنا الشرّ الذي تسببنا فيه لمن حولنا.

لهذا السبب تجمع الحشد في الدهليز. تشابكت الأصابع، والتصق الإبهام بالإبهام دون مقاومة. أراه وهو قادم إليكِ من منطقة صمّاء، يقترب منكِ بخطوات متأنقة، أرى صاحبكِ وهو يرتدي حلة سوداء وقميصًا أبيضَ، ومن تحتكِ كتلة الرمال الناعمة الدافئة التي طالما حلمْتِ بها. لم يعد لديكِ الأيادي ولا الأقدام، ولا الجذور، ولا الأغصان عديمة الجدوى. فقط جلد ثعبان رائع يليق بكِ. وفي مقدمة أسنانكِ سنتان ثعبان جميلتان.

لو أنني نهضت من مكاني، وذهبت نحو نافذة القبو للمست بيدي الأرض التي تجمّدت من البرد. أخبئ فيها أصابعي، وأدس حفنة من الطيف في فمي. لكن لما أفعل هذا؟ أتحرك إلى الأمام وإلى الخلف. حركة قد تغري راقصًا

Twitter: @ketab_n

مجهولًا. يعلق خلف النافذة فجأة كيسًا بلاستيكيًّا صغيرًا. تطيح به الرياح إلى أعلى فلا أراه للحظات، ثم تعيده مرة أخرى خلف النافذة. أتابع ذلك الرقص الفاتن الممتلئ بالصعود والدوران، وجناح شفاف يلامس الزجاج، ثم يصدر حفيفًا وسط موسيقى لا أكاد أسمعها، وفجأة يعلو في الهواء وسط دوامة الهواء. يظل يطوف فوق الأرض، ويتلوّى. يبدو الآن مثل مظروف صغير. وعندما اعتقدت أنه طار واختفى إلى الأبد أراه فجأة يلتصق بالنافذة وكأنه يبتسم، وكأنه أراد أن يلهو معي. إنه بالفعل يبتسم ويلهو معي. هذه الروح، وهذا الخطاب الذي سُطّر فقط لكي تراه عيني.

أشاهد الآن من خلف النافذة تنّورة امرأة. أرى النصف السفلي من جسد سيدة ما. تعثّر الكيس بكعب حذائها، فانحنت. تفحّصت وجهها للحظات. حررت الراقص المطعون، ثم ألقته جانبًا فاختفى. وبعدها مرَّ بالنافذة رداء أبيض، ثم معطف أسود. أحاول أن أبني تصورًا كاملًا من أجزاء أراها مثل خبراء الآثار. وظهر الآن شخصان بأقدامهم وتوقفا خلف النافذة. أيديهم ترتجف بوضوح وهي ملتصقة بجسديهما بقوة. التوتر يجلجل من خلفهما مثل علبة من الصفيح يجرونها خلفهما.

صرت أرى العالم الآن من نصفه السفليّ، الجانب الغامض الخفيّ. فكّرت لو أنني تعرّفت على أقربائي من أقدامهم. تمنّيت لو أن من هم الآن خلف النافذة أن يكون نصفهم الآخر العلوي الخفيّ من بين أهلي.

وقفت فتاة صغيرة في الخارج. ضغطت فوق الزجاج بكفيها، وهي تتطلع إلينا بفم مفتوح. سنحاول أن نحاكي حركات "كاراميلا" التي تشبه الثعبان. لكنها كانت تقوم بحركات الأيروبيك مع نفسها بكل نشاط. ضحكت الفتاة كالمجنونة وهي تدبّ فوق الأرض بقدميها الصغيرين، وتجُرّ خلفها شخصًا، لا يمكنه أن يرى ما تراه. لوّحْت لها بيديّ، وبقينا نتبادل التحية، وكلانا تنظر

إلى الأخرى. نتبادل الإيماءات وحركات الوجه. انضمت إلينا "ماريا" التي كانت منزوية في عُشّها.

- "اسمعي. إن المثليات لهن لحظات السعادة الخاصة بهنّ.

لقد نسيت تمامًا أن "فلادينا" تقف خلفي. المكان الطبيعيّ. لن يدهشني لو أنها الآن أمسكت بشعري، وقرعت رأسي فوق الأرض. لكني بدلًا من ذلك سمعت صوت "دانا" المنخفض الخشن وغير المبالي وهي تقول دفاعًا عني بأعلى درجة من صوتها:

- كفاكِ إزعاجًا لها، مفهوم؟ ألا تعرفين أنها في القسم العلوي أوسعت الأم تريزا ضربًا؟

ساد الهدوء خلفي. هدوء متناهٍ جعلني أكاد أتقيأ مما تفعله السيدة الفيروزيّة.

- اسمعي يا "ديتا"! باقي سبع ساعات وعشرون دقيقة حتى يفتحوا بوابات هذه البالوعة العتيقة، بوابات حوض السمك هذا المغطى بالطين، وأنتِ هنا تقفين خلفي. لن أخبركِ يومًا كَمْ كان صعبًا، وكم كانت لحظة وجدانية عديمة القيمة عندما تمكنت أخيرًا من أن أحصل على تذكرة دخول لكبار الزوار.

تم قبولي في النظام وقتها بكل نجاح، لكني الآن أدفع الثمن. نهضت "إيما"، وأطفأت جهاز الموسيقى. وأخذت تعبث على عجل في الأسطوانات حتى عثرت على شيء من شأنه أن يبعث الحياة في غرفة التمرين هذا التي كادت تموت. لم تستطع أن ترفع الصوت إلى أكثر مما كان.

- أنت تَسْعَد بالمآسي...

بدأت الأشباح التي نهضت مع الموسيقى تتحرك من مكمنها شيئًا فشيئًا:

Twitter: @ketab_n

- نعم، أنت تحب ذلك. تَسْعد عندما يُنهِي عمال النظافة يومهم بذلك الضجيج....

أخذت الأم تريزا تحتج، وتقول:

- والأرواح المنثورة فوق الأطباق تبدو وكأنها مُعسكر...

لكنها يا للعجب، واهية للغاية. صاحت إحداهن:

- هذا جيّد! ألا يمكن أن ترفعي الصوت أكثر من هذا؟

- سأحمل نفسي، عبدي، أنا عبد نفسي...

وأخيرًا علا صوت الكُورَس، وأخذ الجميع يرقص، ويحوم في شكل دائرة مُضحِكة بصالة التدريب. فجأة لم يعد هناك فرق بين من هو في الثامنة عشرة، ومن هو في الخامسة والستين. "ماريا" تثب وكأنها في حفل منزلي، و"مارتسيلا" تأتي بحركات رقصة "البولكا" على أنغام الساكسفون. لكن "إيما" لم ترقص. بل صعدت فوق عجلة التدريب، وانطلقت في العَدْو.

اجتهدت وهي تركض وكأنها مسألة حياة أو موت. شعرت وكأن نصف قرن من حياتها قد مر سريعًا. رأت في البلاد التي تجري فيها عددًا لانهائيًّا من المشاهد واللحظات والأماكن. لكنها كانت تمرق سريعًا، فلم يبق منها في ذاكرتها سوى القليل: أبوها يعبث في كومة من لُعبها القديمة. "ريبكا" التي تهرب من البيت بكل تحدٍّ، ثم تعود إليه مجددًا بكل إذعان. وأخيرًا رأت من بعيد على يسارها قلعة شامخة. حصنًا بَناه "داليبور" لزوجته ناكرة الجميل.

عنكبوت فوق عجلة التمرين. ضحك الجميع، وقالوا: اقفزي! فتقمصْت بكل سهولة ودون أن أدري دور المهرج. جعلتني ضحكاتهم ألعب دور المهرج في بلاط ملكيّ حزين.

Twitter: @ketab_n

وضعوا أمامنا أوراقًا مربعة بيضاء، وعلى الطاولة صناديق ممتلئة بأقلام للتلوين، وأخرى من الشمع، وأصابع الطباشير. وكأننا في دار حضانة. كلّفونا اليوم كنوع من العلاج بأن نرسم لوحة حول موضوع "المرأة في داخل كل منا".

علّقت "دانا" بغضب قائلة:

- واجب تافه!

وغطّت الورقة برموز تجريدية بذيئة، وملأت "مارتسيلا" لوحتها بحديقة غَنّاء، بها كلاب وأطفال وأحد البيوت. انتصب فوق البيت طبق قمر صناعي، ورسمت بجوار المنزل حمام سباحة مستديرًا، كالعادة. واستهلكت في تلوينه إصبع ألوان أزرق كامل.

- كم الساعة الآن؟

لقد أخذوا ساعة الحائط أثناء الغارات الصباحية، مَلَاكي الذي لا يكفّ عن الحركة.

- تسألين نفس السؤال للمرة الخمسين. كل هذا بسبب الزيارات، أليس كذلك؟

وضعت القلم فوق ورقة فارغة.

- يا له من أمر أحمق. أقصد هذا الواجب. بمَ تنصحيني أن أرسم؟

- ارسمي مثلًا ثعبان البحر.

أخذ ت ترسم، ورغم ذلك قالت:

Twitter: @ketab_n

- لم يكن: الثعبان في داخل كل منا أيتها الغبية. يااه... إنها تبدو مثل... "دانا" ترسم ريشًا!

قام عامل الصيانة بتغطية مكان الزجاج المتهشّم في ركن الدهليز، إحدى مخلفات الحرب، وكان وجهه متورّدًا حتى أذنيه. ولم تكفّ الملكة البيضاء عن الدوران حوله.

- اسمع يا أسطى، أنا سعيدة وأنا أراقبك وأنت تعمل! أصابعكَ ماهرة للغاية، وكذلك طريقة إقبالك على العمل!

أعرضت الأم تريزا بكل كبرياء وفخامة عن تلك المشاهد المخزية وعن الأحاديث التافهة. من المؤكد أن جسمها الكوكبي قد سكن الآن الأعالي الخالية من رائحة المُطهرات، ومن آثار مريضة منتصبة عند الطاولة وكأنها كومة صماء من خرقات بالية.

غطّت ورقة الرسم بكفّيها. لاحظت أنها لم تستخدم سوى اللون الأصفر.

حاولت "مارتسيلا" أن تنقذ عامل الصيانة، فنادت، وقالت:

- يا سيدة "إيرينا"، تعالَي انضمّي إلينا. فأنت لم ترسمي إلا شبحين!

أجابتها "إيرينا" باستياء:

- شبحين؟ أين هما هذان الشبحان؟ إنها ولديّ. أحدهما يدْرُس بيولوجيا الجزيئات في جامعة هارفارد، والثاني يلقي محاضرات في تاريخ القرن العشرين في جامعة...

أجابتها "مارتسيلا" بخشونة مباغتة:

- من وجهة نظري أنتِ لم تلدي سوى قديسين. لكن هذان مجرد شبحين

Twitter: @ketab_n

ألقت "فلادينا" حزمة من التيشيرتات فوق الطاولة، وقالت:

- انظروا ما لدينا! أوليس رجلًا غبيًّا. يقول إن علينا أن نرتدي هذه الأشياء

وأخذت تضع قميصًا وراء الآخر فوق جسمها. (جاك دانيالز)، (ياجرمايستر)، (فودكا فينلاندا)، (تيكيلا)، (فيرنيت شتوك). كلها ملابس دعائية.

تطلعت الملكة البيضاء إلى عامل الصيانة بحزن، وقد تركته يستدرجها، وقالت:

- أن "شريك" يتمتع بروح الدعابة.

- بل هو سِكّير كبير. إنه يعمل في مصنع (بوجكوف) للمشروبات الكحوليّة.

قال المهرج:

- عندي اقتراح!

ثم كتب كلمتين في الورقة: حلقة سيرك السيدات!، ثم أضاف:

- انتقوا منها أفضل قميص، بأفضل زجاجة، وبأحرف مقروءة جيدًا عن بُعد، والبسوه أثناء الزيارة غدًا.

هزّ المهرج رأسه حتى جلجلت الأجراس وسط الصمت المريب. وماذا لو أن كرسي العرش الذي جلس أمامه ليسخر قد ارتفع في السماء، فوق كل السقوف، ولا يمكنه الوصول إليه.

- لن تفعلي!

Twitter: @ketab_n

- بل سأفعل.

- سيخصمون من نقاطكِ.

لم أنبس بكلمة من باب الحيطة.

قالت "ماريا" وهي وسط أحلام اليقظة:

- فلتذهب الممرضات إلى الجحيم.

ثم أخذت قلمًا أحمر، ولوّنت به أنف المهرج.

التبس الأمر على الأم تريزا تمامًا، وفقدت انتباهها، لكني لمحت ما تخبأه: صورة ذهبية بالكامل للسيدة مريم العذراء، رسمتها بدقة كبيرة، وبتوفيق في تفاصيلها. تخرم من رأسها أسلاكًا عليها هالة مضيئة تشبه حمام "مارتسيلا". لا أعلم لماذا استرعت هذه الصورة انتباهي. وانتابني شعور سيئ وأنا أتخيلهم بعد لحظات وهم يتناولون صورة العذراء أثناء جلسة العلاج سلكًا سلكًا.

جلسة العلاج. حديث لا ينتهي. سيول من الكلام، وأنهار من الكلمات. حديث، وأحيانًا استماع، وكأنهما مصعدان ننزل بهما إلى الجُبّ. ثرثرة وهراء. نخبأ ما بداخلنا بالحديث، ونخفيه بلا طائل. فأخصائي العلاج النفسيّ يعرف ما خلف الكلمات، ومتى تحين اللحظة المناسبة ليجعلكِ عارية أمام الآخرين. يفكّ أزرار ملابسكِ، ويخرج مضمون الكلمات، يستقصي، فتفضين بما في نفسكِ، وتعترفين به، وتكشفين عنه. فتسيل دموعك وأنتِ تخرجين شظية متعفنة من الماضي. تتقبلين قواعد محددة، وتحددين بكل إذعان ملامح شوهها الآخرون. فتعرف السبب الذي دفع "مارتسيلا" بأن تنسى أن ترسم صورة زوجها وهو في جراج البيت. "دانا" رصّعت ورقتها بالريش، و"ماريا" غطت ورقتها بخيوط متوازنة من الدموع.

Twitter: @ketab_n

قال الطبيب الاستشاري:

- يبدو وكأنه حائط ما.

فكّرت "إيما" في أن بعض الناس يدفعون أموالًا مقابل هذا. وأخذت تراقب السيدة "إيرينا" وهي خائفة. كان "إيرينا" تتلقف كل كلمة ينطقها الاستشاري، وتنظر إليه من طرف بكل إعجاب.

كنا نتناقش بكل حرية في الرسومات، فتقدمت الملكة البيضاء، وقالت:

- كلا، إنه حائط. أعتقد أن "ماريا" أقامت سدًّا بينها وبين الواقع. إنها تخشى من أنها لن تستطيع مواجهته بدون المخدرات.

- إنه ليس حائطًا إنها دموع. وجدت نفسي أرسم الدموع بصورة جيدة، وشعرت معها بالراحة.

لكن لم يبدو أن "ماريا" كانت تشعر بالراحة. كانت تجلس بقلق فوق المقعد، وقدمها يهتزّ فوق أرضية الغرفة. فكّرت بسرعة في طريقة أساعدها بها قبل أن تتساقط من عينيها تلك الدموع المرصوصة فوق الورقة.

قالت "كارميلا" بلهجة تأمُّلية:

- ابتسمي! عندما تضعين هلالًا بجوار الآخر، تصبح الورقة مليئة بالابتسامات، وتنبعث نفس الشعور بالراحة. لكنكِ اخترتِ الدموع.

أضافت "دانا":

- صحيح. لكن الأمر ليس بهذه السهولة عندما يأتي أبوك لينزع عنكِ الأهليّة.

يبدو أن الأمور اختلطت عليهم جميعًا أثناء جلسة العلاج هذه. صحت في "ماريا" بقوة:

Twitter: @ketab_n

- كم الساعة الآن؟

- همّت من مكانها، ثم وضعت قرص الساعة أمام عيني مباشرة. توقفت قدمها عن الاهتزاز.

- عفوًا، كنت أستمع وأنتم تتحدثون إلى "مارلي". No woman, no cry . هذا هو كل ما في الأمر.

كنا نجلس في تلك اللحظة أمام النافذة على شكل دائرة في غرفة التدريب عندما توقف رجل ما، يحمل في يده حقيبة. لا أدري من يكون. بدا وكأنه يقف هناك، ويراقبنا. وهو بالطبع أمر غريب. من ذا الذي في مقدوره أن يراقبنا بنصفه السفلي المظلم الأعمى. فجأة أدركت أنها تلك الحقيبة الصغيرة... كانت المرأة التي تقف عند النافذة تمسك بيدها صندوقًا به قطة. وأن تلك القطة هي من يراقبنا. تتجول فينا بناظريها، في سيرك السيدات، في كائنات تجلس على شكل دائرة، ترصّع مثل الجواهر طوق العذراء الأصفر اللامع الذي وضعناه أمامنا فوق الأرض. إنها القطة التي كانت تراقبنا: قسمنا شِباك النافذة إلى قسمين، القطة تطلّ بأنفها من الصندوق.

رفع الطبيب الاستشاري المهرج من فوق الأرض. ولم يسمح لأحد أن يربكه.

- قناع.

- نعم، وضعته عندما كانت مضطرة إلى أن تتعرف على ميولها الجنسيّة.

- إنه هروب من المسؤولية.

- رغبة في البقاء في عالم الطفولة. ورفض مرحلة النضوج.

أمر يدعو للاحترام. أخيرًا فهمت السيدات ما ينتظره منهن.

حاولت "ماريا" أن تنتقم مني بسبب الساعة، فقالت:

- وهذا الأنف الأحمر، هل هو صناعيّ أم من كثرة شرب الخمور؟

لكن أحد منهم لم يضحك. ثم جاءت الخطوة التي لم أكن مستعدة لها أثناء لعبة الأقنعة الطفولية الارتجاليّة. أمسك الاستشاري بذلك المهرج من قدميه، وناولني إياه.

- هل تدركين أنكِ فشلتِ في دوركِ تمامًا كأمّ؟

أمسكت بالنافذة، لكن المرأة كانت قد اختفت مع قطتها.

- ابنتكِ تتصل يوميًّا بنا. إنها قلقة عليكِ. تقوم في الخارج بكل ما هو ضروري. ليس لديها وقت لتهتم بحياتها لأنها تهتم بحياتكِ أنت الآن. لقد جعلتِ منها أمًّا بديلة.

حسَن المظهر، وفاتن، وواسع المعرفة. قلّبت نظري في المهرج، بينما احتبس لساني عن النطق. كان المهرّج يقف فوق رأسه مثل تمثال اللاعب الرياضيّ أمام القسم. دارت العجلة في رأسي وكأن أحدهم قد أطلق طوقًا من فوق أحد المنحدرات. عدد لا نهائيّ من الأطواق المضيئة المصنوعة من الأسلاك تتدحرج فوق الأحجار، وتسقط في الهاوية. لكن ما دار في رأسي كان شيئًا مختلفًا تمامًا: "ريبكا" تتدرب على البيانو وتعزف موسيقى المسيرات التركية. كانت في العاشرة أو الحادية عشر من عمرها. جلست أنا بجوارها، وعندما أخطأت النغمة للمرة الخمسين لم أتحمّل، وصفعتها على وجهها. لم تكن تتوقع مني ذلك، وأنا أيضًا لم أتوقع أن أفعل ما فعلت. جعلتها تلك الصفعة تدور فوق مقعد دوّار أمام البيانو. ظلّت "ريبكا" تدور وتدور حول نفسها، وتئنّ من حولي بصمت واستسلام، وعجز عن فهم ما يحدث. قدماها عالقتان في الهواء طوال الوقت.

Twitter: @ketab_n

أضفت قائلة:

- لقد فشلت في أدوار أخرى.

لكن الطيب الاستشاري كان عنيدًا، ورفض أن يأخذ جزءًا من ذلك الذنب ليعطيه لشخص آخر. كيف استطعت أن أفعل بكِ هذا؟ أُلقي بكِ فوق عجلة الموت، وأحبسكِ في طبلة يدق عليها عفريت بكل سعادة؟ كان عليّ أن أعرف أني لو جعلتكِ مرة تدورين ستظلين هكذا إلى الأبد، ولن تكون هناك قوة في مقدورها أن توقفكِ.

أردت أن أغرق في حمّام "مارتسيلا" الأزرق. "لا تفعلي هذا، فالجثة المنتفخة قد تفسد لها الصورة". دخّنت السجائر مع "ماريا" مرة أخرى في المرحاض. لم أهتم إن أمسكت بي المرضة. لم يعنيني أن أخسر من نقاطي خمسين أو عشرين أو عمري كله، وعمر "ريبكا" أيضًا. لم يكن ممكنًا أن تكون الفجوة التي ننفث فيها الدخان هي نفسها الفجوة التي كانت أثناء الليل. فهذه المرة كانت خاوية مثل سلة فوق ظهر امرأة عجوز صمَّاء، لا تعرف أين تذهب.

- لماذا لا تسأليني عن الساعة؟

في العصور القديمة، عندما كان شقيقي "بوبل" فارغًا، أكثر خواءً من حبّة جوز العدم الفارغة قرر أن يملأها بصور الآخرين. هام على وجهه في الشوارع ليلًا ونهارًا، يسأل كل من مرَّ به صدفة: كم الساعة الآن. تساقطت في لحائها من أجوبتهم إيماءات، وتعبيرات وجوه، ونغمات الصوت التي اتخذها ملكًا له. لكن من الجائز أيضًا أنه فعل ذلك لشعوره بالوحدة.

لم تحمل تلك الرأس الثانية التي تسكن رأسي الدم وتنشره، بل نشرت الزمن الذي تبقى لي قبل أوقات الزيارة. لماذا عليَّ أن أسأل؟

Twitter: @ketab_n

تزاحم الجميع أمام المرآة. أرادت كل منهن أن يراها الآخرون جميلة، أو على الأقل أن تضع قناعًا تخبئ تحته، قَدر الإمكان، ذلك الإرهاق الكبير، والعجز الذي امتصّ قواهن مثل دودة طفيليّة، وخرّب وجوههن. رحن يتبادلن الملابس، وينسقن هندامهن. تحامقن مثل فتيات صغيرة يعبثن في دولاب ملابس أمهاتهن.

نهرتني الملكة البيضاء، وقالت:

- يا سيدة "إيما"! لا ترقدي هنا هكذا كجثّة لا روح فيها! فبعد لحظات ستلتقين نصفكِ الآخر الغالي! ما رأيك في هذه القطعة الـ "كاچوال"؟ ستليق بكِ بشكل مذهل!

مفتاح الكهرباء. أديره وأفصل الكهرباء في غرفة وراء الأخرى، وأنزع الحقيقة طبقة وراء الأخرى كما أفعل مع قشور البصل، ثم أرصّها من جديد. أغلق الحديقة، والمدينة والعالم كله، وأصفع الباب خلفي، ثم أنطلق على الطريق. أنصرف، أسير بخطوات واسعة، أهرول، ألهث فوق التّل، وأهرب. أجتاز هذه الأرض. فخلف الأفق أفق آخر. أواصل إلى ما لا نهاية. نبع ينبثق من الأرض. رِضابكِ. الحياة. أَلِجُ إلى ريشة أحد النسور، وأحلّق معه وسط الرياح العاتية فوق سفح جبل "كايلاس".

لقد أحرقت جلد الثعبان الذي أخذته منكم رغم كل الأوامر والمحاذير: لو أني لمستكم اختفوا إلى الأبد، وكأنكم لم تكونوا. يا "إيما"! أو تعالوا وأنتم ترتدون قناع الـ "فايكينج"*. يا "إيما"! اظهروا هنا على أعتاب البيت وأنتم محصنون بسترات المحاربين. تجلّوا في شكل صخرة، تعالوا وقد تحولتم إلى نهر هائج ممتلئ بكتل

* قرصان إسكندنافي – المترجم.

Twitter: @ketab_n

الثلوج، وصوت تصدعات عالية. اطفوا فوق السطح، وتقدموا إلى هنا، إلى الغرفة وأنتم في ملابس رجال الفضاء، أو ترتدون سترات خضراء على الأقل.

"تتعلمين شيئًا على الأقل أيتها الغبيّة!". صار كل شيء مشوشًا وكأنني خلعت نظارتي، وكأن كل الأحداث بدأت تدور تحت الماء. أعطتني "ماريا" مُشطًا. آه، نعم، يجب أن أتعلم كيف أتعامل مع هذا المُشط. أمسكته بتعجّب واحترام. هذه الفرشاة الخشبية الجميلة. هذه الرافضة التي توجد حيث اختفت كل الجسور. سوّيت شعري بكل استسلام، ثم أخذت من السيدة "إيرينا" قميصًا بشعًا لا يليق إلا بمُهرّج، رصّعت فوقه كل رايات العالم، وكأنهم حاكوه لتقديم الفقرة التالية.

تزاحمنا عند أحد الأبواب المفتوحة، لأنهم أغلقوا أمامنا الدهليز الذي يقود إلى المدخل الرئيسي.

صاح أحدهم بكل حماس:

- إنهم قادمون! وبدأ الفنانون ومروضو الدُّببة، والراقصون على الحبال يدخلون حلبة السيرك. أول من ظهر كان رجلًا ضئيل البنية، مستدير الجسد، يختبئ من نظرات النسوة الفضوليّة خلف باقة كبيرة من الزهور. لم تتحمل "مارتسيلا"، فانطلقت نحوه.

- إلى الخلف!

يبدو أن ذلك الصوت الهادر كان قادمًا من السماء. فقد كان يقف في قبو الأوركسترا العلوي مدير السيرك شخصيًّا، "رامبو". وقف كي يسيطر على جميع العروض البشرية والحيوانيّة، وكي لا يفوته شيئًا مما يحدث من تحته فوق نشارة الخشب.

تدفق على القسم زوّار آخرون على وقع أصوات الأطباق المعدنيّة. أخذ موظفو الوردية أمام غرفة المرضات يسجلون أسماء الزائرين ومن يزورونهم. شباب يافعة تحمل الزهور، وفارسات السيرك العجائز الذين اختفت تجاعيد خلف طبقة من المساحيق. آباء وأطفال، أمهات وأزواج، وعُشّاق. دببة يحملون آلات نفخ نحاسية. كل الأقارب يحملون صناديق لتبريد الأطعمة مكتظة بخيرات أحضروها من بيوتهم.

ظهرت في الدهليز سيدة أنيقة يصعب تحديد عمرها. وعلى جانبيها شابان صغيران يمسكانها من يديها. توقفت السيدة في منتصف الدهليز.

يا بلانكا! نحن هنا! يا بلانكا!

نادت وهي متوجه نحوي. لم أفهم ما تفعله. لا توجد هنا امرأة بهذا الاسم. أدركت فجأة أن "كاراميلا" تقف بجواري مباشرة عند أحد الأبواب المفتوحة. الأم تريزا. نعم، نعم، اسمها الأول "بلانكا فوسيدالكوفا"! لديها توأم! يا للعجب!

في تلك اللحظة حدث شيء لم يتوقعه أحد ممن كان يتابع الموقف. عندما لمح الولدان أمهما انفجرا في البكاء بدلًا من أن يتوجها نحوها، وبدءا ينصرفان نحو المدخل. وقفنا جميعًا متجمدين في أماكننا. لم أرَ في حياتي شخصًا يشحُب وجهه. لكن الحياة اختفت من وجه "كارميلا" وكأنها فقدت لترًا من دمها. وقفت متجمّدة على هيئة لاعبة باليه. رأيتها من جديد وقد اختفى حماسها كما تختفي بقايا الطعام في الأطباق، كما تختفي سلّة الخبز في جيوب معطفها الكبيرة عندما تتأكد من أنَّ أحدًا لا يراها. لا أعرف ما الذي جعلني أتساءل إن كانت قد أنهت مقالتها التي كانت تكتبها حول المعاناة.

Twitter: @ketab_n

ربما ليس هناك الآن... تمنيت ذلك على الأقل، لكنه كان هناك: لقد شاهد "رامبو" الذي يقف فوقنا كل شيء. بابتسامة على شفتيه رفع ذراعه وكأنه الهراوة، وهنا صمتت الأوركسترا، وتوقف الحديث، واختفى صهيل الخيل.

لم أكن في حاجة إلى رؤية المزيد من هذا السيرك. عدت إلى غرفتي – حيث والدَيْ "فيرونيكا" يميلان عليها ويُمطرانِها بالدموع بينما هي تحتضن الوسادة – وأويت إلى فراشي، ثم أغلقت عينيّ. سمعت هدير الطبل في نومي، وكأنني في داخله.

جاءت قبلكم. سبقتكم. الروائح. العطر الذي اشتريته لكِ يومًا ما، الشمس ورياح يوم من أيام مارس القاسية.

– أمي!

سمعت صوت مسيرة تركية قادمة من على بعد كبير. صوت لا تخطئه أذني.

– تخيلي أن المرضة فتّشت حقيبتي، وأخذت الفأر الذي أحضرته لكِ. قالت إن الحيوانات ممنوعة هنا!

حتى فيه، في ذلك الفأر العجوز الذي أَجْرَيْتِ له جراحة يومًا ما، وأخرجت جوفه، الفأر الذي كنتِ أيضًا تلعبين معه. حتى هو كان مَخْبَأً لي. ماذا لو أنها ما زالت هناك، في الداخل؟ لم يعد الأمر الآن يعنيني على الإطلاق. وعندما حملتكِ أخيرًا بين أحضاني تملكتني رغبة في أهمس في أذنكِ كي تبلغي الآخرين. أخبرتكِ بأمر تافه يتحول إلى حقيقة بالتدريج، وبعض التحريف، من أجلي ومن أجلكم جميعًا، وأخيرًا وليس آخرًا من أجل "ديتا".

حبيبتي، ربما أن شيئًا ما لم أسمعه جيدًا أثناء مكالمتنا الأخيرة. نظرتي كما تفعل الطبيبة "فاسالا" بحدَّة إلى نقطة فوق رأسي بعشرة سنتمترات وأنتِ

Twitter: @ketab_n

تمسكين في يدكِ بقطعة شكولاتة – بالفعل لم أرَ في حياتي قطعة كبيرة مثلها. وتحولت تجاعيد وجهك، الأقواس التي ضمّت الفوضى في عقلي، والتي أحببتُها كثيرًا، تحولت إلى أبجدية لغة مجهولة. الأول، الثاني، الثالث... فضلًا عن أنني لم أتمكن حتى الآن من أن أحصي أصابعكِ، وتخيلت أن لديكِ ستة أصابع في يدكِ اليُسرى. رحت أحصيها من جديد وسط هلع رهيب. فقد كنت أعرف جيدًا أن إصبعًا واحدًا زائدًا عن العدد الفعلي كفيل بأن يجعلنا نغرق في الأحلام، ونتحول إلى تراب. كما أنني وجدت نفسي عالقة في أخدود صمتكِ – فلم تنطقي بكلمة واحدة حتى الآن – وفي محاولة يائسة كي أخرج منه بدأت أرتكب خطأ وراء الآخر. حدث كل ما حرمته على نفسي في الصباح: فاهتزّت أوصالي، وقضمت أظافري، وبكيت، وضحكت كالمجنونة. قاطعت "ريبكا" هي تتكلم، ولم أتركها تكمل حديثها. شكوت من الممرضات، وغرقت في رثاء حالي. تفاخرت، وتكلمت بطريقة بشعة وغير مهذبة. لم أرَ لكل ذلك نهاية. السبب في كل ذلك يعود إلى "فلادينا". لأنها كانت أول من رأيته في الصباح. "فلادينا" التي بكت الآن وهي تتجه نحو الحائط، لأن حبيبها، ذلك الذي أرسل رزمة التيشيرتات الدعائية لم يصل. وانطلق كل ما بداخلي وكأنه عصيدة تتساقط من الوعاء، مثلما حدث مع سبانخ أمي ذات يوم. ولما صار الأمر لا يحتمل وضعت "ديتا" دِرعها جانبًا، وقالت:

– ماذا حدث لكِ؟ أنا أرى امرأة أخرى غير التي أعرفها.

ألقت هذا الكلام في وجهي، ثم نهضت، وانصرفت بخطواتها الواثقة. انقبض قلبي وأنا أنظر إلى ظهرها الرقيق الذي يشبه ظهر صَبيّة صغيرة ويفضحها. قالت لـ "ريبكا" وهي عند الباب:

– أنتظركِ في الخارج.

Twitter: @ketab_n

ثم انصرفت. لا أدري لماذا اعتقدت أنها تتجه ناحية الشمال.

- اذهبي وراءها. فأنا...

انطلقت "ريبكا" خلف "ديتا"، ولم تعد مرة أخرى.

هدوء. غادر قلبي جسدي، واندس في كراسة مربّعات جديدة وكأنها كتاب لوصفات الأعشاب الطبية. عجزْت عن أن أصرخ. لم أتمكن من اللحاق بكم. عجزت عن فعل أية شيء. وضعت قطعة الشكولاتة التي أعطيتها لي في جيب معطف الأم تريزا المُعلّق فوق مسند مقعد في الدهليز. وبدأت أتفحص الأعلام فوق بطني: الكونغو، وچاميكا، والكاميرون، وهندوراس، وغينيا الجديدة، ونيبال، وشجرة الأرز اللبنانية مع شقّ في فتحة الزرّ.

وفجأة تلوّى ذلك القميص المضحك وسط الرياح مثل شراع وساري ظلّ ساعات وأيام في سكون قاتل – لا أدري من أين جاءت تلك الرياح رغم أن النافذة كانت مغلقة. تكسّرت السواري، فانطلقت بعيدًا عن الشاطئ.

وقفت مع أمي عند إحدى التقاطعات في منطقة "أنديال" ننتظر الإشارة الخضراء. كانت عالقة بي، تدكّ أظافرها في ذراعي بحدَّة وكأنني طفل صغير خائف من هذا العالم الكبير الذي يموج حوله. تتابع بكل ترقّب صورة الرجل الأخضر على فوق الإشارة، ثم انطلقت بجواري تسير على أطراف أصابعها وهي تروي لي التغييرات المفاجئة في العلاقات متشابكة في إحدى المسلسلات التلفزيونيّة. أخذت أنهرها لأنها تتابع مثل تلك الحماقات، ولُمتُ نفسي على توبيخي لها. لكننا بالكاد كنا نسمع بعضنا وسط الضجيج المنتشر حولنا. كنا في طريقنا لشراء قبعة مثل تلك التي ترتديها إحدى بطلات المسلسل. أمواج من البشر كانت تتحرك حولنا. دسّ لنا أحدهم ملصقًا إعلانيًّا، وفوق منصة في

Twitter: @ketab_n

الشارع أخذ يتحدث أحد السياسيين المعروفين، وبجواره يقف فوق رجل ما فوق صندوق ويستدعي نهاية العالم. ضقت ذرعًا بكل ما أراه، كما أنني لا أفهم في مسألة القبعات على الإطلاق.

انطلق تيار من البشر خارج الحافلة رقم 9 فور توقفها. تملكني الخوف من أن يصطدم أحدهم بأمي، ويجرفها تيار البشر. فقد كانت امرأة ضعيفة، وهشّة. امرأة في سن متقدّم صغيرة البِنْية، ومن السهل أن تتأذى. فنسجت خيوطي حولها من الخوف مثل العنكبوت، خيوطًا رقيقة وناعمة مثل الغطاء الذي وضعته على أمي.

وهنا انتبهت إليها. امرأة طويلة ونحيفة، ترتدي زيًّا أسود. كانت تعلو قامات كل من في الحشد، وأخذت تشق طريقها وسطهم. ما هذه الحماقة؟! ببساطة مشت وسطهم وكأنها هي وحدها من يقف عند تلك الإشارة اللعينة، وكأنها تخترق أرضًا قاحلة لا يمكن أن يعترض فيها أحدهم طريقها. وبالفعل -اختفى الناس فجأة من المكان، وصمت صوت المتحدثين، وتوارت تلك الموسيقى الصاخبة وسط الصمت.

- انتظري هنا، سأعود على الفور!

تركت أمي المرتبكة تقف أمام كشك الجرائد، ثم مشيت خلف امرأة ما. تحمل في يدها حقيبة صغيرة مزينة بمربعات. أسمع طرقات حذائها فوق بلاط الشارع. اخترقت الحشد وأنا أتابعها. كانت تتوجه نحو مركز تجاري خمسة نجوم. لا، أنا بالتأكيد لم أخطئها. إنها المرأة التي أعطتني ذات يوم بيضة وبداخلها لُعبة هديّة، وكان في البيضة بيضة أخرى، وهكذا بصورة لا نهائية. إنها هي التي أعادت لنا الكوفيّة التي سقطت من الشرفة. إنها هي التي تعرف الكلمات الثلاث من لغة مجهولة عليّ أن أتعلمها، ولا أنساها أبدًا.

Twitter: @ketab_n

انفتحت الأبواب الزجاجيّة أمامها، ثم انغلقت مرة أخرى. أسرعت خطواتي لكن الأبواب أعاصت على أن تنفتح أمامي. خبطت بكل غضب على ممسحة الأرجل اللعينة، أخذت أتضرّع إلى كل الحسّاسات الكهربائية، وأخبط على الزجاج، لكن عبثًا. لم يعد الباب بابًا، فلم ينفتح، ولم يعد الزجاج زجاجًا، فلم يتكسّر. اختفت المرأة وقطتها في أحشاء ذلك المركز التجاري ذي الخمسة نجوم.

عدت إلى أمي.

- أين كنتِ بالله عليكِ؟ ظننت أنكِ ستتركينني هنا وحدي!

- تخيّلت أني رأيت السيدة "شفارزوفا".

- السيدة "شفارزوفا"؟ لا أعرفها.

- إنها جارتنا. أحضرت لنا يومًا تلك الكوفيّة التي سقطت من الشرفة.

- أية كوفيّة؟ لا أتذكر أية كوفيّة عندنا. أبوكِ بالتأكيد لم يكن يلبس أيًّا منها....

ركبنا الترام إلى محطة "مالوسترانسكا"، ثم واصلنا العودة إلى البيت سيرًا على الأقدام. مررنا بكنيسة "دوبروفسكي"، وبأكبر شجرة دُلْب* في العالم. مشينا على رصيف أمام المتحف، فوقه مقعد ضخم لا يتأثر بالكوارث، ومجموعة من طيور البطريق التي تُشعّ لونًا أصفر وسط الظلام، يومض في الهواء في تلك المدينة مثل ذكرى ليست لنا، وعلى خلفيّة صورة لم تكن إحدانا جزءًا منها.

أخذت أمي ونحن في طريقنا تخلع القبعة الجديدة، ثم تُعيدها فوق رأسها مرات ومرات. كانت مثل خوذة طيارين قديمة. تقلبها في يدها وتتفحصها بسعادة الأطفال. أخذْت المفتاح من يدها، وفتحت باب العمارة. في ذلك الرواق كنت أعانق "داليبور" يومًا ما، عندما عجز كل منا عن أن يُفارق الآخر. دخلنا

Twitter: @ketab_n

إلى المصعد، وضغطت على زر الطابق الرابع. انتبهت بعد لحظات بأننا تجاوزناه، وأننا نصعد إلى أعلى. واصلنا الصعود، وبدأت أمي تشعر بالقلق، لكنها ظلّت تعبث في القبعة وهي تردد أغنية ما بصوت منخفض. ارتطم المصعد بسقف البيت دون ضجيج، ثم انطلق إلى أعلى، وبدأ يطير، بينما انحشرت الأم وابنتها في فراغ ضيق. واصلنا الطيران وسط السحاب العالق فوق المدينة، وبدأت النجوم من حولنا تنفجر، ثم تتجمّع مرة أخرى.

التقطت خيط الأغنية، ورحت أرددها معها. نطير ونحن نغني معًا. أعرف أن هذه الحركة لن تتوقف يومًا، وأننا بهذه الطريقة فقط سنظل معًا إلى الأبد. لكن عليّ ألا أتوقف عن الغناء، يجب أن أظل مُنتبهة. ومع ذلك بدأت مقاطع الأغنية تتبدد من على شفتي، وتثاقلت أجفاني من النعاس رغمًا عني. أنا غاضبة من نفسي لأني بدأت أغني بدون حماس بعد أن ثنى النعاس رأسي بقوة. أنا غاضبة من أمي التي تلف القبعة فوق أصابعها وتغني للغابات. أنا غاضبة لأني فقدت إلى الأبد تلك المرأة التي تحمل قطتها، وكلماتها الثلاث، غاضبة لأني لن أجد أحضان "داليبور" تنتظرني في الرواق عند مدخل البيت.

ظهر شقّ في جسد المصعد. فسحبت أمي إلى الجانب المقابل، لكن المصعد بدأ يتفسّخ ويتصدّع في كل مكان مثل لوحة جصّية قديمة لفحتها الشمس. وقبل أن أمسك بأمي باغتتها دوّامة، فاختفت في الظلمات مع قبعتها مثل ورقة اجتزّت من جريدة قديمة. بدأت أسقط عبر غور به فوضى ألوان جميلة، وناعمة، ومُبْهِجة. غور نشأ من غضبي، ومن جاذبية الأرض. أخذت النجوم تنطفئ واحدة تلو الأخرى، وأنا أنزلق وسط ظلام ثقيل وحارّ مثل طبق الحلوى الساخن. وملايين من السنوات الضوئية تعبرها قبعة أمي الجديدة على شكل طبق طائر تائه. غلبني النعاس رغمًا عني. ثم استيقظت من جديد بعد أن مرَّت بي عصور. وتجاوزتني السنوات. دمَّر فيها أحدهم المدن من تحتي،

Twitter: @ketab_n

وشيّد رجل آخر مدنًا غيرها. وعندما صرت أنا والظلام سواء، وعندما غادرتني ذاكرتي، ظهرْت من بين الفوضى، وسقطْت وسط الطحالب.

لم أكن هناك وحدي. وجدت رجلًا يقف أمام مخبأ مرتديًا زيّه، ويلوّح لي بيديه. انطلقت بصحبة "ديتا" على الطريق. حسب ما تقوله الخريطة توجد خلف هذه الغابة أرض "ستراشمانيا"، أرض كل الاحتمالات. عندها عرفت أيها سأختار.

***

كان علينا أن نلتقي في الساعة الثامنة والنصف مساءً في مرفأ أمام متجر "إيكيا". صارت الساعة الثامنة واثنتين وأربعين دقيقة ولم تظهر "إيما". لم يدهشني هذا الأمر. فدائمًا ما كانت تتأخر عن موعدها. لكني قررت أن أوبّخها على تأخّرها هذه المرة. ليس لأني كنت مستاءً مما فعلته، لكن التوبيخ أمر مُتوَقّع ممن ينتظر، وهو مُحِقّ في ذلك بالطبع. أخذت أُعِدّ الجمل الافتتاحية في نفسي. وقفت مُتكئًا على الحائط، ومروحة تهوية المخزن بجواري تدور بهدوء. وعندما أغمضت عينيّ تخيّلت بحرًا ممتدًّا خلف كعبَيْ حذائي.

قالت لي في الهاتف:

- ساعدني! أرجوك ساعدني في العثور على "ريبكا".

أعتقد أني أعرف مكانها. في صالة الإنتاج الموجودة في حي "بودولي". سمعت أن مقرّ "شركة الحفاظ على الظلام" يوجد في هذا العنوان، فأنا... كُنت هناك ذات يوم، أعرفه من الحبل الحديدي العالق أسفل السقف. رأيت هناك خُطّافات تلمع، ونساء كاسيات ترقد أسفل إحدى اللوحات فوق أرضية

Twitter: @ketab_n

الصالة الإسمنتية، وألسنة الضوء مُسلطة عليهن. يجب أن نأخذها من هناك قبل فوات الأوان". لم أعرف إن كان عليّ أن أثق في شيء مما تقوله.

- أخاف أن أذهب إلى هناك وحدي. أعرف أنك مساء اليوم، عند الساعة الثالثة وعشرين دقيقة يجب أن تكون عندها، كما تفعل كل ليلة، تحمل بخاخة الزهور، وأنك... أنا لم أطلب منكَ شيئًا من قبل، لكني الآن يا "بوبل" العزيز أطلب منكَ أن تنسى زوجتك هذه الليلة ولو لمرة واحدة، وتمنح وقتكَ لنفسك ولي ولـ "ريبكا".

طال صمتي، ولم أتمكن من القيام بردّ فعل مناسب. كانت ردود الأفعال في كل مرة عشوائية، لكنها لم تكن بسيطة.

- حسنًا، لكني غدًا مع "أناطول"...

- لنعثر على "ريبكا" أولًا ثم نذهب جميعًا عند معارفي لحضور أمسية عندهم. لقد اتفقنا على ذلك، وغدًا يمكنك أن تفعل ما تفعله في كل يوم، تضع قبعة الطباخين فوق رأسكَ، وتصنع في فراغ الأوعية طعامًا شهيًّا! وأنا سأعود إلى المستشفى، لأني قطعت على نفسي عهدًا بأن أُكمل العلاج. أقسم لكَ! فقط امنحني ليلة واحدة.

وجاءت أخيرًا. اختفت كلمات التوبيخ التي كنت أعددتها. تبخّرت تمامًا وسط الظلال التي تراكمت فوق وجهها، وعلى قميصها المفعم بالبهجة والمطرز بأعلام العالم وكأنها دائرة معارف قديمة مخصصة للأطفال. لم أجد في نفسي تعاطفًا ولا أسًى ولا قلبًا ينقبض. لم أجد سوى الذهول وهي تتوجه نحوي عبر المرفأ. شقيقتي، هذه المرأة الغريبة عني، المرأة العجوز المتصابية، والمثيرة للضحك. امرأة فرّت مذعورة من أحد صناديقي مثل حيوان مقبوض عليه. يومًا ما تبعتني إلى داخل حبة جوز العدم الخاوية، وأسدلت قشرة الجوز وراءها بكل هدوء. كانت

Twitter: @ketab_n

تقترب مني كلما ابتعدت عنها، تمامًا كما حدث في ذلك اليوم ونحن نقف وسط المقابر. "هنا يرقد فاشا شالا"، حيث أخذنا نتنقل بين القبور، بين صورة واضحة المعالم، وأخرى تجريدية، عبارة عن شبكة من الخطوط. تجولنا في أرض الموتى التي لم يكن بها سوى صورهم البيضاويّة.

كان مزاجي سيئًا. سأساعدها في البحث عن "ريبكا"، لكني لن أذهب معها إلى أية أمسية. فأنا لا أبحث عن أمسيات ليست قائمة على عقيدة محددة. قالت وهي تتجه نحو سيارتي:

- لنذهب إذن، يجب ألا نُضيّع الوقت. لقد تجمّعت حياتي كلها في شهر واحد مثلما يضع أحدهم فأرًا في الخبز سهوًا ويزجّ به في الفرن. إنه شهر فبراير. في رغيف العيش الذي ما زال مُجمّدًا من الثلج، ولا يستطيع أحد أن يكسره.

اندهشت مما قالته. لأن هواءً دافئًا كان يهبّ في المرفأ في يوم صيفيّ حارّ. قلت لها:

- اركبي!

وأشرت إلى عربة المشتريات.

لم تُبد أية دهشة، وانسلت إلى داخل العربة. أمسكت بمقبضها، وأخذ قميصها يرفرف في الهواء مثل الساري، وانطلقنا.

أخرجت من جيبي ورقة مُجعّدة مُكوّرة. كانت مجرد فاتورة. على إحدى جهتيها وصفة لإحدى الوجبات المُعقّدة، وعلى الجهة الأخرى صورة أغصان صغيرة. أعطيت "إيما" الصورة. "لقد شرح لي أحد الزبائن بعد أن أعجبته الحلوى التي صنعتها معنى هذه الصورة. لقد رسم أغصانًا نشأت منها أغصان أخرى. وظلت الأغصان تتكاثر واحدة من الأخرى حتى ملأت الورقة بالكامل".

Twitter: @ketab_n

قلّبت الصفحة بين أصابعها، ثم قالت:

- تبدو كأنها شجرة عائلة. فوق كل فرع يوجد أحد القادة... انظر! يقف على هذا الفرع أبي! أنا لا أفهم كيف أشعر بالوحدة في هذه الغابة الرائعة. من المؤكد أن خطأ ما قد وقع.

انزلقت يداي المبللتان بالعرق من فوق المقبض. وانطلق صياح يائس من فتحة إحدى النوافذ. تمنيت أن يغير ذلك الصراخ اتجاهنا، ويقطع طريقنا، ويثنينا عن البحث العابث، ونجد أنفسنا بعد لحظة نصعد إلى شقة غريبة، قد نحول دون وقوع جريمة قتل فيها، أو نجد أنفسنا أمام إمكانية أخرى أكثر رحمة.

تَغيير. قطْع. انحراف. منْع. وقوع. توالدت الكلمات من بعضها، وتفرّعت وتحولت إلى هيكل حديدي معقد. تحولت إلى سقالات قويّة حاولت أن أرفع بها السقف. انبثقت مني الكلمات، وأخذت أقطّعها إلى أجزاء صغيرة، ثم أثخّنها وألقي بها إلى زيت محمي. فقد اعتقدت أني لو توقفت للحظة عن الكلام لتساقطت كتل التحولات التي تمر بها شقيقتي فوق رأسي، ولدُفِنت أسفل الحاويات المتخمة بالقمامة في حديقتهم اللعينة. لاحظت أني عندما بدأت أستطرد في فكرة ملتبسة حول آكلي لحوم البشر أن إبرة مدببة وضخمة تخرج من قلبها عبر خط أزرق لإحدى الرايات فوق قميصها. ويتدفق الزمن من فتحة تلك الإبرة في كل اتجاه.

سأعود إلى البيت بمجرد أن نعثر على "ريبكا". احتشد المستقبل في تلك الفتحة مثل الديدان أسفل أحد الأحجار المرتفعة قليلًا فوق الأرض، وأنا أدفعه ليلتصق بالأرض. غدًا إذن. لكنني اليوم أمامي مهمة عليّ أن أتمها، أن أُعيد ذلك الطفل التائه إلى أهله، ثم أردّ "إيما" إلى حوائط مكسوّة بصفوف منتظمة من الدموع، بعيدًا عن الدم الواحد الذي يسري في عروقنا.

Twitter: @ketab_n

كنت أحيانًا أدفع العربة بصعوبة، وأحيانًا أشعر أنها تتطاير في الهواء، وتجرني وهي تنطلق إلى الأمام. كنت بالكاد أحافظ على توازني، وأتعثّر خلفها مثل المتزحلق فوق الماء خلف القارب. جثم أحد الأطفال وسط الرصيف، واتكأ على جنبه، وأخذ يرسم دائرة حول نفسه بإصبع من الطباشير. لم يرفع ناظريه نحوي وأنا أتخطاه بمنتهي الصعوبة. مررنا بحدائق البارات والمقاهي، وبمجموعة من الأجانب المتزاحمين عند كشك يبيع النقانق، وبمشردين يبتسمون لنا بأفواه جرداء، لا أسنان فيها... كانت نظرات جميع من حولنا تمرّ بنا دون أي اندهاش، وبفتور كامل، رغم أن العربة كانت تجلجل وتشخشخ فوق بلاط الرصيف ولم تتصدع، ورغم أن "إيما" كانت تثب فيها، وتطفر وهي تحرك يديها لتشير إلى الاتجاه؛ امشِ إلى الأمام، ثم انحرف يسارًا! ورغم أني كدت أسقط معها أسفل عجلات إحدى السيارات. وكأننا طيف عارض لحبيبات ضوء مصابيح الشوارع فوق الأعمدة، وكأننا مجرد...

صاح كل منا في صوت واحد:

- بيترا!

هدأت "إيما"، وأمسكت قاع العربة بكفيها بكل قوة. وعندما رفعتهما رأيت بصمات الشِّباك عليهما.

- ماذا لو أنه... لو أنه لا وجود لما يحدث إلا في خيالنا؟

لم أردّ، وواصلت دفع هذا الشيء العبثي الذي نتأ في يديّ، وصار جزءًا منها.

خفّت الأضواء، واختفى الضجيج. تلاشت الشوارع، وخيّم الظلام على المدينة من خلفي. أكدت لي أن تلك الندبة السوداء على يسارنا هي نهر (بوتيتش)، لكني لم أصدقها، وكنت على ثقة من أننا ضللنا الطريق.

Twitter: @ketab_n

- كيف لي أن أخرج من الحديقة؟ إن الزيارات هناك ممنوعة. وأنتَ لن تأتي على أي حال، حتى لو طلبت منكَ أن تزورني، فأنت لم تحضر جنازة أبينا.

سمعت صوت طقطقة خفيفة وحادَّة. كانت تقرض أظافرها، وانتابتني نوبة غضب. ماذا لو هذا التوبيخ، وهذه الطقطقة موجودة بالفعل، ولا تراودني في حلم ما؟ قالت وكأنها عرفت بما يدور في رأسي:

- لا يَهُمّ.

تدفّق علينا تفل عنب لزج عديم اللون وساخن، قادم من نجوم تشع علينا بنورها اللامع. أخذت تحصي أصابعها مثل الأطفال الصغار. بدت راضية بالنتيجة التي توصلت إليها، وصرفت اهتمامها عن الطريق الذي يجب أن نسلكه. أخذت تعبث في أكياس المشتريات البلاستيكية بفضول وكأنها نسيت "ريبكا" فجأة. المشتريات؟ أنا واثق من أن العربة كانت فارغة عندما صعدت إليها...

- لا تخف يا شقيقي من تلك الأمسية.

ثم أخرجت من الحقيبة عود كُرَّاث، وحزمة بصل. كنت قد نسيت موضوع الأمسية تمامًا. وأخذَت تحرك حبة باذنجان أمام أنفي، وتخبط على معلّبات الزيتون، وتتلاعب بحبات الطماطم حتى صار لون الظلام أحمر أمام عينيّ، ثم قالت:

- ما فائدة الحوار الجادّ حول الخسائر التي تسببت فيها الليبرالية الجديدة، وحول الشَّرَك الذي نصبه الاتجاه الاستهلاكي؟ ما جدوى الآراء! كل إنسان في استطاعته أن يتبناها ويلبسها مثل الحذاء ثم يلقي بها بلا هوادة. لكنكَ أنتَ، يا شقيقي...

صمتَت، وأنا أنتظر بكل إذعان ما ستسفر عنه هذه الثرثرة في النهاية.

Twitter: @ketab_n

- أنتَ مَلِك الحواسّ.

نعم. لقد نسيت أمر "ريبكا" تمامًا، كما فعلت أثناء جولتنا السابقة. لم تترك "إيما" مرمًى للنيران إلا وشرحت لنا كيف نصيب منه الهدف. وبالفعل. بعد قليل امتلأ ذراعا "ريبكا" بالزهور الورقية التي تفوح منها رائحة عذبة، وبغزل البنات، ودمى مُوبرة، تُطلِق موسيقى مَرِحة عند لمسه بطونها. نسيت الأم ابنتها وهي تشق طريقها وسط الحشود، وتدفقت ذكرياتها الحزينة من فمها واحدة تلو الأخرى. غفلت عن طفلها، عن الشيّال الصغير، عن الوشاح الصغير الذي يرزح تحت وطأة عواطفها.

أخذ صراخ الحيوانات خلفنا يختفي بالتدريج إلى أن التهمه هدير مكبرات الصوت. "يا "إيما". لم يكن في الإمكان مقاطعتها وهي مسترسلة في الحديث. كما أنها تبنّت رأيًا – تقول إنه لا جدوى من الآراء! – بأني توأمها الذي ولد بعدها بعام نتيجة لخلل بيولوجيّ ما.

ربضت "ريبكا" فوق درج يقود إلى قطِار في مدينة للملاهي وسط كومة مبعثرة من الحُليّ الرخيصة، ويدبدب في كل مكان حولها جمع من أناس غريبة. على وجهها خِصلات ورديّة لزجة، لكنها لم تكن تبكي. ربما لأنها كانت منزعجة للغاية من تلك الزهور التي أعطتها لها أمها.

أردت أن أرُدّ لها توبيخها لي. لكن وجدت نفسي أسقط من فوق الجرف إلى حوض أحد الجداول المائية. الغريب أن العربة لم تنفلت من يدي. غاصت قدماي في الطين حتى ركبتي.

- أترى؟ ألم أقل لكَ إننا قريبون من نهر "بوتيتش"!

مِلت على الأرض، وأخذت حفنة من الطين في يدي. كانت خضراء.

- إنها سباخ. توقعت أن أرى شيئًا. إنه دليل على أننا نسير في الطريق الصحيح.

ثم أضافت بنغمة استرضاء:

- وهو أيضًا دليل على أنني لم أنسَ أمر "ريبكا""

وصلنا إلى قناة يبلغ طولها كيلومتر تقريبًا بعد أن تحملت دفع العربة والسبانخ أمامي لمدة مئة أو مئة وخمسين مترًا. كانت المياه من نهر "بوتيتش" تتدفق فيها، ثم تصبّ بعدها في نهر "فلتافا". وبعدها ...

وبعدها نكون قد اقتربنا. سنصعد إلى الشاطئ، أتتذكر. هناك كان والدنا يصطاد الأسماك على الشاطئ المقابل، ثم نتسلّق ثلاثة جبال، جبل نشارة الخشب، وجبل كسرات الصخور، وجبل آخر لا أعرف اسمه، وهناك نكون قد وصلنا.

- احذري من أن تبتل شطائرك".

لم أنسَ أن أوبّخها، لكني اتكأت بكل قوتي على محتويات العربة، ثم دفعتها وسط تفل العنب بصعوبة كبيرة، لكن التفل صار في كل مكان، فوق الأرض وفي السماء.

كانت النجوم في السماء ما زالت تبعث ضوءً خافتًا فوقنا، وكأنها مُعلقة بأسياخ خَفيّة، وتنتظر أن تسقطها "إيما". وضعت كفيّ قريبًا من عينيّ، وأخذت أتفحص البثور التي ظهرت عليها. بثرتان فارغتان، وفي البثرة الثالثة نساء صغيرات تشبه الثلوج في كرة زجاجية أعطاها لي أبي ذات يوم، فخبأتها كي لا تأخذها مني شقيقتي. نساء صغيرات يرتدين ملابس نوم قصيرة، تدور إحداهما حول الأخرى هنا وهناك في دورة فوضوية أسفل جلدي القوي الشفاف وكأنهن في حوض أسماك صغير.

Twitter: @ketab_n

كانت الساعة تشير إلى الثالثة وإحدى عشرة دقيقة. وبعد تسع دقائق ستنفجر جهنّم، التي لن أكون شاهدًا عليها بعد سبعة عشر عامًا. ما عسى زوجتي أن تفعل عندما ترى الحمم البركانية أخذت تنفجر من جسدها وتسيل بجوار سريرها الخاوي؟ من سينظف آثار القيء، ويرشها بانتظام بالماء البارد وهي نائمة، يرشّ رقبتها، وذراعيها، ورسغيها؟ في أي جسد غريب ستدقّ مخالبها، وبأي خيال ستغوص تحت سطح الماء؟ كمْ من الأجساد والتصورات عثرت عليها في رواسب البحر، وكم من الهدايا اجتازت البحر لتستقرّ تحت قدمي. سقط التوبيخ وسط السبانخ، وكأنني أفرغت جيوبي الممتلئة بفتات الخبز.

ألم يكن من الأسهل دفع هذه العربة العبثية وسط وحل أخضر! أردت أن أقول هذا لـ "إيما"، كانت بالتأكيد ستقدم لي النصيحة بكل سرور، إن كان في مقدوري أن أتحجج بزوجتي لأبرر الدخول الإجباري الأبدي. لكني عندما نظرت إلى العربة، وقعت عيناي فجأة على قطعة زجاج إحدى المرايا. تكسّرت، وتهشّمت ربما بسبب تلك الهزّات الأبدية. وبدلًا من أشكالهم الطبيعية، انعكست عليها صورهم الخفيّة – ربما فسّر لي أحد زبائني السعداء بالحلوى التي أقدمها والمتخصصون في الفيزياء ذلك الخداع البصري: الطفل الرضيع يرى فيها شكله بعد أن يصبح عجوزًا، والجمجمة ترى رأس رضيع جاب العالم يومًا ما. رأيت فيها صورة مكتملة لامرأة أعرفها، امرأة كنت أنا هي ذات يوم، ولم أكن أيضًا: صورة توأمي الذي يصغرني بعام.

قالت المِرآة:

– يبدو أني استسلمت للنوم للحظات. وهذا دليل أكيد على أن رحلتنا هذه للبحث عن "ريبكا" ليست حلمًا. فلا يمكن أن أحلم وأنا وسط حلم آخر. خرجت من القلعة التي قضينا الإجازة فيها كالعادة، وذهبت إلى الحديقة.

Twitter: @ketab_n

كانت القلعة محاطة بأسوار ذات زوايا حادة في أركانها، تحرسها أشجار خضراء. وتلك الرائحة إلى اليوم...

- اعثري على طريق مختصر من فضلِك! فأنا أكدح وسط الطين هنا، ولا أثر لتلك القناة.

- لم يكن اسمي "إيما"، لكن "ألينا"، وكنت أنتعل حذاءً خفيفًا، وأضع على جسمي طاقمًا رياضيًّا أزرق يلسع بشرتي بقوة، وتي شيرت أبيض. بالتأكيد ما زِلت تتذكر أنه كان زيًّا إجباريًّا للبنات وقت التدريب. خرجت بعدها إلى الحديقة، وأخذت أجري بمحاذاة الأشجار. تعجبت عندما لاحظت أني لم أكن وحدي، وأن عددًا لا يحصى من الفتيات يهرول في أرجاء الحديقة في كل اتجاه.

شعرت بالانزعاج. أحيانًا كنت أخرج من حوض النهر بدون قصد لأن عجلات العربة كانت تتعثر في الطين الذي وصل إلى ركبتي وكساها باللون الأخضر. لكن العربة الآن تتهدّج فوق سطح رمليّ.

- كل واحدة من هؤلاء الفتيات التي تحملن اسم "ألينا" قصدت طريقًا مغايرًا، حيث تنتظرها مغامرة مختلفة.

- وكم كان عدد هؤلاء الفتيات؟

تملكني الرعب من أن تقول مئة.

- لا أعرف، ربما عشر أو إحدى عشرة. "ألينا" الأولى مثلًا سقطت في النافورة، وغرقت.

ممتاز. لو استمرت تحكي على هذا المنوال فسوف نتخلص أخيرًا من الحلم الذي يراودها داخل حلمها الأول.

Twitter: @ketab_n

- "ألن تبدئي في التخلص من حبات الطماطم، إن كان تبقى شيء منها، كي نعثر على طريق العودة؟

لم تكن تستمع إليّ. كانت هناك، مع الفتيات التي تدور في دوامة كلماتها مثل تلك السيدات الصغيرات في البئرة فوق كفي الشفاف. كانت هناك في الحديقة التي تتفرع فيها الطرق، وكل طريق منها يمثل إمكانية مختلفة.

- تقدّمت الصبيّة الثانية من أحد المقاعد، وجلست بجوار رجل كانت يكتب شيئًا ما. سألته: ماذا تكتب؟، قال: أترجم رواية «الجدّة» للأديبة "بوجينا نيمتسوفا" إلى اللغة الصينية. ثم أعطاها ورقة، وأخذ يعلمها حرفين، حرفًا للماء، والثاني للهواء. سأسعد لو عرفت أن هذه الحادثة دفعتها لاحقًا إلى الاهتمام بعلم الأجناس. لكن ذلك الرجل كان في الحقيقة رجلًا منحرفًا يُطارد الأطفال. فاستدرجها إلى وادٍ ضيق بالقلعة سيئ السمعة.

- وماذا حدث مع باقي الفتيات؟

- "ألينا" الثالثة وقفت أمام تمثال لـ "نيبتون" من الحجر الرمليّ شبه مُدمّر. وظلت هناك حتى عام 1992 إلى أن انهارت، وانتهى بها الحال في مركز لعلاج الأمراض المزمنة، في غرفة بسقف منخفض للغاية. لم أرَ سقفًا مثله من قبل. زرتها هناك ذات مرة. أكدوا لي أنها فقدت ذاكرتها، وأنها لم تعد تتذكر أي شيء. لكنها وقتها رفعت يدها، وفرجت أصابعها التي كانت تشبه شوكة "نبتون" المنتصبة، ثلاثية الأطراف، وأشارت إلى ذلك السقف، وقالت: "حديقتنا ما زالت توجد هنا". أتذْكُر! عندما كانت الأمطار تنزل خفيفة، وخيوط العنكبوت تلمع فوق الشجيرات، وبها عدد لا نهائي من الذباب الحديدي. أما الفتاة الأخرى، "ألينا" أو "إيما"، لا يهم. فالأمر في النهاية يتعلق بي أنا. أنا من تم استنساخها بعملية تحوّل غير مقصودة للقلعة أسرعَت نحو

Twitter: @ketab_n

البحيرة التي لم يكن مسموحًا للأطفال بالذهاب عندها. وصنعَت طوّافة من أشجار الخيزران ومن قِطع الأخشاب بمساعدة شابَّيْن من المدينة، وقررَت الإبحار إلى فرنسا، حيث ستجد فيها سعادتها. أبحرت إلى فرنسا، ودخلت إلى الشقة، فوجدت السعادة، ثم اختفت بعدها".

- لم تعثر على السعادة، ولم تختفِ. ترقد مُنكبّة على نفسها في حوض الاستحمام، وراحت في سُبات عميق. أو هكذا أتمنى على الأقل. وماذا عنكِ أنتِ؟

- أنا؟ أنا أشعر ببعض الحزن. عندما رأيت الجميع ينصرفون من حولي، لم أجد من ألعب معه عدت إلى غرفة الطعام، وجلست عند الطاولة، حيث كان أبي يتناقش مع رجل مهم للغاية. كان البروفيسور يتحدث بلا توقف، ولم أفهم شيئًا مما يقوله. فبدأت ألعب مع ملّاحة الطعام التي كانت فوق الطاولة. كانت تلك الملّاحة ترتدي قناع الـ "فايكينج"، ودرع محاربين من الكريستال. ثم تحولت إلى حُلّة يرتديها الغواصون تحت الماء، وإلى صخرة نزع عنها المعماريون حالة الجمود. لكنها فجأة رفضت تحمل أية مسؤولية. فارتطمت بقوة بكوب القهوة التي سقطت في حِجر البروفيسور. حدث ما لم أتوقعه على الإطلاق: وكأن شيئًا قد أفسد مزاج البروفيسور، فقطع كلامه، وبدأ يصرخ بنغمة مختلفة عن تلك التي كان يتحدث بها منذ قليل، طبقة صوت فتاة غاضبة: اخرجوا هذه الطفلة من هنا فورًا! لا أريد أن أرها هنا! ثم انتفض واقفًا والقهوة تقطُر من معطفه، ومدّ ذراعه من فوق الطاولة، وصفعني بقوة. لم أستطع أن أسترد وعي، ليس بسبب تلك الصفعة، لكن بسبب ذلك التغيُّر المباغت في تصرفاته. وكأن ذلك الحلم قد شطر البروفيسور إلى نصفين. إلى كائنين مختلفين عن بعضهما تمامًا. لكن بصراحة...

- هل كان هو ذلك الأستاذ الشهير المدعو «م»؟ لم أتوقع أنه يضرب الأطفال.

Twitter: @ketab_n

- لكن بصراحة سمعت جملة: «لا أريد أن أرى هذه الفتاة هنا»، سمعتها خلال الأربعين عامًا التالية كثيرًا... لم يتغيّر فيها سوى عبارة: هذه الفتاة.

كان جسدي متخمًا وهامدًا مثل قفاز قديم بالٍ. تقدّمت إلى الأمام بتلقائية لأنها تأبّطت ذراعي، وأخذت تحرّكني؛ ماذا تنتظر مني؟ أن أشفق عليها؟ أن أظهر لها نوعًا من التعاطف؟ أن أتفاعل مع ذكرياتها العشوائية؟ شخص ما شطر "إيما" وزوجتي اللذان كانا كائنًا واحدًا في الأصل إلى نصفين: نصف وجد نفسه لأول مرة وحيدًا بعد سبعة عشر عامًا. يترنّح وحده في جحيم الرصانة. يصرخ مثل الحيوان، ويدقّ رأسه في الوسادة. أما النصف الثاني فهو يبحث عن ابنته لأكثر من سبعة عشر عامًا، بلا توقف. رغم أنها تمشي معها طوال هذه الفترة يدًا بيد، وكل واحدة منهما ملتصقة بالأخرى، وتدوران في حلقة من الثقة والأمان لا تتزعزع.

لم يعد هناك وحل، ولا تفل، ولا حتى سبانخ. لم يكن هناك سوى سُمّ يتسرب إلى داخلي، ويعلوني حتى وصل إلى عينيّ، ثم تجاوزها. وأنا أمسك ذراع شقيقتي بقوّة وهي تتربع فوق عربة من العصور القديمة يحملها العبيد. تلك المِحَفّة الآسيوية التي تزينها حُزَم الهليون، وأهرامات من الأفوكادو، وكل أكلات العالم، بدلًا من أكاليل الزهور، والورود، تماثيل التنين الصغيرة. أمسكتها بقوة، ثم أطلقت في وجهها هذا السُّمّ:

- هل بالفعل صفعكِ ذلك البروفيسور المعروف؟ شيء غريب! يجب أن تناقشي هذا الأمر مع طبيبكِ النفسيّ، ربما تكون القهوة التي سقطت في حجر ذلك الأخصائي في علم البنيويّة هي أحد أسباب ميلكِ إلى الإدمان.

تساقطت الكلمات فجأة من جراب متهتّك مثل حبات الفاكهة الجافّة، بغض النظر عما قلته، سواء أردت بها التهكّم أو مشاركتها الحديث. وهوت

Twitter: @ketab_n

فوق الرمال، فسحقتها بقدميّ المغطاة بالطين. تقول في الرمال؟ إذن لا شك في أننا تجاوزنا الوادي منذ فترة بعيد، ونتوجه الآن إلى مكان ما، لا أدري. نبتعد عن صالة الإنتاج المتداعية القريبة من نهر "فلتافا". قالت "إيما" إن نيرانًا نتنة اشتعلت فيها، وكانت "ريبكا" تتخطاها ذهابًا إيابًا حتى احترق جسمها ووصلت النار إلى خصرها، وتحولت قدماها إلى جزعَيْ شجرة حمراوين. رغم ذلك دارت بعقلي صورتها وهي تهزّ قدميها بسعادة في حمّالة الأطفال التي تجلس فيها فوق ظهري عندما كنا في منطقة المقابر. هناك قفزت لآخر مرة كي تلتقط حافظة أقلامها القديمة فوق لسان اللهب. صارت الحافظة ممزقة، ومتفحمّة. أُصبْت بالهلع من أنها ستفتحها، وستقرأ جدول الحصص حتى تصل إلى آخر حصة فيه.

ولأن البحر كان حبي الوحيد، ظهرت في تلك اللحظة موجة عاتية قادمة. تتقدم، وتدفن تحتها كل ما يعترض طريقها: حافظة الأقلام، ولهب النيران، والمقابر، وحتى الحديقة. كل الأرضيات التي كانت سقوفًا لغيرها. قضت الموجة على شقيقتي، وزوجتي، وكل من في جمعية الحفاظ على الظلام، حتى قضت على الظلام نفسه.

رمل، أو ربما كسرات الأحجار. بدا الأمر بالفعل وكأنا ندور حول أنفسنا في مضمار سباق عَدْو. رمل أو كسرات أحجار أو ربما صلصال خمريّ اللون. بالفعل وكأن الأرض تحت عجلات عربة شقيقتي التي أخذتها من متجر "إيكيا" صار لونها ورديًّا. أخذت تلك الإبرة الصاعدة من قلبها تطعن الظلام، ويخرج من تلك الفتحات ضوء يشعّ على ملعب كبير للتنس، أو على شيء أحمر قانٍ يمتدّ حتى عنان السماء، فيزيدني هلعًا.

Twitter: @ketab_n

ورغم ذلك... ورغم ذلك أخذت تؤكد أن لديها بوصلة! بثقة كبيرة من شخص فوق قميصه، وعلى جسده مباشرة رايات العالم بأسره، شخص يعرف كيف يصل إلى الأرض المستعرة. فما بالك بأن يصل إلى حيّ "بودولي". كانت تقودني بكل ثقة وقوة. تحدد الاتجاه، وأنا، من نعتته منذ لحظات بلقب "ملك الحواس"، وثقت بها مثل سائق أعمى وأصمّ، وصدّقت بأننا بجوار سدّ "هوستيفارش"*، وأننا نتوجه عبر حوض النهر، وندور حول مرتفع "تريش"، عن طريق شارع "بود سيرجادليتيم"، ثم نسير بمحاذاة حدائق "هافليتشك" إلى أن نصل إلى منطقة "فيشاهراد". هناك سنكون قد وصلنا، كما تقول، إلى قناة الماء...

ظهر لنا فجأة وسط الظلام شخص ما. أمسك بالعربة من الجهة المقابلة، وأخذنا نتجاذبها وكأننا عاجزان على الاتفاق على من هو صاحب هذه المشتريات الغريبة. الظهور المفاجئ لهذا الشخص، أيًّا كان هو ذلك الشخص، سِكّير كان أم مُتشرّد، أم متسوِّل، أم لصّ، أم متسكّع، أم قاطع طريق، أم مجرم، أم قاتل، أيًّا كان. بثّ فيّ ظهوره أملًا كبيرًا: لا أريد أن يقف في طريقي. أطلب منه أن يمشي خلفي، ومقابل ذلك أعطيه بكل سعادة الكافيار أو زجاجة الشمبانيا الملقاة بجوار "إيما". المهمّ ألا يقف أمام العربة، فقط عندما يسير خلفي، ويمسك بكتفيّ أو يلف يده حول خصري، ويساعدني في دفع هذا الحمل الثقيل، ويستدعي أصدقاءه، أحدهم يعانق الآخر. وعندما يهدأ طابور هؤلاء المساكين، خرائب البشر القادمين إلى هذه المنطقة الرملية النائية، يظهر رجل عجوز، يمسك بآخرهم يعانقه. ثم تأتي امرأة عجوز، وكلهم يساعدونه في دفع هذه العربة التي غاصت في الأرض. سيساعدونني جميعًا على أن أخرج من الشرنقة، وأتخلص من قشرة الصمغ، وأصبح واحدًا منهم.

---

* سدّ "هوستيفارش". اسم أحد أحياء مدينة براج –المترجم.

Twitter: @ketab_n

لكن الحقيقة اتخذت شكلًا مغايرًا: لم يبدُ الرجل الذي أمسك بالعربة من الجهة الأخرى على أنه من المتشردين بأي حال. أخذ يتفحص محتويات العربة بكل حرص ورويّة، حقيبة وراء حقيبة، وقطعة وراء الأخرى، وكيسًا وراء كيس، سلعة وراء سلعة. بدا صغيرًا للغاية، بالكاد تصل يداه إلى العربة. لو كان لي الحق في تلك العتمة أن أصفه لقلت بأنه كان يرتدي حُلّة أنيقة للغاية. تعلّمت من عملي كطبّاخ بأن أتعرف على أنواع البدلات شيئًا ما. لذلك أعتقد أنه كان بذلة سهرة كلاسيكية، بها طيّة صدر بخيوط لامعة. كان مشهدًا يعطي انطباعًا كوميديًّا تمامًا. ربما أنه كان في مرحلة البلوغ، وأنه قد ورث هذه البذلة التي يلبسها عن أحد العمالقة، فأخذت تخفق وسط هواء مجفف شعر ساخن وجاف، مثل القميص الذي تلبسه "إيما".

كان في إمكاني في ذلك الوقت أن أتفوه بأي شيء أريده: مثلًا أن "السماء ملبّدة بالغيوم التي تسير بجنون عكس الاتجاه"، أو "احبس نَفْسك وسط ريش الطائر، واخرج معه إلى الهواء الثائر عند سفح جبل "كايلاس"، أو "ماذا حدث لكَ؟ لقد تبدّلت أحوالك تمامًا!" لكني في النهاية لم أقل سوى: "ماذا تريد؟".

نظر إليّ الرجل الصغير من خلف زجاج نظارة سميك، لم أرَ مثلها في حياتي. اقترب مني تمامًا حتى شعرت بأني سأنشطر إلى نبعَيْ ماء متجمدين. نبت فوق ذقنه ووجهه وكل رأسه شعر ناعم أبيض يشبه فرو الأرانب. لا أدري لماذا تذكرت في تلك اللحظة إحدى الحظائر التي دخلت الرياح من بابها المفتوح، ودفعت إلى داخلها هبّات رياح حادَّة. ذات مرة، في يوم رأس السنة عام 1989 كنت هناك أقطع الأخشاب، لأول وآخر مرة في حياتي. عندها رأيت حيوانًا ما عند عتبة الباب. كنت أشق لوحًا خشبيًّا بالبلطة، فتطايرت قطعة من الخشب، أصابت أحد الأرانب بين عينيه مباشرة. أم كان ذلك كلبًا؟ لا أتذكر على وجه الدقة. فقد حدث ذلك منذ زمن بعيد...

Twitter: @ketab_n

- سامحني أرجوك... لا أكاد أرى... فقد فصلوا الإضاءة بالكامل هنا في وحدة التحكم منذ وقت بعيد.

- وحدة التحّكم؟

- بالطبع. لقد قطعت شوطًا كبيرًا في طريقك، ثم تُهت، أليس كذلك؟ أنت الآن في...

ثم صمت في تدبّر، وانتفخت صدريته المخملية بكل فخر، وأضاف:

- أنت الآن في "وادي الحواسّ الخمس". أثناء النهار يمكنكَ أن ترى هذه المنطقة كلها مغطاة بصخور حمراء مستخرجة من مكان قريب من هنا. آه، يا إلهي!

شعر بأنني أعتقد أنه يسخر مني، فأردف قائلًا:

- لكن هذا كان منذ زمن بعيد... يمكنكَ أن ترى هنا وهناك آثار قواعد من برج المنجم، أو هيكل لأحد المصانع التي تداعت.

وبإيماءة عنيفة من أصابعه التي تشبه الفُرَش الناتئة من أكمام حُلّته المخملية أشار إلى أرض مفازة مترامية، أو بادية، أو صحراء، أو إلى المكان الذي كنا نقف عنده، ويمتد حتى الأفق الواسع، ثم يختفي في مكان لا تصل إليه أنظارنا.

سألته "إيما" باهتمام وكأنها تعرف ما يعنيه هذا الشخص:

- هل قلت مصانع؟

ظهرت بصمات شباك عميقة على ظهرها، وعلى ساعديها، وعلى مؤخرة ساقيها، في كل مكان فوق جلدها وكأنها آثار قفص ما كانت جاثمة فيه.

Twitter: @ketab_n

- كلا. لقد عملت هنا يومًا ما في مصنع للنظارات، لكن نظرًا لـ... لا أعرف ماذا أقول... نظرًا لخطأ ما في الإحصاء الذي قام به قسم الأبحاث...

خبط بأظافره على زجاج نظارته السميك بحزن ويأس، ثم أضاف:

- أتلقى معاش إعاقة منذ اثنين وستين عامًا.

صحت فيه:

- ماذا تقول أيها الرجل؟ نحن في مدينة براج، على أطرافها، وأعتقد أننا مررنا منذ لحظات بطريق الترام... مررنا أيضًا بحوض النهر، وعبرنا حدائق "هافيلتشكوف"، وعن قريب سنصل إلى منطقة "فيشاهراد".

توقف عن جذب العربة مني، لكنه مشى بتأنق بجواري. تحولت نظارته السميكة الآن إلى بطارية مضيئة تُوضع فوق الجبين، فرأينا الطريق أمامنا على بعد بضعة أمتار.

وفجأة صدر منه صوت عويل كاد الدم في عروقنا يتجّمد منه، وقال:

- نعم، يومًا ما كنت أعمل هنا في وظيفة مهندس. لكن ليس هذا ما أريد قوله. لقد فقدت في تلك الأماكن... أترون؟ أترون ذلك البرج هناك على يسارنا؟

لم أر أي شيء، ولم أرغب في معرفة أي شيء. لكن هناك أمر ما أرغب في أن أراه: جهاز التجميد العملاق الذي سأفتحه غدًا، وأعثر فيه على ما يهمني قبل كل شيء، على العناصر التي سأصنع منها شكلًا معقولًا للعالم.

- لم يبق في هذه الأرض القاحلة الخَرِبة على حالته سوى شيء واحد. انظروا إلى تلك القبَّة الذهبية التي تشبه رأس البصلة، وكيف هي في حالة جيدة...

قالت "إيما" بأريحيّة:

Twitter: @ketab_n

– ما معنى وادي الحواس؟ هل تقصد وادي الحاسة الواحدة؟ يبدو أن تلك الحلقة تسللت إليكَ هناك دون أن تدري.

انتشر وبر الأرانب وغطّى رأسه، ربما كان ذلك بسبب الضوء الذي أخذ يهتزّ في الهواء الحار، أو ربما كانت هذه هي طريقته في السخرية منا.

– ليس الأمر كذلك أيتها الكنز الفضوليّ.

بالفعل خاطبها بهذه الكُنيَة.

– لا أعني بكلمة حاسة أي شيء على الإطلاق، وليس للكلمة أي مضمون فكريّ، بل هي مجرد أعضاء يدرك بها الإنسان العالم الخارجيّ.

سحبت الهواء إلى صدري، كان بالفعل حارًّا وخانقًا. لو كنت متأكدًا من شيء في هذه الرحلة المربكة لكان غيابًا كاملًا ومدمرًا للبحر.

فاحت رائحة ما من ذلك اللاوجود، ومن ذلك الهواء الثقيل. فكّرت في مصدر تلك الرائحة. بالتأكيد ليست رائحة ذلك المهندس المُنشّي. مِلت برأسي على العربة. كانت "إيما" قد تخلصت أثناء الطريق من صندلها المطاطي الأبيض، والتصقت على قدميها تلك الشّبَاك، وفوق كعبي قدميها غُرز الشّباك. لا، لم تكن كعبيها، بل كان جُبْنًا مُتعفّنًا ذاب من أثر الحَرّ. غُرز شِبَاك! لقد رأيت شيئًا مشابهًا أخر مرة منذ أربعين عامًا. أصابني ذلك المشهد بدهشة كبيرة، ودفعني بقوة إلى مرحلة الطفولة التي خلت من "ريبكا" الجالسة على دَرَج مدينة الملاهي وسط وحل الأزهار السامة، وغَزل البنات اللزج. في وقت لم يكن هناك داعٍ للبحث عنها. ببساطة لأنها لم تكن موجودة بعد.

– آه، لو لم يكن هذا العجوز عاجزًا ومجهدًا لأفرغت كل ما لدي من طاقة في ترميم ذلك البرج، ولصنعت منه... ذكرى خالدة للكوكب الضائع، وللوطن

Twitter: @ketab_n

الذي زال – لكن هل ما زالت هذه الكلمة في القاموس بدون أية دلالات وطنية؟
– ببساطة أصنع منه مقبرة تذكارية للزمن الضائع.

وكأنه تذكر شيئًا كاد يفوته، وضع يده في جيب سترة بذلته العلوي، وأخرج منه ساعة يدٍ، ساعة كبيرة مثل الكعكة، أو ما يسمى بالبصلة التي كانت تتدلى من جيبه معلقة في سِلسلة.

– اللعنة! لقد مرت ساعة بين الكلب والذئب! يبدو أن وجبة هامة للغاية فاتتني. ولن أعثر فوق المفرش الملوث سوى على...

ابتسمت "إيما"، وقالت:

– خِلال أسنان وإبر؟

ثم حدث شيء غريب: ضحك كل منهما وكأنهما سمعا للتوّ طُرفة نادرة للغاية. سحبت "إيما" الإبرة من قلبها على طريقة السّحَرَة، ثم أعطتها للمهندس. شكرها المهندس بانحناءة النبلاء، ثم رشق الإبرة في طيّة صدر البذلة اللامع وكأنها دبوس ذهبيّ ثمين. ثم أخذ يتطلع بسعادة إلى تلك الحلية التي لم يتوقعها، ثم اقترب برأس الأرنب البيضاء من أذن شقيقتي. شعرت باستياء يتصاعد في داخلي، فتوجست همس صوتهما:

– أعتقد أنكِ سألتني عما فقدته هنا.

وعلى الرغم من أنهما كانا يتحدثان بالقرب مني، وكنت أصغي إليهما، جاءني حديثهما وكأنه نسيج صوتي مُمزّق، أصوات تتداخل بلا معنى، وتتعامد وتتشابك مثل قطعة نسيج لتشكل زورقًا على جزيرة ممنوع عني دخولها. ألم تتضرع إليّ وتستجديني في الهاتف كي أساعدها في العثور على ابنتها! والآن تحيك المؤامرات العبثية منع هذا الأرنب؟

Twitter: @ketab_n

مدت "إيما" يدها في إحدى الحقائب البلاستيكية، وأعطت ذلك المهندس قطعة بصل. ابتهج، ثم قبض عليها بكفِّه وكأنه اكتشف طريقة تسمح له بمواصلة لعبة الصراع.

- البصل. إنه في الواقع هو هذه الساعة التي تعلقها في السلسلة في جيبكَ العلويّ، وبندولاها الصغيران يدقان بلا هوادة وباضطراب مثل إبرتي المغناطيسية. البصل. إنه تاج ذلك البرج الذي لم يبقَ غيره، البرج الذي تريد أن تقيم فيه متحف للزمن. وهذه البصلة يمكنكَ أن تقشّرها قشرة وراء الأخرى، طبقة بعد طبقة، حتى تصل إلى الطاقة الأولى التي صُنِعَت منها.

تذكرت ما قالته عندما التقينا في المرفأ أمام متجر "إيكيا": إن حياتي تجمّعت في شهرٍ واحد، تجمّدت في شهر فبراير وكأنه رغيف من الخبز. كانت شقيقتي تُسمّى "أونوروفا"*، وكانت عالقة فوقي في السماء مثل رسم ساخر للخداع البصري.

خبطت الكرباج في الهواء خلف الأرنب، وقلت:

- انصرف فورًا من فضلكَ!

والغريب أنه اختفى على الفور، وإلى الأبد. وكأن الظلام الذي يلفنا لم يكن سوى تجويف مظلم في أسطوانة سحرية. ما زالت أسمع عويلًا حزينًا حادًّا وصارخًا في قاعها:

هذا الكتاب... لو عثرتِ عليه صدفة، ليتكِ تسطرينه بنفسِك... فأنت تعرفين شكله.

---

* "أونوفروفا" هي صفة من كلمة فبراير – المترجم.

Twitter: @ketab_n

وهنا حدث شيء غريب. بمجرد أن اختفى الأرنب اختفت "إيما" هي الأخرى معه. بدأت أفتش في محتوى العربة التي اختفت فيها. أمسكت سمك الرّنجة والمحار، وأدخلت أصابعي في خياشيمها، فعلِقت في العُلَب، وسال عصير الطماطم الأحمر من جوفي، وتلوث قفازي بلون الفلفل الأخضر. لم تفارقني الدهشة، كيف خططت لإدخال السعادة على مشاركي الحفل الذين يقتاتون على الآراء، فضلًا عن أنهم نباتيون. وهنا أمسكت بالطبق الذي وضُعِت فيه الأحشاء الحمراء المغطاة برقائق بلاستيكيّة شفافة.

عثرت عليها أخيرًا. كانت متقوقعة في أحد أركان العربة. صغيرة تمامًا، وضئيلة مثل حبة الأناناس، وتخرج من رأسها أوراق خضراء صلبة.

ليكن ما يكون. واصلت السير في "وادي الحواس" الذي لا ينتهي. كل ما أعرفه أن هدف هذه الرحلة خالٍ من أي معنى أو فكرة. ببساطة كان يجب أن يحدث. فالإرادة التي لم أمتلكها يومًا كانت تتراقص أمامي مثل الرمال التي تتراقص في نماذج مجهولة ولافتة للانتباه.

في تلك اللحظة شق السماء برق أبيض لامع. توقعت أن يختفي سريعًا، ويغرق في الظلام. لكنه بقي هناك، وظلّ يخفق بعيدًا في السماء مثل لعاب يسيل. وفجأة اختفى من حولي كل شيء، كل ما كان يشبه الأرض العامرة، وما يشبه الوادي. اختفى حي "بودولي". اختفى كل ما بدا من بعيد على أنه يشبه شيئًا ما. وقفت بعربة المشتريات عاجزًا عن فعل أي شيء. وقفت في جوف العدم، في قلب الفراغ الذي يضيئه لعاب سخيف. لم يكن في الإمكان وصف ذلك اللاوجود لكل شيء. استدار وجهي في ذلك الفراغ، وتحوّل إلى دائرة، إلى ثعبان يقرض ذيله، إلى طوق ملتهب سأقفز فيه إلى العالم الآخر وألتحق بالآخرين.

Twitter: @ketab_n

رغم ذلك تخيلت وكأن شيئًا يهتزّ هنا وهناك في ذلك العدم، ويشتدّ مثل الوتر، ربما بداية تكون بداية أو ميلاد رؤية، أو مَسْمَعًا، أو ملمسًا أو تذوقًا... ميلاد الحواس الخمس المستعدة لأن تخلق صورًا، وأشكالًا، وألوانًا، وكأنني دخلت بعربتي إلى حاسة طبيعية، غير مزدوجة.

جلجل الوتر، وقال: "شنوياتا..."، فأجابه وتر آخر: "شنوياتا..."، لكني لم أتمكن من الانضمام إليهما. لمست الوتر بإبهامي برفق شديد، وأضفت نغمة إلى ذلك الفراغ الذي يصدح. وفجأة شعرت بأن "بيتر بوبل" يذوب مثل زبد نسيه أحدهم في الشمس، شعرت بأصواتي وإيماءاتي ووجوهي المستعارة الكاذبة تدخل إلى الفراغ الذي يتجرّعها. انكسر الوعاء واختفى، واتحد الفراغ الذي كان بداخله مع الفراغ من حوله.

لمحت حلقة بلاستيكية في فتحة في العربة. فسحبتها بإصبعين من يدي، وألقيت بها في العدم على خط مستقيم. وحتى هذه الحلقة ارتطمت بالأوتار فجلجلت، ثم ذابت في وعاء خالٍ من الازدواجية.

بدأت أتفحص أطباق اللحم المبعثرة حول "إيما" بعيني خبير، وأنا أتوجس خيفة. لم أجد على ظهر الأطباق الملصق الذي يحتوي على بيانات حول المنتَج. فضضت الغطاء البلاستيكيّ بحذر، ثم مددت أنفي أشتمّ رائحة اللحم الأحمر الطري. وكأنها أول مرة في حياتي أستعمل فيها حواسي، فأخذت أتعرف عليها باللمس، والشم، والنظر. ليس هذا فقط، لكني مررت بأذني فوق جسم الأطباق عَلِّي أسمع إجابة.

- هل عثرنا عليها يا شقيقي؟ أخبرني أننا سأحتضنها قريبًا...

اهتزت الأوتار بجنون، واحد بعد الآخر. ارتطم أحدها بوجهي بينما أنزع آخر غلاف بلاستيكيّ من عليها.

Twitter: @ketab_n

جميل أنكِ قابعة في ركن عربة الشراء، لا يراكِ أحد بعد أن تحوّلتِ وصرتِ لا تدركين ما يحدث. أعطيتكِ ظهري، ثم أحكمت قبضتي على قلب ابنتكِ.

- يسعدني أن أدّعي الصراحة والوضوح، رغم أنكِ غالبًا مُنزعِجة مني. لا يمكن أن يتحمل أحد المسؤولية بدلًا عنكِ، مهما استهزأتِ بها، وتهكمتِ بكل مُصلحي العالم الأغبياء، وأطباء العالم النفسيين. بالمناسبة، إنها مسؤولية تتحملينها نيابة عني وعن نفسكِ. هل ما زلتِ مهتمة بالأمر؟ لا أعرف... جبال من الكذب – منذ متى وأنتِ تُكدّسين الثلوج بيني وبينكِ – حجبت وحملت كل الأفعال وكل الكلمات الأكثر رحمة التي تثقين بها... اعثري على قوة، واستمعي إليّ. وعندما يصل إليكِ صوتي وسط هذا الضجيج الصادر من دائرة متمركزة حول ذاتها، عندما تستمعين إلى الآخرين، ستتغلبين على حالة الإدمان التي تعانين منها. إن القول بأن الإدمان مرض هو تفسير ساذج لا يليق إلا بأشخاص محطّمة تمامًا.

"ماذا حدث لكِ؟ صرت امرأة غير المرأة التي أعرفها". وصَلَت عند الباب، وعلى ظهرها عبارة تقول: "إنسان جميل في كوكب فاسد". ثم التفتت نحو "ريبكا". قالت: "سأنتظركِ في الخارج"، ثم أمسكت بمقبض الباب. ظهر خلف الباب بدلًا من الدهليز طريق مهجور تكسوه كتل الثلج، يرتفع ثم ينخفض. أرادت أن تزحف على يديها ورجليها، وتلتهم كل الثلوج. لكنها لم تقوَ على أن تبرح مكانها، وبينما "ديتا" تبتعد وتختفي تدريجيًّا، تلتفت وتصيح:

- أنا ذاهبة إلى الشمال!

ربما قد نلتقي في حياة أخرى. يدها التي نمت عليها آلاف الأصابع تمسك بمقبض الباب في تردد. هبّت رياح قوية فوق شِبَاك معلقة بين صورتين،

Twitter: @ketab_n

وعصفت بكتل المَقَاطِع من فوق الطاولة الصغيرة. لم أعرف من أين جاءت تلك الرياح، بينما النافذة مغلقة.

"كلماتكِ: هُبّي أيتها الرياح! شعرت ببعض الإهانة، فاختفت. رغم ذلك أنا واثقة بأن خلف الوجه العابس إنسانًا مختلفًا عن الحشود غير الآدمية. ليتني أحتضنكِ، ليتكِ تأخذينني في أحضانكِ – سيحدث، سنلتقط أنفاسنا، وسنلقي بهذا الزمن المُستبدّ في القمامة. ربما. ديتا".

***

تقف "إيما" مع "ماريا" عند النافذة ووجهاهما ملتصقان بزجاجها. تقول "إيما":

– هناك في ذلك الضباب تترنح اللحظات. عندما غادرت الحافلة نسيت أن ألقي عليها التحية. لقد وصلت متأخرة عن موعدي، لم أرَ جُعودة وجهي، لم أسمع صوت الوتر، ملأت الصمت بالكلمات، لم أزل القيد عن "إيرينا"، فقدت ابنتي أثناء الرحلة. اتفقت مع أخي على أن نلتقي أمام متجر "إيكيا"، ولم أذهب. تدور هذه اللحظات هناك، وتتمايل ثم تضل الطريق. هناك أيضًا لحظات جعلني فيها أحدهم أستسلم للنوم بنظرات من عينيه، وليس العكس، ونسي أن يوقظني.

قالت "ماريا":

– لدينا بيت ريفيّ في مدينة "بِرونيكا". بجوار النهر مباشرة.

– النهر هناك، خلف النافذة.

Twitter: @ketab_n

بحثت "إيما" في جيبها عن الخطاب الذي أرسلته لها "ديتا". خطاب مطويّ على شكل مُربَّع. يشبه صندوقًا صغيرًا. وقفَت مع "ماريا" وهي في صندوق صغير صنعته من كلمات "ديتا"، وألصقت وجهها بزجاج النافذة.

- خلف النافذة يوجد مطعم هاواي للبيتزا، مطعم ضخم يشبه إطار السيارة.

- خلف النافذة صحراء ممتدة وشاسعة.

- خلف النافذة يوجد حوض استحمام مفعم بالرغوة.

- خلف النافذة صمت مُطْبِق، وحوض عواصف، حوض عواصف.

واصلت "ماريا" حديثها:

- هناك خلف النافذة.

ثم توقفت فجأة، وسحبت وجهها من فوق الزجاج، ثم التفتت بوجه زجاجي مُنْفَطِر. ظل وجهها الآخر الهادئ الرقيق مثل مشهد المدينة عالقًا فوق زجاج النافذة.

- جاء أبي لزيارتي.

- هل أعاد التفكير في قضية الأهلية؟

- لم نتحدث في هذا الأمر. أخبرني أن...

ثم صمتت "ماريا"، وأخذت دمية من دُمى الملكة البيضاء من فوق مقبض النافذة، وأخذت تفكّها. وبعد لحظات صمت طويلة قالت:

- إنه مصاب بالسرطان.

Twitter: @ketab_n

اختفت الدمية بعد أن مزّقتها، ولم يتبق منها بين أصابعها سوى خيوط ملبدة ومتشابكة.

استحثتها "إيما" قائلة:

- واصلي تمزيقها!

ضحكت "ماريا"، وقالت:

- يعجبكِ هذا الأمر! هذا المبنى، والطبيبة "فاسالا"، "رامبو"!

ثم وضعت غطاء الرأس في سترتها فوق رأس "إيما". ومشيا معًا تحت غطاء رأس واحد. غطاء فوق صندوق من خطاب. الخطاب يتلوّى في نهاية مزمار من الكريستال وسط فقاعة زجاج مائجة وفائرة. يبرد الزجاج ويحول إلى كوب. كوب به حليب كسرته "إيما" يومًا، لكن الحديقة ما زالت مختبئة فيه حتى اليوم. يمكن أن تتخيل أي شيء آخر غير تلك الحديقة.

- كل ذلك كان بسببي أنا. عانى على مدى عشرة أعوام بسببي أنا. يرفضون أن يعرفوا حجم المكاسب التي حققتها من وراء الهيروين.

- وأنا أيضًا لا أريد أن أعرف. خلف الزجاج...

- أبي يعلمني السفر إلى بيتنا الريفيّ على دراجة نارية ماركة چافا 250.

أخذ غطاء الرأس يتأرجح وسط اللبن، وسط أمواج من الضباب والخيوط السائلة مثل زورق تجديف في نهر "بيرونكا". رأت "إيما" فتحة مستديرة وصغيرة في الغطاء. انتظرت أن يظهر السقف، لكنها لم ترَ سوى مليارات من النجوم. تعجّ وتلمع مثل أظافر الأطفال، تحوم في نهاية مزمار من الكريستال وسط فقاعة زجاج مائجة وفائرة.

Twitter: @ketab_n

ابتسمت "ماريا"، وقالت:

- يمكنني أن أخبركِ بأنني ذات يوم...

ثم التصقت بوجهها فوق الزجاج مرة أخرى، وتابعت:

- ذات يوم كنت في حاجة ماسَّة إلى الأموال، فدخلت إلى أول متجر لاح لي. كان به أشياء في منتهى الغرابة. لم أعرف أين أقف على وجه التحديد. حوض سمك ضخم بجوار أحد الحوائط، تسبح فيه ذهابًا وإيابًا سمكة طويلة ورفيعة.

- ربما كان ثعبان البحر.

- لا أعرف، لكنها كانت تشبه كثيرًا البائعة التي كانت تقف هناك.

قرّب أحدهم الكأس من فمه، وجاب المبنى رقم 8 من أوله. كان غارقًا وسط ردائه الأبيض، ثم اندسَّ في مدخل شيء ما. ظهرت يد وسط الضباب، وقدّمت لـ "إيما" بيضة بداخلها هديّة: كان في البيضة بيضات أُخَر لا تنتهي. كل بيضة بداخل الأخرى، وفي آخر بيضة ظهر غطاء الرأس أزرق، يلمع في زجاج نَجمة حبيسة.

- التقطت أول ما وقع في يدي، وبدأت في الهرب. لم أكن موفقة تمامًا. فقد كانت بذلة ثقيلة للغاية.

- بذلة ثقيلة. كيف؟

- بذلة مطاطية يلبسها الغواصون.

- مطاط صناعي.

- نعم، مطاط صناعي. وأمسكوا بي على بُعد بضعة خطوات، وبسببها دخلت السجن. لن تصدقي كم كانت غالية الثمن.

Twitter: @ketab_n

وصل إلى سمعها صوت نداء، جزء من اسم امرأة ما. لم تسمع "إيما" منه غير كلمة "السيدة" -، وراحت كلمة "السيدة" هذه تتردد وكأنها عَلِقت في قيثارة ما، تبتعد عن الزجاج ثم تختفي.

نظرت إلى الحديقة، فرأتها بين شقوق الضباب، رأتها. رأت "ماريا" الصغيرة وهي تتعثر ببذلة مطاطية تحملها، وتسير فوق الرصيف. وأصوات إطارات السيارات تصدر حفيفًا خافتًا من حولها. دُمَاها تكشّر عن أنيابها، وتعرض أمامها عالمًا أفضل. تتفادى الأقواس، وتجرّ حُلَّة من المطاط في ضوء واجهات العرض، ومن حولها دائرة تعجز عن تجاوزها. تجرّها خلفها، تجرّ خلفها جوالًا محكم الإغلاق، على مدى عشر سنوات كانت خلالها حيّة وميّتة، مثل ظلها الذي التصق بها، مثل والدها المريض.

عين البيت تراقبها، وفوق العين الأخرى شريط ضخم لإحدى الإعلانات. لم تُزعِج المرأة السمينة نفسها بارتداء القناع. بذلة المطاط، السرقة البسيطة، وحادثة السطو الفاشلة، تنهض وتدفع "ماريا" أمامها بكل ازدراء. ثم تدفعها إلى قلب المدينة القديم المتهدّج في الهواء مثل ذكرى. تدفعها إلى بانوراما في لوحة لن تجد فيها ما تبحث عنه. لوحة سرقتها أيضًا من متجر ما. التوى عدد لا يحصى من الشّفاه متعجبًا، ثم موبخًا، قبل أن تتداعى عليها المدينة، وتضمّ يدها خلفها ظهرها.

إنهما معًا وسط غطاء الرأس، ورغم ذلك ترى "ماريا" وهي تهرول هناك فوق رصيف الشارع عند التقاطع. ليس هي من يسحب الحُلَّة، بل تلك الحُلَّة المطاطية هي التي تجرّها وراءها، وتجوب بها وهي مفعمة بالحياة مثل حيوان طفيليّ عملاق وسط شوارع ذابلة وخاوية.

- أتسمعين؟

Twitter: @ketab_n

- أتسمعين الأم تريزا. إنها تبتسم. تبتسم هكذا منذ ثلاثة أيام.

- كلا، إنها تنادي على شخص ما. تكرر بلا انقطاع اسم "شفارزوفا"، "شفارزوفا"، "شفارزوفا"...

- لا يوجد هنا شخص بهذا الاسم على حدّ عِلْمي. انتبهي أيتها الغبية! إنهم ينادونكِ، عليكِ أن تذهبي ليسجلوا وزنكِ.

تبدد الضباب في الخارج. أخذت تراقبه للحظات. كلا، لم ينقشع. ربما يكون هناك من يقف في ذلك الحليب، في موجات الضباب تلك، في الخيوط السائلة.

خرجت إلى الدهليز، وبالفعل: كان كل القسم يعجّ بضحكات "كارميلا" التي انتشرت مثل تيار هواء ثلجيّ. كانت الملكة البيضاء جالسة خلف الطاولة، منتصبة القامة، فتحة صدرها الواسعة تملأ المكان، وتحرك يدها في الهواء بقوة حتى تجفف طلاء أظافرها. وبدا الأمر وكأنها هي من يقود موجة الضحك العارمة.

- يا سيدة "تشيرنا"، هيا إلى الميزان، هيا! ثم إلى رئيسة المرضات. فهي ستأخذكِ إلى قسم المراجعة. مبروك!

أومضت عن ثغر بخطين بيضاوين لا ينتهيان، ظلا يتسعان حتى انشطرا بشكل احتفالي. ظهر أمامها مفترق طرق، بدا من بعيد وكأنه رقعة شطرنج.

أخذت تكرر، وتزيد:

- مبروك... مبروك يا سيدة "تشيرنا".

ثم بسطت في يدها صفًّا من الكروت على شكل مروحة، من بطاقات اللعب الممنوعة في القسم. لم ترَ غير ظهر البطاقات. بينما الملكة البيضاء تسهب في الحديث بكل حماس وبوجه ممتلئ بزهوة الانتصار:

Twitter: @ketab_n

أهنئكِ على أنكِ ستصبحين قادرة على كتابة يومياتكِ، الحد الأدنى للموضوع الواحد عشرة أسطر، وانتبهي؛ بقلم رصاص! فلا تنسي أننا هنا في جزيرة – لا وجود لأية أجهزة إلكترونية، ولا هواتف محمولة، ولا إنترنت – فحدوده المثالية تنتشر في الحديقة. لو كان الموضوع إيجابيًّا بصورة كافية فسوف يرسم لكِ المعالج النفسي باقة ورد. كما أهنئكِ على أنكِ ستصبحين قادرة على الرقص بصورة بكل تلقائية. وعندما يخبرونكِ أن عليكِ أن تدخني في دقائق معدودة من وقت الراحة أثناء برنامج غنيّ ومتخم مثل بالأحداث مثل براج المعسكرات في مكان أرضي مخصص للمدخنين، عليه لافتة تقول: «التدخين ممنوع خارج الزمان والمكان» ستشعرين هناك في ذلك المكان الصغير لأول مرة في حياتكِ بالألفة الحقيقية مع الكائنات البشرية. ببساطة لأنكِ لن تعرفي وسط ذلك الدخان الكثيف الخانق أين تنتهين وأين يبدأ الآخرون. عندما يقولون لكِ ذلك فلا تجادلينهم، اندمجي معهم ومع النظام، عليكِ أن تصبحي جامعة متعصبة للنقاط! أيمكنكِ أن تفعلي ذلك يا سيدة "تشيرنا"؟ بالله عليكِ لا تضحكي! فأنا لا أبالغ في شيء! إنكِ ستلاحقينهم، مثل كل السيدات الأخريات، دون فرق في العِرق، أو السن، أو التعليم، أو الدين. يومًا ما ستمسك بكِ الممرضة وأنتِ تقبلين صورة كيرت كوبين* التي أخذتيها من إحدى المجلات، وألصقتِها فوق الجدار، وهو أمر ممنوع. سيصيبونكِ بيأس شديد، وبشعور بالذنب. درجات السلم الذي يقود إلى غرفة التدريب حيث تحبين مراقبة من يتحركون خلف شِبَاك النافذة، فتعجبكِ مراقبة العالم من نصفه السفليّ، وتَرصّد جوهره الخرافيّ. تحاولين أن تصنعي من الأجزاء كُلًّا شأن علماء الآثار. ستقفزين فوق ذلك الدّرج الذي يؤدي إلى غرفة التدريب، حجرة الاعتراف الجماعي المغطاة بالشّبَاك، درجتين في خطوة

* مغني روك أمريكي مات منتحرًا (1967 -1994) – المترجم.

Twitter: @ketab_n

واحدة. ستتقيئين قليلًا، ثم تشعرين بعدها بالراحة. ما العيب في "رامبو"، ذلك الوحش الأبيض الذي يتمدد غاضِبًا من عند طرف عقلكِ الباطن حتى طرفه الثاني وكأنه جبل من الثلج، ما العيب في أنه يقتحم الغرف منْ وقت لآخر، ويغزوها. ما العيب في أن هذا القليل الذي تملكونه هنا ينهار، ويتحول إلى كومة كي يقتنص منكم كل ما هو ممنوع؛ حبتين من الإيبالجين*، وشامبو يحتوي على نسبة من الكحول تودون لو تشربنه في لحظات الضعف. كريم مضاد للتجاعيد به نسبة من الكحول يمكن أن تأكلنه في أوقات اليأس، ثم تضغط على الزناد بنظرة ملتهبة، فتشتعل، وتُحوِّل النيران البيضاء عند سفح جبل الجليد جميع الخطابات إلى رماد. على أي حال أنتُنَّ تحفظنها عن ظهر قلب. وتتذكرن أيضًا تيشيرتات "فلادينا" الدعائية، وحكايات الأخوين "جريم" التي تقرأنها في الغرفة قبل النوم، فلا تنمن إلا هُجوعًا. يعوضونكن عن ذلك الضرر – فيسمحون لكنَّ بمشاهدة فيلم عن «چوني كاش»*، وبعد عشر دقائق سترون أن تناول الـ "بنزوديازيبين" بمساعدة الكحول غير صحيّ. وشيء آخر يا سيدة "تشيرنا"! نعم، أنتِ بالتحديد، سيجازيكِ "رامبو" بشيء آخر: سوف يرافقكِ في أول خروج لكِ، سيُبْهِرك ضوء الشمس، وستصابين بالهلع من براعم الكستناء النَّمِلة، ولا تقوى قدماكِ على حملكِ، فيصيران مثل ركيزتين خشبيتين هزيلتين لا يتبعانكِ. ستسألين الساعة: "إلى متى سيبحر من فوقي في سماء فبراير زوجي الصندل البيضاويان؟ منذ متى وأنا هنا؟ فتجيبكِ الساعة بفم واسع، وحلقوم وأحبال صوتية مثلها مثل كل الساعات، وتقول: "ثانية واحدة. ألف عام. أنتِ لم تذهبي إلى مكان آخر من قبل، وسيحدث هذا ربما للمرة الأولى". إنه فصل الربيع. تابعي الأسفلت

---

* عقار مضاد للالتهابات – المترجم.

* موسيقي أمريكي شهير (1932-2003) – المترجم.

Twitter: @ketab_n

بانتباه. بذلك يتقلص الألم. حتى ذلك الأسفلت ليس كغيره، فهو مختلف تمامًا. ورغم ذلك فإن كل شيء – غلاف حلوى، ومحرّك سيارة يجأر، صرخة، وكِسرة حجر، ومسمار صدئ – ينبض بطاقة مخيفة تُذِيب الأشتات، وتحولها إلى مادة واحدة متجانسة، إلى خليط من الألوان الأصوات والحركات التي تحررت من حواسكِ. تمرّ بحشدكِ الذي يجرّ نفسه حزينًا، زلاجات بعجلات، وعربة إسعاف، ومريض من مبنى آخر يدسّ وجهه في شِبَاك السور، ويعقد وجهه على نحو غريب، ويمد لسانه عبر تلك الشّبَاك، ويصيح فيكِ: مَعيبة! مَعيبة! مَعيبة! ويواصل بدون توقف. ربما كانت هذه هي كنيته، ويريد أن يقدم إليكِ نفسه. تتعانق الطرق، وتتفرع، وتصير كثيفة. وتتحول الحديقة إلى مَتاهة. تصبح الحديقة متاهة من المتاهات. ويصبح ذراعا "رامبو" مثل لوحات إرشادية من الصفيح. تعرف الطريق. فالمتاهة هي بيته. تتراجع بعض النسوة الشجعان إلى خلف الموكب ليدخنّ بكل حذر. تدخنّ سيجارة تخبئها في كفها. وتنفث الدخان في الأسفلت وهي جاثمة. تسمعين اثنتين منهنّ وهما يتبادلان وصفات الدواء في هدوء:

– هل جربتِ الصمامات الشرجية؟

– لا، لا أعرفها.

– إنها بسيطة، وسريعة ولا تؤذي الكَبِد. يكفي أن تضعي نقطتين من الفودكا، ثم تدسّينها في مؤخرتكِ. هذا هو كل ما في الأمر. اِحسبيها! وسترين كم هي اقتصادية! لو تعاملتِ معها بحرص فستكفيكِ حزمة منها لمدة ستة أشهر. ستمرين بشجرة زُعْرور نابتة، وستدسين فيها وجهكِ. ولن يصبح ذلك اليوم في فصل الربيع مزعجًا، بل على العكس. سيدفعكِ فوق السلك اللولبيّ وأنتِ تمشين على ركائز، ويجعلك تَثِبين فوق أرجوحة البهلوان. ستمرّين ببوابة مفتوحة،

Twitter: @ketab_n

فتجدين نفسك في إحدى المزارع. أمامكِ قفص به قرد جاثم وكسول، يشبه رجلًا عجوزًا. النساء ملتصقة بالشّبَاك وكأنها تريد أن تعتصر ذلك الغبي المبتذل البائس في أحضانها. يمددن أيديهن من بين الشّبَاك وهن يصفرن له، ويصحن فيه بطريقة غير آدمية. فينهض ذلك الحيوان قانطًا، ويتقدم إلى حشود المجانين ومدمني الخمر الذين يهزّون جدران بيته بعد سنوات لم ينعم فيها بالراحة. ويتقدم إليهم مكشرًا عن أنيابه، وبعينين مسدلتين وهو على حافة الغضب. يبدأ في الخبط على الشباك بأطرافه الطويلة وهو يصرخ. تستديرين خلفكِ، لكن "رامبو" يأخذ الحشد الثائر، ويسير به بمحاذاة قفص مليء بالقطط، وآخر بالكلاب، ثم تتوجه إلى مرعًى محاط بسياج.

تلتفت "مارتسيلا" نحو مديرة المتاهة، وتقول بتزلّف:

- أيتها الممرضة! سمعت أنكِ وزوجكِ اشتريتما حصانًا – هل سنراه؟

فيتطاير فوق وجه "رامبو" الخاوي، والقاسي مثل البادية شيء قادم من بعيد يشبه ابتسامة مُتملقة. فتهزّ رأسها لكم في صمت، وتدخلون خلفها إلى إسطبل مُعْتِم. الهواء فيه ثقيل، والأرواح في قدس الأقداس تفوح رائحتها. وتلبس رؤوس الخيل. طنين الذباب، وحفيف الأصوات، وتنهدات، واصطكاك أسنان. لكن الممرضة تأخذ حصانها من الإسطبل كي يتشمّس. فتُبْهَر النساء، ويعبرن عن دهشتهن، وإعجابهن. وتظل ابتسامة متحجرة لا تغادر البادية. انطبعت عليها وكأنها نهر مسحور واهب للحياة. وبحركة قوية ورقيقة تربّت صاحبة الحصان على كتفيه ورقبته، ثم تسحبه من اللجام، فتلتئم حولها وحول الحيوان دائرة تتسم بالاحترام، بالطبع لا تسمح النساء لأنفسهن أن يتقدمن منه أو يهذين معه كما فعلن مع القرد. ربما لأن اسمه "كارفيتش" كما سيعرفن لاحقًا. صرخات

Twitter: @ketab_n

الإعجاب المتصاعدة تقرع ذلك الفحل فوق مؤخرته. إنها مؤخرة مستديرة على نحو رائع، تبتهج لها "مارتسيلا"، وتقول بحذر:

يا إلهي، أيتها المرضة! إنه لائق بكِ تمامًا. أرينا كيف تمتطينه! ناداها الآخرون – باستثناء القليل منهن – بلقب: يا آنسه "ماريا". يا سيدة "إيما" طبعًا – وانضموا إلى الطلب ذاته. نسين الغارات، وروّضن المتاهة. العجيب أن المرضة تقفز فوق السّرْج بخفّة، وتتسمر فوقه بلا حراك. يصمت الجميع، و"رامبو" ساكن فوق الحصان لا يتحرّك، وكذلك الحصان الذي طالته عدوى جفائها. الدائرة والحديقة، البادية ونبتة الزعرور. كلها غرقت في الصمت، وكأن كل شيء قد اختفى فجأة أسفل سطح الماء، وكأن المشهد كله تحول إلى عنصر آخر. ربما، وكما يُقَال، كان ذلك صمتًا مطبقًا، لولا صراخ القردة الثائرة الذي يصل إلى هناك، في أحلامكِ يا سيدة "تشيرنا". جلس "رامبو" فوق الأرجوحة منفرج الساقين، وهو يدفع نفسه بقوة. ما زلتم ترونه وهو يوثِق السيدة بالسرير ممسكًا بها بكل قوة، حتى أن مِعْصَم الملكة البيضاء صار مخضّبًا بالدماء في اليوم التالي. لكن النصب التذكاري المتمثل في "كارفيتش" صار خاليًا من أية حركة أو إيماءة. لقد ظهر الوحش الأبيض من ذلك الحصان الأبيض، واتحد معه، وكوّنا معًا جسدًا واحدًا أجوف من الجبس. تراجعت "ماريا"، وشعرت بخصرها يلتوي. هل ستتقيأ، أم ستنفجر في الضحكِ. كل هذا ينتظركِ في قسم المراجعة، وأكثر منه بكثير. كوني وعاءً أو سلّة! أو حتى امرأة تغزل نسيجًا، لديها إبهام كبير مثل النحاتين. كل هذا تحت سقف مبنى العلاج المركزيّ. في كنيسة القديس "فاتسلاف"، حيث يجمع فيها المهندس المعماريّ "روشتلابيل" العناصر الرومانية بعناصر الفنّ الحديث البسيطة. هناك ستستمعين إلى كلمة الرّب أثناء ساعات العلاج بالقراءة. شِفاه القِسّ عذبة وطرية مثل الفاكهة المطبوخة. لكن نظرته تشبه

Twitter: @ketab_n

معدنًا نفيسًا مبتورًا ينتظر من سيسقط فوقه. تجلسين في دائرة، كالعادة، في وسطها توجد فوق إحدى الوسائد كُرَة برَّاقة صغيرة تحاكي شكل اللؤلؤة. دائرة تدخل في دائرة أخرى، الأولى في الثانية، والثانية في الثالثة، ثم تلتئم ببعضها، وترتطم، وتصنع سلسلة طويلة تتسلل إلى الحديقة مثل الثعبان. تحكم قبضتها على المباني، وتضغط عليها، فتحولها إلى فُتات. فتفتح إحداكن قلبها، قلب الربّ الذي يشبه الخيمة، أو أكواخ الهنود الحمر. إنه قلب إحداكن، الأبيض مثل كوخ سكان الإسكيمو. يخبط حصان "رامبو" الأبيض في أحشائه، ويصهل. شيء ما يشعّ بياضًا في كفّ القسّ. ربما تكون حبة سُكّر سيقدمها للحصان، فيلقي بها في قلب مفتوح، يقذفها في قلب واحدة منكنّ كي يحصل على الجوهرة. لكنه الآن يفتح الكتاب المقدّس. لكن أرجلكن، أنتم الجالسون في شكل دائرة، تنوء بذلك المجلد الذي يشبه قطة كبيرة سوداء. فيخرج فجأة صوت جهير قويّ من أفواه عذبة. تطرف الأم تريزا بعينيها طرفة مباغتة بعد أن كانت تتأهب لأخذ الكرة اللامعة. تطرف بحدّة مثل دمية أفزعها بكاء طفل غاضب.

وفي ذهابه حدث أنه اقترب إلى دمشق... يا سيدة "هيلجا"! اذهبي إلى الصفحة رقم 875، كلنا نفتح الكتاب على صفحة رقم 875! ...

"فبغتة أبرق حوله نور من السماء. فسقط على الأرض، وسمع صوتًا قائلًا له: شاؤول شاؤول لماذا تضطهدني؟ فقال من أنتَ يا سيد؟ فقال الرب: أنا يسوع... قم وادخل المدينة، فيقال لك ماذا ينبغي أن تفعل... فاقتادوه بيده، وأدخلوه إلى دمشق. وكان ثلاثة أيام لا يبصر فلم يأكل ولم يشرب".

صمت صوت القِسّ بشكل احتفاليّ. كادت عيني السيدة "هيلجا" تسقط من مقلتيها، ربما بتأثير التحول السحري لـ "شاؤول"، ليصبح بَافِل. حملت هبَّة

Twitter: @ketab_n

ريح صياحًا ثلاثيًّا من دِيك يقف في حدائق النباتات، فاخترق صمت القبور القابع حول الدائرة. لم يكن توقيتًا مناسبًا، فالقسّ سيدعوكنّ عند الصفحة رقم 804 لأن تشرحن له ما حدث في تلك الرحلة إلى دمشق، ومدى تأثركن بالحكاية. وسيحاول أن يتجاهل يد "كارومِيلا" التي تتحرك في الهواء، وترفض الإجابة. يدها، الشيء الوحيد الذي يتحرك في هواء الغرفة المتجمّد. فيستقر نظره على "فلادينا". تصمت "فلادينا". عندها سينتابُكن الخوف. وعندما تفتح فمها الممتلئ بلبانة تلوكها ينطلق صياح رابع. وبينما الجميع يترقب أن تحدث معجزة، تبحث في نفسها ومع صديقها الذي لم يبق منه أثر سوى تيشرتاته الدعائية عديمة القيمة. فيبدأ القِس بالهجوم. ترشق "فلايدينا" الكرة بنظرة طويلة مليئة بالحقد، نظرة ثقيلة زرقاء مثل الكرة الأرضيّة. ثم تنطق أخيرًا، وتقول: "الواقع أن ما حدث له أمر غريب. ربما أسرف في الشراب".

يدرك الجميع، باستثناء القِس، الشخص الذي كان "بافِل" يقصده. يحمرّ وجه القِسّ، وشفتاه، وكأن أحدهم قد دهنه له بالمربّى، ويبرز من عينيه نصلا سكين، يصرفهما باشمئزاز عن "فلادينا"، ويطعن بهما "هيلجا" بكل رجاء:

- وأنتِ، كيف تفسرين الحكاية؟

- إنها أَعْرَاض نوبة صَرَع تم تشخيصها بكل دقة.

ترد بكل برود في مقدمة محاضرة تستمر لعشرين دقيقة، يحاول القسّ عبثًا أن يقاطعها. السيدة "هيلجا" هي طبيبة أمراض عصبية. لا تتعجب السيدة "هيلجا" من الإنجيل، بل من تعاطي عقاقير الأمراض العصبية بصورة مفرطة ومتكررة. تتطاير المعجزة من وعاء العلم على مهل، وتختفي قلعة دمشق من المشهد وكأنها خلفية متحركة في المسرح. توقظ أحاديث الصرع اهتمام كل من في الحلقة. فكثير من مدمنات الخمور لهن تجارب مع

Twitter: @ketab_n

الصرع، ويشتعل النقاش. النساء يطاردن "هيلجا" بالأسئلة، وتصرخ كل منهن في الأخرى مع إيماءات وحركات بأيديهن، إلى أن تقذف إحداهن الكرة الملونة وكأنها كرة جولف. الكرة الجوهرة، الكرة التي هي بمثابة كوكب يتحرّك الجميع نحوه، لكن أحدًا لم ينتبه إلى هذا سوى الأم تريزا التي تحبو وهي تبحث عنها. القِسّ يصرخ، ويزعق، وتبرز أحبال أوردته فوق رقبته السميكة. لكن نقاش النسوة يحتدم، وكأنه وطيس يمرق به حديد القسّ مستسلمًا وكأنه يمُرّ بضباب، أو بحليب، أو بخيط سائل. تختفي المجلدات الكبيرة من فوق الأرجل، وتتطاير النساء إلى الغرف مثل أوراق خفيفة لا وزن لها. أخيرًا تقتنص الأم تريزا اللؤلؤة، وتعطيها للقِسّ. لكنه مُدرّب على ترويض الأشخاص المارقين، فيلقي الإنجيل على الطاولة دون أي تعاطف مع الرموز، ويمد جسده، ويقف منتصبًا، ثم يصيح بصوت تكاد المدينة أن تتحول من هوله إلى تراب، ويقول:

- زمرة مارقين!

تصمت النساء فجأة وكأن هاتين الكلمتين حوض من مياه مُثلّجَة ألقاه عليهن، وينظرن بإجلال إلى القِسّ الثائر. يجحظن فيه بأعينهن، مثلما فعلت السيدة "هيلجا"، تتنهد الأم تريزا بصوت عالٍ، لكن القِسّ لا يتوقف عن الصراخ:

- ما هذا الذي تفعلونه؟ كيف تجرؤن على هذا التصرف.. أنتم، أنتم.. زمرة من المارقين!

ينفرط العقد، وتتوقف الأرض عن الدوران. وتهجع اللؤلؤة الاحتياطية، وتختفي في أعماق الفضاء. انتهت جلسة العلاج بالقراءة. كل هذا في انتظارك في قسم المراجعة يا سيدة "تشيرنا"، وأكثر من ذلك بكثير، أكثر بكثير...

Twitter: @ketab_n

قضمت الملكة البيضاء القلم بأسنانها دون أن يلاحظها أحد. أمامها كلمات متقاطعة. أخذت تكتب في خانات الكلمات أحرفًا بخط أنيق. تظاهرت وكأنه لا علاقة لها بمستقبل "إيما" القريب.

ثم رفعت رأسها، وقالت:

- لكن يا سيدة "تشيرنا"، أنتِ تحملقين فيَّ وكأنني ما زالت أُطْعِم المقعد! انصرفي إلى الميزان! ألا تعرفين قائدًا لشعب خرافي، بلا عمل، ويعيش على زهرة اللوتس، من سبع كلمات؟ ويبدأ بحرف اللام؟

توجهت "إيما" إلى غرفة المرضات، وفجأة أمسك أحدهم بمؤخرة رأسها بإصبعين من يده. همست لها "دانا" قبل أن تنصرف قائلة:

- انتظري. عندي شيء لكِ!

أغلقت "إيما" عينيها. وعلى الفور احتشدت صورة "ريبكا" خلف مقلتيها مباشرة وسط طيف من الألوان. كانت تحاول أن تلفّ نفسها في ورقة تغليف تُبَاع في أعياد الميلاد – كم كان عمرها؟ عامان؟ - كان وجهها يُشِعّ نورًا أعيا مقلتيها، وأخذت تكرر وتقول:

- شكرًا أيها الملاك، شكرًا أيها الملاك، شكرًا أيها الملاك، شكرًا أيها الملاك.

عادت "دانا" وهي تحمل في يدها زجاجتين من البلاستيك ممتلئتين، ودسَّتهما في جيب سروالها الخلفي المتدلّي. ثم غطَّت الزجاجتين بسترة تلبسها، وقالت لها بكل رضا:

- يمكنكِ أن تنصرفي الآن.

Twitter: @ketab_n

مشت "إيما" منتصبة نحو غرفة المرضات بخطوات منتظمة، ثم صعدت فوق الميزان. وقفت فوقه هامدة مثل كتلة من الطين، مثل ومضة نائمة، بجعدة فارغة فوق جبينها. صعدت سريعًا فوق الميزان وكأنها بذلة مطاطية مسروقة.

ظهرت على شاشة المراقبة امرأة جميلة ترتدي زيًّا أبيض، وتسقط في أحضان أحدهم. لم يكن ذلك غريبًا، فقد كانت ترتدي حذاءً بكعبٍ عالٍ جدًّا. لم أرَ ذلك الرجل الذي ارتمت في أحضانه لأن "كارابينكا" كانت تظلل الجانب الأيمن من الصورة بجسمها. ربما لم تسقط في أحضان أحدهم، بل وقعت أسفل عجلات سيارة، أو من طائرة، أو في مستنقع ما، أو في وحل ثقيل أخضر.

- الآن يا سيدة "تشيرنا" يجب أن أعترف بأنكِ أسعدتني! لقد زاد وزنكِ ثلاثة كيلوجرامات خلال أسبوع واحد!

ابتلعْت مُثبّت المزاج، وأخرجت لساني لـ "كاربينكا" كما هي العادة هنا كي لا يخبئه أحد تحت لسانه، وغادرت حجرة المرضات بظهري. فارتطمت بـ "دانا". كانت تقف في طريقي، وصاحت:

- شيء مقابل شيء!

ثم ارتسمت على وجهها ابتسامة ماكرة ومُستفِزّة، وكأن أحدهم شقّ ندبة في وجهها، وتابعت:

- صديقي السابق في السجن منذ عامين. وغدًا سيسمحون له بالزيارة. أعطني خمسمائة كرون، وساعديني كي أخرج من هنا.

- هل جننتِ؟

يا "ديتا": ربما لم أكن المرأة التي تعرفينها، لكن السّجِنة المنفرجة الملتوية لم تكن هي سِجنة "دانا" التي أعرفها. ومع كل حركة من حركات عقرب

Twitter: @ketab_n

ساعة الحائط التي تقترب من رأس السيدة وهي لا تلوي على شيء، تقترب منها وكأنها بندول حادّ، صارت أقنعة الجميع أكثر تصدّعًا، وظهرت في تلك التصدعات أسفل الساعة وجوه غريبة، وخاوية، وفاترة. وجوه تحولت إلى شبكة من الشقوق مثل صور الموتى المتصدعة في المقابر. أردت أن أذهب إلى "ماريا"، اختبئ أسفل غطاء رأسها. لكن الدهليز كان ممتلئًا. كان يعِجّ بأَسِرّة جديدة مُتراصّة بجوار بعضها. لم أفهم. كيف استطاعوا خلال تلك اللحظات الوجيزة وأنا أزِن نفسي في حجرة الممرضات أن يستقبلوا كل تلك الحالات. كانت بعض النساء ترتدي زي المصحة، وتغطّ في النوم بصوت عالٍ. بعضهن جاثمات فوق الأَسِرّة بأذرع تنتشر عليها آثار الإبر، وتحتضن رُكَبَهنّ العارية، ويتأرجحن إلى الأمام بصورة خفيفة، وإلى الخلف، إلى الأمام، إلى الخلف، تمامًا مثل الدمى الهزّازة. وبعضهنّ يرتدين زيّ المستشفى المُهلهل أسفل خصورهن، ويتزاحمن وسط فراغات الأسرة الضيقة، ويتجادلن بحدَّة حول شيء ما بينما ترتفع أصواتهن وكأنهن في السوق. أحيانًا يتحدثن بلغة لا أعرفها. لم يكن هناك مهرب ألجأ إليه. كانوا في كل مكان. أفواه مُعوجّة تتعجب، ابتذال، وتوسلات حارَّة، ولعنات، ودعوات بالشفاء، ووجوه كالحة لا شكل لها، وسيقان سميكة وبيضاء مثل بطن السمكة.

علقت عيناي على نافذة تطل على قدمي تمثال اللاعب الرياضيّ. لم أجد هناك نافذة، ولا حائطًا: امتد الدهليز إلى أرض فضاء تتزاحم فيها أَسِرّة المستشفى حتى وصلت إلى عنان السماء. آلاف النسوة يستلقين بظهورهن فوق أغطية مُجعّدة، وينتظرن. فتيات وعجائز ينظرن بأعين متحجرة وبائسة، ويتجولن بها في تحدٍّ في أرضهن البيضاء. هجرتهن أجسادهن كأن أحدهم سرقها منهن كما يسرق حقائبهن. ففي لغة سكان "بالي" يوجد مرادف واحد لكل من الحقيبة والجسد. يهمهمون ويصمتون في فقاعات الصمت، وفي أخاديد مزروعة بألغام تجأر، تلفهم

Twitter: @ketab_n

الوحدة، وخلية نحل من أقاربهم، يرشح منهم العرق، ويرتجفون من البرد. غارقون في الذكريات، وعالقون في لحظة الحاضر.

يوبخن الممرضات، ويدسسن لهن في جيوب معاطفهن أوراقًا نقدية مجعدة. منتبهات ونائمات، ميتات وعائدات إلى الحياة. على طاولة صغيرة عند الأسرّة إبر الوقت تَخِزهن، وفي هواتفهن المحمولة أعمدة الصور. التصقن بظهورهن فوق الأغطية، وينتظرن جميعًا، بإرادتهن أو رغمًا عنهم. برغبة في أن يتواجدن بالمستشفى، أو برفضهن إياها كرفضهن لأقاربهن المزعجين. لم أعرف ما الذي ينتظرنه، لكن هذا الانتظار تسبب في طنين انتشر في كل أرجاء المكان وكأنهن أسراب بعوض هائلة. انتظار ينتقل من سرير إلى آخر عبر شبكة زرقاء من الأوردة. ربما كانوا ينتظرون قدوم الليل ليحضروا لهن الطعام. أو ينتظرون أن يفقدن ذاكرتهن عندما يلامس السقف جبينهن، وينخفض تحت وطأة آلاف الأعين التي تحدق فيه.

صِحْت:

- يا أمي!

مر بعض الوقت دون أي ردّ، بعدها هبّ على وجهي هواء يحمل همسات حارَّة بالكاد أعرفها.

- "إيما"، "إيما" الحبيبة، انهضي! يجب أن تذهبي إلى المدرسة.

حاولت أن أتحرّك من مكاني، لكن الدهليز وأسرَّة المرضى وكأنهم نموا فوق جسدي. صِحت للمرة الثانية.. صمت صوت كل شيء فجأة، وحتى شخير النائمين. التفتت النساء نحوي. رأيت امرأة عجوز من بعيد، في تلك المنطقة التي امتلأت بالأسرة، وتحولت إلى مبنى واحد مترامي الأطراف. رأيتها وهي

Twitter: @ketab_n

تلتقط طاقم أسنان صناعيّ من إحدى الكؤوس وتضعه في فمها، ثم تضغط عليه. سمعت صوت قعقعة أسنانها يصل إليّ وسط ذلك الصمت المباغت.

تقدّمت مني فتاة بها الكثير من ثقوب الزينة في وجهها. إنها تلك الفتاة التي رأيتها من بعيد عند دخولي إلى المستشفى، وتقيأت السبانخ في وجهي، إنها تلك الكلمات الثلاث الغريبة التي لن أنساها. صاحت هذه الفتاة، وقالت كما قالت لي "دانا":

- شيء مقابل شيء.

- لكني لا أمتلك شيئًا. ليس لدي سوى هذا الخطاب من "ديتا"...

أخرجت الخطاب المطوي على شكل مربع من جيبي. وبينما أنا أفتحه، رأيت فيه جملة واحدة وحيدة رابضة مثل السور تقول:

"قَدَرٌ مَعيب أعاد طِلاء الرواسب".

تخيلت أن هذه الجملة ضمّت في طياتها كل شيء، وابتلعته، وصار جزءًا منها لا يتجزّأ. صارت كل الأشياء مجرد نُدَف ثلج تهيم في كرة زجاجية أخفاها شقيقي عني على مدار سنوات. لكن حتى تلك الكرة اختفت بعد قليل، وبدأ الخطاب يتصدع في يدي، ويتحول إلى شجرة، ثم إلى أم ذلك الحَطّاب، وفي النهاية تحول إلى عناصر غير ورقيّة.

لم يهتم أحد بأمر الرسالة. تداعى عليّ الصراخ من كل جانب "شيء مقابل شيء"، وامتدت ناحيتي أيادي المتسولين. ضغطت الفتاة على جسمي، وقبضت على جسدي بالكامل بمجساتها اللزجة.

- اسمعي! بعد غدٍ يجب أن أرسل سيرتي الذاتية المكونة من ثلاث صفحات. أكتب بأحرف كبيرة مثل تلامذة المدارس، وأباعد بين الكلمات، ورغم

Twitter: @ketab_n

ذلك لم أكتب سوى مقطع واحد. يجب أن نكمل الصفحات الثلاث معًا، وإلا لن يتركونا نغادر هذا المكان".

ثم هزّت رأسها بازدراء، وأضافت:

- اكتبي فيه شيئًا. وأعيديه لي.

- وماذا سأكتب؟

- اكتبي عن ماضيكِ! فنحن لا ماضي لنا.

- أعطني إياه.

- نعم، أعطني أنا ماضيكِ.

وأخذت واحدة تلو الأخرى تستجدي وتتضرّع، تدفع إحداهن الأخرى، وتعلو بصوتها فوق الأخرى. وكل من كانت مستلقية أخذت تنزع إبر الحقن من عروقها التي تقطر فيها أكياس المحلول. انتفضوا جميعًا فوق الأسِرّة. عظام وجلد امرأة ظهرت من وراء قميص على شكل ضلوع، مدّت ذراعها نحوي، وفتحت قبضتها.

- أترين؟ لا أريد شيئًا بالمجّان. أعطني ماضيكِ.

رأيت في قبضتها الشفافة المتكسرة مثل الخطاب حبة فاصوليا كبيرة بها خطوط.

- يكفي أن تزرعيها يا حبيبتي، في الأرض عند قدميكِ. سرعان ما ستنبت، وتنمو فوقكِ، وبعد قليل ستلُفكِ بالكامل بشبكة كثيفة، لا تسمح لأحد أن يدسّ لكِ زجاجة ما، ولا حتىّ كأسًا صغيرًا!

صرخت فيها:

Twitter: @ketab_n

- لكني أُعاني من هذيان ارتعاشي!

وفي نوبة من الهلع هجمْتُ على تلك الموجات العاتية في بحر الأجسام الهائج الذي تنبعث منه رائحة كريهة، وأطلقت يدي أضرب بها من حولي. ثم دسست أظافري في قطعة لحم، لا أدري من تكون، إلى أن وصلت أخيرًا عند الباب وأنا ألهث من التعب. وصلت إلى باب عاديّ للغاية، به مقبض عادي تمامًا. انتزعته سريعًا وكأنني أتعلّق بطوق نجاة، وانطلقت إلى داخل الغرفة.

رأيت امرأة تقف في الحجرة تسوي شعرها الأشيب المبلل الذي وصل خصرها أمام المرآة. علقت خيوط الشعر الأشيب فوق الحوائط، وعلى حوض الاغتسال. التصقت به مثل العشب. كانت تشبه "ديتا" وهي في الواحدة والعشرين من عمرها في إحدى الصور القديمة. تقف في الصورة أمام مجموعة من الأهداف، إصبعها فوق زناد عدسة بندقية مصوبة نحو الهدف. كان ذلك التشابه قويًّا، جعلني أتسمّر في مكاني وكأنني أتوقع بكل ثقة بأن صوت الطلقة القديمة سيظهر الآن، حالًا، في هذه اللحظة، وسيقضي على ذلك الصخب الحيواني الذي يجأر خلفي، بكل ما فيه من رائحة نساء، ونتانة حساء، وسير ذاتية، وساعات حوار خالٍ من الكلمات، ومقايضة، واستجداء مكان في الطابور، وصراع حول جمع النقاط. طلقة ستعصف بباب لا ينغلق، وستُدمر أبوابًا لا يملك مفتاحها إلا أشخاص بعينهم.

- ادخلي بسرعة! وأغلقي الباب خلفكِ. لقد جُنّت النساء اليوم، ويأتين بأفعال غريبة هناك. يبدو أن "كارابينكا" قصيرة على أن تَطَلْنها.

صفقت الباب خلفي سريعًا، وأسندته بظهري. لكن صوت الطلقة لم يظهر: كان واضحًا أن تلك المرأة لا تشبه "ديتا" إلا في مظهرها الخارجيّ فقط. لا يعنيها شيئًا في مكان تحول بفضل صرخات النساء إلى أرض موحشة،

Twitter: @ketab_n

منثورة بأسرّة المستشفى. تخلّصَت من شعرها الذي كانت تختبئ خلفه، وتتخذه وكرًا جميلًا لا يُقْهَر، ثم صوبت نحوي مشطها، لم يكن سلاحًا، بل مجرد مسطرة مدرسية، وأخذت تقيسني أمام الجميع بكل جرأة، من رأسي حتى عقبي، وكأنني تمثال، وتقول:

- الارتفاع 175، نحيفة، السنّ حوالي خمسين، المظهر هائبة. دخلت إلى الغرفة.

ثم نظرت إلى ساعتها، وأضافت:

- 25 مارس 2010 الساعة 14.46.

انتهى الأمر. هذا ما كان ينقصني! رأيت أنه ربما يكون من الأفضل أن أعود إلى الدهليز، أو أوارب الباب قليلًا بمقدار إصبعين، وأعطي للنساء الشريرات ما طلبنه مني. كدت أمدّ يدي فوق مقبض الباب، لكني لم أقوَ على ذلك. فقد كنت أمسك في يدي ...

ثم رأيت كلانا، يا "دالبيور"، في تلك المرآة المُعلّقة فوض حوض الاغتسال الممتلئ بالأفاعي. قبعتكَ، ونظارتكَ السوداء، وذقنك النابت، وأنفك الذي لفحته الشمس. نجلس سويًّا على صخرة فوق الخليج، وما زلنا نتطلع إلى السبّاح، إلى تلك النقطة الصغيرة وسط طوفان المياه. تلك اللحظة ما زالت جاثمة، لم تمضِ. إنها معي في هذه الحجرة، في هذه اللحظة، مثل كل مَنْ هنا، وأنا أحصل على فرصتي الثانية.

أمسك في كل يدٍ فردة حذاء، وأستمع إلى صوتكَ: "لا ترمها. صِليهما ببعضهما لو كنتِ مضطرة إلى ذلك". لن ألقيها. لن أفعل هذه المرة. سأقفز من فوق الصخور. سأضع تلك البقايا في الحقيبة، وأنطلق إلى البيت.

Twitter: @ketab_n

لحظة غير معلومة ظهرت في كلمة "البيت" المتجمدة. ظهر ذلك المستقبل المختلف في المرآة وكأن أحدهم نفث فيها. خبأت الخفّ سريعًا تحت قميصي.

قلت للمرأة:

- أنتِ لا تعجبيني، لا أنتِ، ولا شعركِ.

لم تتأثر بما قلته لها، وواصلت حديثها:

- إنها تخبئ الخُفّ تحت قميصها. تصرّف مريب.

كشّرت لي عن أنيابها وسط ابتسامة ودّية، ومدت يدها التي تحمل فيها المشط، وقد تحول إلى غصن سلام.

- لكن يا سيدتي، يا سيدة "تشيرنا"، أعتقد أن هذا هو اسمكِ. أنا أحاول تذكر كل التفاصيل. أتفهمينني؟ فكل صغيرة لها شأن كبير! إن كل من هنا يعرفني، ولا ينزعج أحد مما أفعله. يمكن أن يحدث أي شيء، سرقة على سبيل المثال... سرق أحدهم ذات مرة ملابس داخلية ثمينة... كل شيء هناك جائز... إلا القتل والعياذ بالله! وماذا في يدهم أن يفعلوه بدون شهادتي؟

إنها تعزف على وتر الأمنيات. ما أكثر ما أتمناه بعد أن أخرج من هنا؟ الهدوء. الهدوء التامّ. لكن عليّ أن أتحملهم حتى يستيقظ رجل غريب ينام فوق مقعد في معبد بدون قبة، في معبد تتساقط فيه الثلوج. رجل أظهر له في أحلامه. عليّ أن أتحمل صياح قادم من ورائي، وأصوات تتردد ليلًا ونهارًا، وكلمات لا تنتهي.

ابتسمت، وقالت:

- لكنكِ لم تأتي إلى هنا بلا داعٍ، لم تأتي لتشاهدي شعري الجميل. من المؤكد أنكِ ذاهبة لرؤية السيدة "فوسيدلاكوفا".

Twitter: @ketab_n

لقد نسيتها تمامًا. نسيت "كارميلا". نسيت ضحكاتها، الرياح الثلجية التي تهب على القسم منذ ثلاثة أيام. لقد غطى عليها ما يحدث خلفي في المنطقة العجيبة الثائرة. رفعت رأسي ناحية السقف.

كانت عالقة هناك، استندت عليه بظهرها وكأنها تلتصق بورق مخصص لاصطياد الذباب. أطرافها الدقيقة عالقة في الهواء، ومسترخية بكل استسلام. كانت عالقة هناك، وتبتسم على الدوام. التهمت شفتاها التي تضخمت من الضحك كل ما تبقى من وجهها. اختفت بالكامل وسط ذلك الضحك المريع، اختفى في تلك الضحكات أبناؤها، ومقالها الذي تكتبه. اختفى فيها الجوع الرهيب الذي تشعر به دومًا ولا ينتهي.

فكّرت في أنها ربما كانت قطعة الشيكولاتة الضخمة التي تركتها لي "ديتا" هي السبب. تلك التي اتخذتها درعًا واحتمت خلفها مني – رغم أني وضعتها في جلباب "كارميلا" بعدها – ربما تكون التي رسمت على وجهها الكَثْرة والإجفال.

ذهبت إلى الدهليز، فسمعت من خلفي صوتًا يقول:

- خرجت من الغرفة الساعة 14.52.

كان الدهليز خاويًا، لم يكن به إلا السيدة "إيرينا" تجلس عند الطاولة، وتفكّ ألغاز الكلمات المتقاطعة.

قلت لها على مهل، وعلى مقاطع منفصلة:

- لو-وا-تة*.

رفعت رأسها باندهاش، وقال:

---

* لواتة – أناس كسالى متفرغون للمتعة – المترجم.

Twitter: @ketab_n

- ماذا تقولين؟

- أحد أبناء شعب أسطوري يعيش بدون عمل، ويقتات زهرة اللوتس، من سبعة أحرف. لقد تذكرت اسمه.

كانت الحقيقة ما زالت مختبئة خلف النافذة، في كوب من الحليب. يمكن أن أتخيل أي شيء بديلًا عنها. ولمَ أفعل؟ لا يظهر وسط الضباب سوى إصبع اللاعب الرياضيّ الضخم، وبالتأكيد يشير ناحية السماء. وتقف "دانا" خلف النافذة. أعرف ما ستقوله لي. بما ستصرخ في وجهي: شيء مقابل شيء. أخرجيني من هنا. أريد أن أقابل صديقي السجين. ولمَ لا.

قلت لها بصوت مسموع:

- ولمَ لا.

وقفت هناك مضطربة، منفرجة الساقين السميكين اللذين استقرَّا فوق أرض الحجرة البلاستيكية مثل عمودين. بياض عينيها مُخضّب باللون الأحمر من الغضب، ومن السهاد، ومن الجرعات الـ "ألانتابوس"* الزائدة.

الغريب أن تسير الأمور كلها سهلة بمجرد أن أتذكر إيصال تسديد واحد. في تلك المرة، ربما كان ذلك في حلم لم يكنّ حلمي، أراني "بوبل" إيصالًا مُجعدًا مليئًا بخطوط متشابهة. وها هي "دانا"، تلك التي استوقفتني في غرفة التدريب مؤخرًا، تطعنني وتقطعني إربًا إربًا بنظراتها: "... أو جريمة والعياذ بالله!"، لا شيء هنا يبقى على حاله، لا توجد هنا قواعد. صرت أعرف بكل ذلك: كل واحدة هنا مثل منطقة يمرّ بها القطار، صور وامضة متوالية سرعان ما تختفي. ربما كانت المرأة على حقّ: ربما كان ضروريًّا تسجيل كل

* عقار يستخدم لعلاج إدمان الكحول – المترجم.

Twitter: @ketab_n

التفاصيل. تلك الهزة التي تكتنف جسد "دانا" الآن على سبيل المثال، أو دمعة واحدة وحيدة في قلعة الدموع التي رسمتها "ماريا"، وأيضًا ذلك الكيس البلاستيكيّ، ذلك الجناح الشفاف الذي رقص على أنغام موسيقي لا يسمعها أحد، تصاعد إلى أعلى وسط دوامة الرياح قبل أيام خلف النافذة. كل ذلك من أجل استجواب مُحتمل، أو لمجرد التسجيل.

أخذت "دانا" تترنح فوق عموديها الضخمين وكأنها تمثال عملاق. تهتز وهي تمدّ ذراعيها العاريين أمامها، وتحملق فيهما وكأنهما ليسا جزءًا منها. وهنا انشقّ الجلد فوق مرفق يدها، وخرجت منه نبتة، أو شيء يشبه جزع الشجرة أو ربما غُضنًا. تحركّت قليلًا كي ترى إن كانت ستتحمله. في تلك اللحظة نبت من الغصن غصن آخر، ونبت من ذلك الأخير غصنًا مثله، وهكذا. لم يكن في إمكاني ملاحقة كل ما يحدث. بدأ جسدها بالكامل يكتسي بشبكة من الأغصان تتهادى في الهواء. تحول بفعل قوة غريبة إلى مجموعة من الأشجار المتشابكة النابضة، إلى شجيرة تنبض بالحياة، لم يبق من "دانا" في هذه الشجيرة سوى بياض عينيها المتأجج.

هرولْت نحو النافذة، وفتحْتها. "أسرعي أيتها السمينة، الطريق آمن".

تحرّكت الأغصان الضخمة وهي تصدر صوت تصدّع. تمددت بعضها حتى تجاوزت شِبَاك النافذة، والتصقت بجدار المبنى من الخارج. نصف نبتة، ونصف إنسان يخترق الضباب بأطراف خشبية يغطيها اللحاء، وتتحرك نحو الحرية بكل صعوبة.

- أين أنتِ؟

إنها مديرة التمريض. أغلقْت النافذة على الفور. لقد نسيت تمامًا أن أذهب إلى قسم المراجعة. من طابق إلى آخر، ومن منطقة إلى منطقة أخرى. أحفظ

Twitter: @ketab_n

هذا عن ظهر قلب. أعرفه من بدايته إلى نهايته والعكس، لا فرق بينهما: أَخْتَرِق السقف، فأجد نفسي في سقف أكبر. وهكذا يتكرر الأمر، بلا نهاية، وكأنني في ذلك الحلم الذي حوّله شقيقي بالورق المقوّى والصمغ إلى حقيقة. كل هذا لأني عجزت عن أن أتحول إلى شجرة مثل "دانا".

- لقد أعدّت لكِ "ماريا" الحقيبة. يا سيدة "تشيرنا"، الأمور معكِ لن تنتهي سريعًا.

تأرجحت من جديد وسط خيط سائل، مثل قارب تجديف في نهر "بيرونكا". غطاء الرأس الأزرق. غطاء وراء الآخر. أريد أن أودّع "ماريا"، لكني لا أرى لها أثرًا. ربما ارتدت البذلة المطّاطية، وقفزت بقدميها كما يفعل الغواصون في الماء، وذهبت وراء ثعبان البحر.

قالت لي رئيسة المرضات:

- لا داعي لأفعال المهرجين في قسم المراجعة!

ثم أمسكت ساعدي بمخالبها، وفتحت بيدها الأخرى بابًا وأغلقت آخر، والمصعد يطنّ في فتحته، وعربات الطعام تتخبّط من حولي، وفتاة ما تخبط بيدها فوق قطعة من الصفيح، أو ربما ما يشبه الجرس، وتصيح:

- قسم العلاج، قسم العلاج!

الغريب أن أحبالها الصوتية لم تتمزّق. اختفى تقريبًا باقي حديثها وسط كل ذلك الضجيج.

"كنتِ أحيانًا تتصرفين مثل المراهقات. يجب أن تتوقفي عن هذا من الآن فصاعدًا يا سيدة تشيرنا، لا أريد ترتدي أية تشيرتات عليها صور زجاجات خمر أثناء الزيارات، والأهم من ذلك – اسمحي لي -كُفّي عن الأحلام".

Twitter: @ketab_n

صرت أعرف الأوضاع هنا بالمستشفى. وقفت أمام غرفة المرضات مرتبكة، أرتدي جواربي، لآخر مرة أرتشف السحاب بصعوبة، وأبتلع الهواء. وهنا، هنا تدفعني رائحة السبانخ الكريهة فوق الدرج، وتطاردني مثل السفاحين. فأندفع إلى وسط مطبخ قديم، وأستقر عندي قدمَيْ أمي. قبل شهر، قبل لحظة، قبل شهيق ثلاثي، قبل زفير ثلاثي، قبل الميلاد، في العصر "البليوسيني". ضع علامة على الكلمات الخطأ. أم أن كل هذا لم يحدث، أم أن كل هذا سيحدث لاحقًا.

مدخنة من دفاتر اليوميات أسفل جهاز الهاتف. الحد الأدنى عشرة أسطر. باقة ورد مقابل كل تحسّن ملحوظ. غرفة الطعام هذا المرة خاوية. الأميرة هي سيدة الموقف هنا، تقف في مواجهة الآخرين. تبعثرت فوق الطاولات إبر، ومشابك شعر، وممحاة، وأقلام شمع، وبطاقات بريدية، وصَدَفات، وأوراق لامعة: إنها تفاصيل تتبعثر في كل الأركان مثل خيوط العنكبوت. هنا نافذة صغيرة بستارة معدنية تطل على مطبخ. تتطاير الستارة فجأة إلى أعلى، ويظهر في الفتحة وجه مختبئ خلف المساحيق. امرأة تضع قلنسوة فوق رأسها عليها كلمة «بوش»، جهاز مطبخ يدويّ يعمل بالكهرباء، وتحملق فيّ. أستند على رُخامة المطبخ. فتفهم على الفور.

تسألني:

- ماذا تشربين؟

أجيبها:

- كأسَيْ "موخيتو"، وطوق خبز تكعيبيّ.

- أنا لا أعرف هذا؟ ليس عندي منه.

Twitter: @ketab_n

- بل عندكِ. إنه هناك. ذلك الشيء المكعب.

تلتفت، ثم تعبث في شيء ما هناك لبعض الوقت. تأتي بعدها، وتقدم لي بابتسامة عريضة طبقين. أخاديد تملأ كفيها.

- هل هذا هو المطلوب؟

- نعم.

- أردت طبقين. هل معكِ أحد هنا؟

- كلا، أنا لست وحدي هنا.

بجوار غرفة الطعام حجرة واسعة بها مقاعد مرصوصة عند الحوائط. وفي منتصفها غطاء تراكمت عليه أشياء لطيفة، منتجات الأسبوع. وامرأتان. أفضل من لا شيء.

وهنا رأيتها. كان الأمر واضحًا من تلك القلنسوة. صورة طبيعية امتدت بطول الحائط، من جانب إلى جانب. مَن ذا الذي فكّر في أن يضعها هنا. صورة ضخمة للحديقة، تناسق يثير السخرية، فضاء قبيح مُجزّأ في لوحة ثلاثية، ويخفق بقوة وكأنه نشأ قبل قليل.

اقتربْت منهم. كانوا جميعًا هناك: الأنذال الذين يمتطون الخنازير حول نبع الماء الذي تساقطت الطيور الميتة بغزارة فوق شجيراته. البابا-الشيطان، الذي يلتهم أجسادًا عارية، ويلفظها على الفور، الموسيقى اللعينة، العفريت الصغير الذي يحمل طبلة، والعقارب، والسمندل، وأذنان متصلتان بإبرة، ويبرز منهما مقبض سكين، ورجل مصلوب فوق القيثارة، وهنا. هنا الإنسان الشجرة. "دانا".

Twitter: @ketab_n

اعتقدت أني لن أستطيع، لكن الأمر كان سهلًا. صعدت فوق المقعد، ودخلت إلى اللوحة، والتأمت خلفي أجنحة الصورة الثلاثية وكأنها جناحَيْ محارة ضخمة.

***

مرحبًا يا أمي،

تخيلي! لن تصدقي! بدأت أتبادل الرسائل الإلكترونية مع خالي. يقول إنه عندما انصرف، أخذ معه صور رأسيات الأرجل التي كنت أحتفِظ بها. في الواقع أنا لا أعرفه. يتحدث عن أشياءَ مجنونة. مثلًا أنه دار بكِ في أنحاء "براج" وأنتِ فوق عربة التسوّق. كان الإيميل الأخير بالكامل حول البصلة. أرسل لي بعض الصور. إنكما متشابهان إلى حد كبير. وكأنكما توأم. عرض عليّ أن أذهب عنده. يمكن أن أعمل معه في المطعم، طباخة مثله، وأن أسكن عنده أيضًا. يقول إن زوجته تعالَج من مرض مزمن. أغراني بالذهاب إليه. لكن أنت لا تعرفين الظروف السيئة مررت بها هذا العام. وفضلت ألا أتحدث معكِ بشأنها كي لا أزيد همومكِ. أريد أن أذهب إلى هناك، فقد اكتشفت أني أرغب بشدة في رؤية البحر.

اجمعي النقاط، وأنصتي إلى كلام الأميرة. في انتظار عودتكِ قريبًا.

ابنتكِ "ريبكا"

***

Twitter: @ketab_n

انطلقت الفتاة الصغيرة من القلعة إلى الحديقة. كان صوت البروفيسور العجوز الهادر ما زال يتردد في أذنيها بقوّة. الرجل الذي أوقعت القهوة على ملابسه. ما زالت وجنتها اليمنى دامية من أثر الصفعة. لكنها نسيت ما حدث. كان الرمل يئز تحت خُفّها، وتداخلت من حولها شجيرات الديس* المهذبة. كانت متاهة من شجيرات نابتة، تفوح منها في ذلك الصيف رائحة طيبة. خيوط العنكبوت تلمع فوق الشجيرات مفعمة بأمطار اليوم السابق، وبذباب لامع كالمعدن، الحي منه والميت. خيوط كانت تشبه العثة.

حياها نبتون، المسجون فوق السقالات، من بعيد بثلاثة أصابع ظاهرة. مرت به، وهرولت إلى وسط أرض فراغ أمام النافورة، حتى وجدت نفسها في طريق تحفه الأشجار. رأت المترجم جالسًا فوق الأريكة، منكبًّا فوق كراسته. علمها بالأمس علامتين صينيتين، واحدة للماء وأخرى للهواء. لكنها اليوم تجنّبَته. أخذت أعين من شرفة المنشدين تتابعها، وجذوع الأشجار تتحرر من تحت الأرض بين الحين والحين، وتعبر طريقًا واسعًا. تتحرك هنا وهناك متثاقلة مثل خطوات حراس القلعة.

"القطة تلاحق كلبًا، والكلب يلاحق الفتيات، والفتيات تلاحقن الجدّ، والجدّ يلاحق الجدّة. استمروا هكذا، واستمروا، و. ..."

لم تعرف سببًا لأن تقول ما تقوله. لكن عندما وقف أحدهما خلف الآخر، وأمسك أحدهم بالآخر، وعندما أخذ عددهم يتزايد، وعندما طال الطابور، وتلوّى حتى وصل الأفق لم تسمع صوت عجلات سيارات خلفها تسير متكاسلة وبهدوء، وكأن بحرًا من الوقت يتسع أمامها. سيارة صامتة قربتها من طريق الأشجار.

---

* عشب مائي – المترجم.

Twitter: @ketab_n

فجأة، أطلق أحدهم الجرس بالقرب منها.

- وأنتِ أيضًا، وأنتِ أيضًا، وأنتِ أيضًا!

من يدري، لماذا لمحت رجل الأسكيمو الصغير الذي يسبح فوق جبل الجليد. أين سمعته وهو يصيح بصوت عالٍ، ويخبط على الطبلة حتى اضطرت إلى أن تصمَّ أذنيها؟

شابّ يرتدي قميصًا أبيض، شعره أحمر قانٍ، يتكئ بظهره على سيارة الإسعاف، ويمسك في يده دمية خشبية، ويلفها ويدور بها، ويضحك ويقهقه. الرجل الثاني يتثاءب خلف عجلة القيادة. وهنا شخص آخر: وُلِد من رَحِم الزمن. يسمع دقات الخوف في جسده، يمتد طريق الأشجار في راحتيه مثل الأخدود.

- اسمكِ "إيما بودوبوفا"؟

- ماذا ستفعلين يا امرأة؟

ينطلق صوت عالٍ، ويتساقط الرمل من كوكب نبتون بهدوء وانتظام.

- لقد أصبتموني بالحيرة.

أنتِ لا تكذبي. اسمكِ الذي نطق به الرجل الأحمر ليس اسمكِ. وربما أن اسمك التبس عليه مع اسم شخص آخر، مع شخص يشبهكِ، ولا يشبهكِ: معكِ أنتِ بعد ثلاثة وأربعين عامًا.

ابتلعتِ صرختكِ. لم يكن هناك أحد. اختفى المترجم من فوق الأريكة. أمكِ وشقيقكِ ما زالا نائمين، أبوك ينظف معطف البروفيسور مُعتذرًا، والأشجار، تلك التي تترنح فوق جذوعها، لا يعرف أحد إلى أين تتجه.

Twitter: @ketab_n

صَمَت الضجيج. ووجدت نفسكِ دون أن تدري داخل العربة. انطلقت سيارة الإسعاف. وصرتِ عاجزة على أن تتحركي. ربطكِ الرجل الأحمر فوق السرير. فأخذت تراقبين مؤخرة عنقه التي ترقص عليها المرأة العارية، وتشرب مشروبًا أخضر من أحد الكؤوس. السحب تدور من فوقكِ في الاتجاه المعاكس في فضاء شاسع مترامي الأطراف. وأنتِ عاجزة على أن تتوقعي – وكأنكِ في عرض البحر –إن كنتِ تقتربين أم تبتعدين.

– على أي حالٍ هذا الطريق سيطول كثيرًا. هل تلعبين معي لعبة البريد الصامت.

تصمت. تعتقد أنها لعبة لا يمكن أن يلعبها اثنان فقط. غباء. أنا ألعبها وحدي.

وتَبدئين في الهمهمة، والدمدمة، والثرثرة، واللغو إلى أن تقولي: "بومة". فتختبئين على الفور وسط الريش، تنسلّين من بين الأربطة، وتطيرين من نافذة صغيرة موازية خارج عربة الإسعاف.

حملتكِ الرياح، وطارت بكِ إلى أعلى، وكأنها رسمت بجسدكِ فوق طريق الأشجار حرفًا صينيًّا يرمز إلى الهواء. أنتِ خفيفة، مجرد جناحين صغيرين وريش، عدا ذلك لا شيء. مجرد دوامة هواء مُتَعجِّلة. تلفين وترقصين مثل ذلك الكيس البلاستيكيّ خلف شِباك المستقبل المختبئة وراء حوائط الزمن. تصعدين وسط الدوامة، تحلِّقين قليلًا، ثم تسقطين بقوة في خيمة بها فاكهة، في أحضان بطيخة منزوعة الجلد أسفل حومة من الدبابير. ترتفعين بقوة، وتحومين حول القلعة التي تظهر من تحتكِ فجأة وكأنها صخرة وردية من الأشكال والنقط المتصدعة. ترسمين فوقها دائرة مرة بعد مرة، ينفث الهواء الذي ظهر –تلك السعادة الغامرة الصافية –كلمات غامضة قد سمعتِها من قبل، ويدفعها إلى دمكِ:

Twitter: @ketab_n

"الجسد والمعبد، الفضاء والصناديق.. كلها فراغات مغلقة. أنا وحدي من يستطيع أن يصنع فيها فجوة كي تتمكنين من التنفس والطيران".

وقف "بيتر" عند نافذة مفتوحة يرتدي سترة بيجامته، ويتابع في الضوء ما خبأه عنكِ، ما أخفاه عنكِ كي لا ترينه: كرة شفافة تتساقط فيها الثلوج. لو أنه لم يمسك بها في يده، لو أنه لم يضعها الآن جانبًا، لو أن ذلك الكوكب الصناعي الأجوف لا يقف بينكِ وبينه، لاستطاع أن يرى شقيقته، ذلك المخلوق الليلي الذي يسبح بشكل أخرق، ويحُول دون ضوء النهار.

كلب ألمانيّ بسلسلة تجلجل، حصان يرفع رأسه إلى السماء، ضفدعة فوق جذع الشجرة، وذلك الذباب اللامع وسط خيوط العنكبوت: تلك الكائنات البشرية المُتحوِّلة، مثلما تحولت في عربة الإسعاف إلى بومة، تحولت كي تهرب من الخطر، كي تعيد الحياة إلى العالم القابع خلف الزجاج، وينبض بصورة عشوائية لا نظام فيها.

قالت بكل ثقة: "سنتجه صوب الجنوب". لكنها لم تكن سوى مقاطع كلمات براقة، أمر أصدره بطل قصة صغير قرأتِها بالأمس قبل النوم. مجرد صوت واحد من أصوات عديدة لا توجد ترجمة لها، أصوات حاصرَتها، وأفرغها أحدهم من معناها.

طارت البومة فوق القمم والوديان، فوق صوامع الغلال، ورؤوس البر، فوق لوحات الإعلانات، وأشجار الصنوبر، فوق المروج وفوق مدينة "تابور": برج مستدير، وخندق عند القلعة – لم يكن واردًا أن تضلِّي الطريق. فقد كنتم هنا قبل إجازات الصيف في رحلة مدرسيّة مع مدربكم الرياضيّ الذي كان له مكان فمه خط عابس. عندما أفسدتِ النجمة – هذا هو الـ "راسهاوس"*،

* كلمة ألمانية ومعناها مقر الحكومة – المترجم.

Twitter: @ketab_n

وهناك، أسفلكِ في الميدان، وضع "يان هوس" الإنجيل فوق صدره، وطأطأ رأسه وهي يتطلع منتشيًا إلى جناحكِ الذي تُجدّف به السماء.

وهناك، فوق نهر الأردن، الذي تتمرغ شمس المغيب فوق سطحه في شهر أغسطس مثل سمكة ضخمة لامعة، هناك حدث ما حدث: تحرك جناحاك فنزعا عنك الكلمات، كلمة وراء كلمة. واختفت الكلمات، واختفيت معها: لم يبق منكِ كطفلة سوى طنين، وطيران، وحفنة من الريش.

وسرعان ما انبسط من تحتي سوق فيتنامي. نساء تعبث في المعروضات حتى كاد الشرر ينبعث من بين أصابعهن وهن يحملن سترات مزركشة، تجلجل فوق حمالات الملابس في هبات الزمن الهائجة، لكن الرياح دفعتني من حديقة إلى أخرى، قذفت بي من طفولتي إلى هنا. زحف ثعبان الأحذية فوق الرصيف، وتلوّى حتى وصل إلى ناصية الشارع. وأخذت الظلمة تجرب تلك الأحذية واحدًا بعد الآخر. أضاءت لافتة من مصابيح صغيرة فوق بيت في شارع "بوجينا نيامتسوفا"، بيت بلون ورديّ صارخ مثل لون أقلام التظليل، تقول: " HEUTE SECHS GIRLS"، وبعد تلويح مرتين أو ثلاث مرات حتى وجدت نفسي أجلس أخيرًا فوق شجرة صنوبر عمرها خمسة وعشرون عامًا. كنت أعرف ذلك لأن "ديتا" زرعتها عندما ولد ابنها. وعلق جناحيّ -اللذان بالكاد أحركهما بكل استسلام -بجوار جسدي وكأنهما مجدافان محطمان.

أطفئ عقلي، أجعله يغفو وينام أسفل حجاب الغصن، بلا أحلام، بدون طيران، بدون حبَّات دواء، بدون تحولات. أستغرق في النوم لمدة أربعة وعشرين ساعة، ثم أستيقظ بعدها، وأرفع الستار، ثم أذهب إلى العمل، ثم أتناول الطعام مع "ريبكا"، وفي المساء أنتظر صوت جلجلة المفتاح في الباب، فتدخل "ديتا"، أضحك معها، ونتطارح الغرام ليلًا. أستيقظ، وأرفع الستار، وأذهب

Twitter: @ketab_n

إلى العمل، وأتصل بـ "ريبكا"، وأدعو أمي إلى تناول مشروب الـ "موخيتو"، وطوق الخبز التكعيبيّ في المقهى. ببساطة أتحرك في جوف العالم الآمن الذي أنا بالطبع جزءًا منه، ببساطة أطعن إصبعي بإبرة، وأنام دهرًا إلى أن تمتلئ الحدائق، تلك الأرض البور التي تسكنها العفاريت، بشبكة متداخلة من العادات اليومية الظالمة الرحيمة.

كدت أستغرق فيها إلى أن أيقظني صوت ضجيج. فتحت عيني عن آخرها بصعوبة. وجدت رصيف الشارع من تحتي يعجّ بصيحات صُحْبَة سعيدة في ضوء القمر والنجوم، وتحت أضواء مصابيح مُعلّقة فوق شجرتي تفاح. فتيات جاثمات فوق أريكة خشبية خلف طاولة، تميل إحداهما على الأخرى، ويتهامسن، وينفجرن في الضحك من وقت لآخر. وكأنهن يلعبن لعبة البريد الصامتة. وظهر بيت من وسط الظلام القابع خلف ظهورهن– لم أره على تلك الهيئة من قبل – أطرافه المتعامدة تهتزّ بخفة، وتتقوس على هيئة غريبة، ربما قرص عسل أو بصلة.

وقف حول شواية لحم شابّ يرتدي قلنسوة بألوان الطيف، رغم أنها كانت ليلة حارَّة. يعبث بلا اهتمام في اللحم بسيخ الشواية بنظرة زائغة في عينيه. يرفع من وقت لآخر بأصابع ملوثة بالشحم نظارة كبيرة بيضاء تسقط على أنفه، وتمنعه من أن يرى شيئًا. رجلان آخران – اختبأت في الأسياخ، واتحدت معها كي لا يروني – تحركا بجواري مباشرة، يخطوان بكل حماس، وهما يتجادلان ويقبضان في أيديهم على أغصان شجر وكأنها سيوف حادَّة:

– هُراء، أنت لم تنتبه إلى أننا لو لم ننظر إليهما من الناحية الوراثية...

لكن الرجل الآخر قاطعه قائلًا:

Twitter: @ketab_n

- من الناحية الوراثية! كم هو أمر مضحِك! إن المضامين الخاصة يمكن أن تتغير بشكل واسع دون أن يحدث أي لغط في الغريزة يؤدي إلى سلوكٍ خاطئ، في حين أن أي تغيير في النسيج الأساسي يؤدي إلى الالتباس.

نزعت الفتيات سدادات الزجاجات بأصابعهن، فتطايرت واحدة ووصلت إليّ. وهنا رأيتها. "ديتا". كانت تقبع عند النيران، وتلقي فيها بأغصان نبات الكرز المجدولة، وتنعكس ألسنة اللهب في عينيها وعلى وجهها الذي اختفت من عليه كل التجاعيد وسط ضوئها، وتقلصت الحدود بينها وبين النيران.

خرجت إحدى الفتيات من حجرة الأخشاب وهي تحتضن قِطع الخشب. كنت أعرف أنها هي، رغم أنها كانت مختبئة خلف تلال الأخشاب.

ناداها أحدهم: "يا أديلا!"، لكنها لم تسمعه. يبدو أنها هناك لا تسمع أحدًا، ولا تلقي بالًا لأي شيء، لا للحديث، ولا للقمر، ولا للنبيذ، ولا النيران. وضعت الأخشاب، وربضت أمام "ديتا".

اشتدَّ بي الوجد، وتمنيت لو أن "ديتا" رأتني كي تدعوني لأنظم إلى تلك الصحبة السعيدة من طُلّابها، تمنيت لو أنها عرفتني بجسدي الجديد، بهيئتي الجديدة الغريبة التي صرت سجينة فيها رغمًا عني، وصارت مثل معطف التصق بجلدي.

- يا ديتا! أنا هنا، "إيما"! ألا تعرفينني؟

لم يخرج من منقاري سوى نعيق مُتصدّع بدلًا من الصوت والكلمات التي أخذها الطيران فوق نهر الأردن مني.

اندفع من بين الظلام كلب صغير ينتفض تحت شجرة الصنوبر، وراح ينبح بأعلى صوته حتى كاد يختنق. أجبته كي ألفت أنظاركم نحوي. استعصت عليّ

Twitter: @ketab_n

الدموع، وفارقني صوتي البشري، فمشيت على طريقة البوم: فأخذت أنعق، وأقرقر، وأثرثر، وأدمدم، وأتذمر، وأتمتم، وأصفر، وألوّح بغضب بأفرع رداء الكهنة، العباءة الكوكبية التي تشبه سماء ليلة في شهر أغسطس، كي أضعه بحفاوة عند قدميكِ كهدية أحضرتها لكِ من جولاتي، أو كالتماس للصفح.

خيّم الصمت على الفتيات الجالسات عند الطاولة.

- ما هذه الأصوات؟

- إنها لطائر ما، أليس كذلك؟

- ربما يكون غرابًا

صاحت إحدى الفتيات:

- صحيح سيدتي الأستاذة! انشدي لنا أغنية الغراب! فأنتِ تلقينها على نحو جميل!

إنها بالأحرى طالبة رسبت في مادة اللغة التشيكية، وتتملق أستاذتها على نحو مقيت.

- لقد رأيت أن لديكن بندقية صوت في الجراج. يمكنك أن تصرفي هذا الطائر بها

شعرت الفتيات مرهفات الحسّ بالخوف من هذا الاقتراح، وراحت كل منهن توبّخ الشاب:

- لا يمكنكَ أن تطلق النار على طائر، جاء إلى هنا من إحدى الأغنيات!

نهضوا جميعًا، واقتربوا بحذر من الشجرة. راحت شجرة الصنوبر التي تكبرهم ببضعة أعوام تمُدّ أغصانها فوق النجوم، ثم تسحبها إليها. لم تقاوم

Twitter: @ketab_n

"ديتا" الموقف، ورغم أنها كانت تمسك بوعاء الأسياخ إلا أنها أخذت تنشد بالفعل، وبالفعل كان صوتها جميلًا.

- "لا تتركني هنا أيها العجوز الكذاب، لا تترك ريشة واحدة فوق الوسادة، لا تعكر صفو كهولتي، غادر التمثال أيها الغراب! ارفع منقارك عن جسدي، غادر التمثال أيها الغراب!

يقول الغراب:

- لن أفعل.

- ها أنا أراه! إنه ليس غرابًا، بل هو هي بومة!

- ولها وجهان.

على بعد خطوة مني وقف شابّ كئيب، يرتدي قلنسوة بألوان الطيف، ويحصي بحذر ريشاتي النحيفة، ورأسي التي لا عنق لها، والزغب الأبيض هول عينيّ المستديرة التي تشبه نظارته.

قال مؤكِّدًا:

- بل ثلاثة.

التفت الباقون نحوه بفضولٍ.

"ليسا وجهان، بل ثلاثة: من الصعب أن أصف لكم ذلك الشيء العجيب. إن له ثلاثة أوجه لا تخطئهم عيناي، لون أحدهم دامٍ، في الأمام، والوجهان الآخران التصقا به، فنبتا على يمينه وعلى يساره وسط كتفيها، والتصقا فوق ظهر الطائر.

ساد صمت مطبق، يخترقه تصدع أغصان الكرز وسط نيران، وصدر من ماخور HEUTE SECHS GIRLS القريب هدير موسيقى راقصة.

Twitter: @ketab_n

تساءلت "ديتا" بحماس:

- هل يعرف أحدكم ما أَنْشَده "كاميل"؟

صمت الشباب. ترنّحت رؤوس بعضهم قليلًا بتأثير الشرب المفرط للنبيذ وصوت الإنشاد.

- جحيم دانتي، الأنشودة الرابعة عشرة.

نشرت جناحيّ بقوة، وأردت أن أحتضن "ديتا"، لكنها فَزِعت مني، وانتفضت، فتطاير اللحم من الطبق، وسقط على سترة "أديلا" التي وقفت بجوارها. وحدث هرج ومرج. اعتذرت لها "ديتا" بقوة، بينما ضحك أحدهم. بدأت بعض الفتيات تهتزّ بعنف. اعتقدْت أنهن يرقصن، لكنهن كنَّ يطاردن البعوض، وراح رجل ما يقنع الباقين بأن يذهبن لإلقاء نظرة بيت الدعارة القريب.

وبابتسامة ساخرة معروفة سحبت "أديلا" سترتها الملوثة بدهن اللحم، ووضعتها فوق رأسها. لم تكن ترتدي تحتها شيئًا. تسمرن جميعًا في أماكنهن. صوّب القمر ضوءه على جسدها العاري وكأنه مصباح ضخم، على ثدييها البيضاوين، ونسوا جميعًا أمر البومة. فأغلقت عينيها، وسحقت بصرها، وحواسها واحدة تلو الأخرى.

أنام، وأهجع، لا أُولد الآن، تخمد حواسي أسفل سِتار صنوبريّ، ثم أعود إلى البيت، أعود إلى البيت على طريقتي، فلن أتمكن، مهما تحوّلت، من تجنب ما يتراقص خلف النافذة بعشوائية واضطراب.

اشتريت تذكرة قطار لأسافر إلى مدينة "براج". تناولت مشروبًا غازيًّا في مقهى بصالة السفر. مقهى بدا كما كان قبل نصف قرن، وهو كل عمري.

Twitter: @ketab_n

كانت الأراضي بمحاذاة القطار مختلفة تمامًا، المرتفعات والوديان، مخازن الغلال ورؤوس البُرّ. كذلك كان دهليز البيت الكائن في منطقة "سميخوف". غريبًا وقريبًا مثل فضاء في حلم، منزوع من وسط أشكال مفهومة. وكأنني قادمة من عصر قديم، عصر لا نعرف عنه شيئًا إلا من طبقات القشرة الأرضيّة، أو قادمة بعد انقضاء الإجازة.

ربما ستوبّخني أمي على أنني تركتها يومًا ما تقف وحدها تنتظرني في محطة "أنديال" أمام كشك الجرائد، ونعست، وأخذني النعاس، واستغرقت في النوم بينما كانت تحكي لي، وتسترجع ذكرياتها، وتغني أغنية روسية رومانسية، وتنتظر عبثًا أن أشاركها الغناء. غفوت عنها وأنا أتطاير في الهواء، وأسبح فيه المياه مثل ثعبان البحر، بدلًا من أرعاها وهي نائمة.

- أين ستنزلين؟

وقفت معي في كابينة المصعد امرأة بدينة تحتضن كيسًا بلاستيكيًّا متخمًا بالمشتريات، وخيوط العرق تسيل فوق وجهها، وعلى صدرها. أدهشني أني تذكرتها، إنها "كارولينا"، عرفتها من عينيها التي تدفع نظري بعيدًا وكأنها تدعوني إلى النّزال بعد أربعين عامًا.

لم ألحظ أي توبيخ في عينَيْ أمي بعدما فتحت لي الباب، وتراجعت إلى رواق الشقة. عبست في وجهي كل الأشياء المعروفة العادية من حولي، وشوهتها قوة شريرة جعلتها غريبة عني.

- حسنًا أنكِ عدتِ. لقد أحضروا أبيكِ اليوم من المستشفى. يريد أن يقضي نحبه في البيت.

***

كان هناك. ذلك الرجل المجنون في ثوب طويل يلف به جسده. لقد هرب من فتحة ما في جدار الزمن، وراح يثب فوق الأريكة، يهتف لأحدهم وهو يُلوّح بيديه:

- هيا، هيّا!

وفجأة بدأ يخرج من شرنقته، ويزيل الثوب عن جسده بهياج شديد. ينزع عنه ذلك الرداء الذي يشبه مومياء بُعِثَت إلى الحياة من جديد. ثم ينشر ذلك القماش في أرض خاوية. يبسطه في داخل ذلك العدم، في قلب الفراغ، وكأنه طريق محطم مليء بالمستنقعات، كان عليّ أن أسير فيه، وأتقدم إلى الأمام، أواصل السير فوقه رغم أنه يتحول إلى دائرة، ويغرق في محيط ذاته.

***

أردت أن أقبض عليها، وأهزّها، وأنفث في وجهها التي تبدّل من الحزن وصار وجه إنسان غريب عني، أن أنفخ في ذاكرتها الضالة: "أمي! استفيقي بالله عليكِ! لقد مرّ أكثر من عشر سنوات على وفاة أبي!". لكن وهج ضوء أضاء أمامي عينيّ ما كان عليّ أن أفهمه من البداية: وجدت في دهليز البيت حجرًا بدلًا من أمي، صخرة عليها ندوب، توقف فيها الزمن. إيقاع سرمدي "وأنتِ أيضًا"، تتابع الثواني لم يعد منتظمًا، ولا يتحرّك في اتجاه واحد. لقد لطم الصخرة على شكل موجات لزمن طويل حتى تحولت إلى مصفوفة لا تُقْهر. مررت على الصورة البارزة بأطراف أصابعي مثل الأعمى. فوجدتها هناك: كل الأحداث التي تشابكت مع بعضها، وتراكمت صورًا فوق بعضها، فصنعت بصلة ضخمة، ثائرة مثل

Twitter: @ketab_n

البركان. ولو أن كل الأحداث قد تحجّرت، ولو أن الزمن قد توقف موت أبي أيضًا، فهو إذن لن ينتهي، وعليّ أن أعايشه من جديد.

- مرحبًا يا أبي.

استلقيت في غرفتي التي كنت أسكنها في السابق وأنا طفلة. غطاء المصباح ما زال كما هو، عليه شريط لاصق ملون، وعلى الحائط صورة لرجل من الهنود الحُمْر، تحت حذائه رباعية شعرية تقول:

"الرجل الهندي صديق.. يحب لِبس حذائه.. يخلعه في الرواق.. فلا يلوث بيته"

لماذا هذه الرباعية الشعرية هنا. ما هذا العبث؟ يجب أن تكون في الرواق. كل الأمور اختلفت، وكل الأمور تسير على نحو سيئ.

لم ينطق أبي بكلمة واحدة. وظلت عيناه تراقبني. أُسقِط في يدي، لم أعرف إن كان عليّ أن ألتزم الصمت أنا أيضًا، أو على العكس؛ أبدأ في حديث لا ينتهي. أحكي له عن "ريبكا"، وعن الجديد في العمل، وأين سأقضي الإجازة. أحكي له عن الفتاة التي سرقت بذلة من المطّاط، وعن القِس الشاب الذي كاد يضرب مريضة أثناء جلسة العلاج بالقراءة. ماذا لو حكيت له عن شيء سيحدث بعد قليل. يمكن أن أقرأ له التعليقات السياسية من الجرائد اليومية، أو مقتطفًا من كتاب الموتى عند سكان التبت، يمكنني أن....

لم أعرف ما يجب أن أفعله، لأن أحدًا لم يتحدث معي من قبل عن الاحتضار. فكل ما فعلوه أن تطايروا أمامي، وابتعدوا عني مثل نجمة في السماء. كل ما استطعت أن أفعله هو أن أحضر له المقعد المتحرّك.

Twitter: @ketab_n

- يا ابن العِرق النبيل، ويا ابنة العِرق السامي، اسمع! انتبه جيدًا إلى ما سيحدث عندما تبدأ الحواس والعناصر في الاندماج. أيًّا كان ما ستراه هناك، أيًّا كانت أهواله، اعتبر ذلك صورة لذاتك، اعتبره نورًا، وشعاعًا قادمًا من عقلكَ.

عندما بدأت نظرات أبي الشرسة تُحوّل الجزء إلى كُلّ، والعكس، تقدمت من النافذة. كانت عربات الترام تتحرك تحت البيت، وشجرة الصفصاف الشهيرة العجوز تقف حزينة في الحديقة المقابلة بفجوة في جزعها. لا يمكن أن يهمس فيها أحد بسرّ من شدة الضجيج، فجوة تتسع لعلبة متناهية الصغر، لخطاب "ديتا" المطوي ملايين المرات. لكن ذلك المشهد عند النافذة كانت تكشفه أضواء قادمة بلد غريب تقع وراء عيني والدي. أضواء طالت الأشياء الموجود في دهليز البيت، أضواء غريبة، ثورة. أبحرت المزهرية التي دفعتها الزعنفة، واختفت من النافذة. لم تكن الأبواب موصدة بمفاتيح، بل بكلمات من فم ديكتاتور. الأدراج التي كان قاعها من العبوس خرجت من الطاولات، وتحركت في الغرفة فوق أرجل الطيور. تلوّت إبر الحقن، وأنبولات الدواء وكأنها يرقات باهتة عائدة إلى الحياة. تشابكت أذرع البيجامات والأقمصة مع بعضها، وراحت ترقص عند سرير أبي في دوائر، وتدق فوق الأرض بأطراف صناعية تبرز من تحت حواشيها. كان كل هؤلاء الثوار ضد رجل واحد، كل تلك الأشياء التي اتخذت هيئة غير هيئتها، مزاح وإيماءات مهذبة تنتشر بغضب في كل أرجاء الغرفة. الشيء الوحيد الساكن الذي لا يشاركهم الحركة كان أبي القابع تحت الغطاء.

- ماما! لماذا هذه الخريطة هنا؟

كانت منبسطة فوق السجادة، ولم أرَها إلا الآن.

همست قائلة:

Twitter: @ketab_n

- كان أبوك يبحث فيها عن أحد الشوارع. اسمه "فاستودني"، لكنه لم يعثر عليه. فلا وجود لشارع بهذا الاسم في المدينة.

لا أدري لماذا جلست بجوار سرير أبي فوق الخريطة، في مكان بين حيَّيْ "هردلو رشازي" و"سميخوف". وعلى الفور غشيني النوم.

لا أدري كم ساعة ظللت نائمة فوق تلك الخريطة، أستيقظ ثم أستسلم للنوم من جديد. كنت أحيانًا أشعر وكأنني حبة دواء مستديرة مخبأة في علبة صغيرة، وأحيانًا وكأنني أتمدد فوق شراع ضخم يغطي آلاف المدن.

فجأة سمعت صوت أبي يقول:

- الأمطار تهطل بغزارة... خذي عندكِ... خلاصة القول...

بدا الأمر وكأنه أراد أن يلعب معي لعبة الـ (خاء). كان ينطقها بوضوح، وبعناية مثل طفل صغير أراد أن يلفت إليه أنظار الكبار.

- لا أريد أن أدفن في الأرض... أريد أن تحرقوا جثتي.

كانت يداه فوق الغطاء خارج سيطرته. كل ما كان يتحرّك من فراغ إلى آخر، وكل ما كان يصنع في السقف فجوة كي يصطدم بسقف آخر لم يعد يشبهه في شيء، ولم يعد يشبه أي حقيقة أخرى أعرفها.

حاولت أن أنهض من مكاني. فانفصل جزء من حي "كوشيرش" عن الخريطة، وظل عالقًا خلف ظهري، ملتصقًا وكأن الصمغ الذي يستخدمه "بيتر" لم يجِفّ بعد.

- هل تستمعين إلى ما أقول؟ أقول لكِ لا أريد.

Twitter: @ketab_n

ثم غيّر لهجته فجأة. وقال بنفس اللهجة -كان دائمًا يطلب بها الطعام في المطعم من "جرسون" يتفهم رغبات زبائنه -:

- أو قطعوني إربًا إربًا، وقدموا جثتي طعامًا للنسور كما يفعل القرويون عند سفح جبل "كايلاش".

سقط دَبّور في كأس به شيء ما كثيف وحُلْو. فغطيت الكأس سريعًا بأحد الأطباق. ورحت أراقبه ليلًا ونهارًا، صباحًا ومساءً وهو نائم. انظروا! تطلّعوا أيها الثائرون، يا يرقات الأشياء الباهتة! يا مسيرة الأشياء الطائشة! قريبًا ستتوقفون عن الرقص مثل هذا الدبور، وستختفون إلى الأبد في رَدْغَة لزجة.

توقف الترام في الشارع، وتدافع منه الركاب. شعرت أني أعرفهم جميعًا. أشاعوا أجواء الصيف، وبدت عليهم ثقة بأنفسهم، ووسامة. مثلًا تلك الفتاة التي ترتدي چيبة قصيرة، وسترة عليها صورة رأس كبير لـ "كورت كوباين"، تتأبط أنبوبة من المؤكد أن بها لوحة مطوية تنضوي على موهبتها الفذة. تخيلت أني أدعوها إلى تناول الـ"موخيتو" أو كوكتيل sex on the beach، أي كوكتيل يحتوي على فودكا وعصير التوت الأحمر، ولِيكِير الخوخ، وأن أُفضِي إليها بما في صدري على الفور:

- لا أعرف إن كنتِ على علم بالأمر، لكن التوابيت إما أنها من السولويد الشفاف، بقاع من الزنك، أو أنها معدنية بها وسادة غير نفاذة. فترة إحراق الجثة وحدها تستغرق ساعة ونصف. وأصبحنا نستخدم غالبًا تقنية صديقة للبيئة، تُدار بالحاسب الآلي. وبالتالي لا يتسرب إلى الهواء ثاني أكسيد الكربون، المسبب الرئيسي للاحتباس الحراري، وكذلك الزئبق السام من حشوات الأسنان. وكثيرًا ما يحدث أن يضعوا في جسد المرحوم منظم صناعي لضربات القلب، تنفجر بطاريته في الفرن مع الجثة.

Twitter: @ketab_n

ذهبت كي أحضر شفرة وحوضًا لأحلق ذقن أبي. فوجدت ثلاث سيدات يجلسن في المطبخ خلف الطاولة مثل جِنِّيَّات البحر. كنّ على هيئة طيبة، يجلسن بطريقة استعراضية، وفي مزاج جيّد. كنت يومًا ما ألعب تحت أقدامهن بجيش الفاصوليا الذي كنت أقوده. بدت السيدات وكأنهن قادمات إلى هنا من الكنيسة مباشرة، أو من تدريبات الأيروبك. قالت أكثرهم سِمنة:

- الحياة مستمرة.

ثم أضافت المرأة الثانية:

- الألم يطويه النسيان.

بدا الأمر وكأنهن قسمن كلمات المواساة بينهن مثل قطعة الحلوى، إلى ثلاثة أنصبة متساوية. وبعدما قالت ثالثتهن"

الزمن يعالج كل شيء".

لم أتمالك نفسي، فصفقت الباب بقوة.

- بابا!

وضعت الحوض أسفل ذقنه. فراح يتفحصني باهتمام، ثم سألني:

- من أنتِ؟

أمعنت في نظرته أبحث عن لمحة سخرية أعرفها، أو مزحة حمقاء، لكنني لم أجد سوى طفل كبير غريب عني يرقد أمامي، وأراه هنا الآن لأول مرة في حياتي. تحجرت في مكاني. حولني سؤاله إلى صخرة توقف فيها الزمن. تمامًا كما بدت لي أمي من قبله.

أجبته متلعثمة:

Twitter: @ketab_n

- أنا "إيما"، ابنتك.

فرفع إصبعه مهددًا، وقال:

- بالله عليكِ، اسمعي أيتها الممرضة، دعيكِ من هذه الافتراءات! فأنا.. أنا ليس ابنة. عندي فقط ابن واحد، واسمه "بيتر". للأسف لا يمتلك عقلًا واعيًا بدرجة كافية، فلم يدرس شيئًا. ودائما ما كان ينظر في أواني الطهي عند أمه. فتعلم الطهي، وصار طبّاخًا.

لم نتحدث يومًا فيما سيحدث لو نسيك شخص قريب منك. لقد تقلّص الكون في فتحة شجرة الصفصاف الموجودة في المنتزه أمام البيت، وصار فجأة رمزًا للفناء، لم أتمكن ولم أرغب في أن أكون جزءًا منه.

استدرت نحوه بظهري. كانت شعيرات ذقنه تسبح فوق سطح الحوض، تطوف هنا وهناك في رقصة متناغمة تشبه الحيوانات الأولية تحت المجهر. كان رجل الهنود الحمر يرتدي في الصورة خفًّا سخيفًا، وغبيًّا مثل التي أعطتني أمي إياه في أعياد الميلاد، ورغم ذلك شدّ وتره وصوبه نحو أبي.

فجأة سمعت في الغرفة صوت خبطة مكتومة. بالتأكيد كان معنا، معي أنا، وأبي، والرجل الهندي شخص آخر في الغرفة. التفتّ حولي. فوجدت امرأة هزيلة، توشحت باللون الأسود، تجلس فوق مقعد في أحد أركان الغرفة الغارقة في الظلام، تميل على أحد الجوارب المشدود فوق ركيزة خشبية. وبمجرد أن مرّرت الإبرة فوق الركيزة، دوّت وسط الضوء الذي بدّل عقل أبي، وأصدرت تلك الطقطقة الهادئة، وكأن عقرب ثوانٍ في ساعة في يد أحدهم قد تحرّك من مكانه.

- أشكركِ على مجيئكِ!

Twitter: @ketab_n

ربما قال ذلك بفضل طقطقة الإبرة الهادئة. لكن جبل ثلج في داخلي راح ينهار. جبل الثلج ظل كامنًا في داخلي طوال تلك الأيام والليالي، فمِلْت على تلك السيدة، واحتضنت ركبتيها. فراحت أمواج النوم المتكسرة الكامنة عند قدميها وجوربها المتهتك تطيح بي، وتلقي بكسرات خطايا مشوهة على الشاطئ:

- أحمل له الأوعية، وأحلق ذقنه، ثم أحقنه بالإبرة - أنا التي تفزع من الإبر! - ليقول لي بعدها إن لديه ابنًا وحيدًا! يختفي، ويتلاشى، ويزول، ويهرب، ويفرّ، ولا يترك خلفه سوى حرف الخاء، ذلك الحرف السخيف، فأهزّ وعاء رماد الجثة. ماذا عني؟ اليوم، وغدًا، وبعد عشرة أعوام؟ مجرد ثعبان بحر عديم الجدوى، بومة تفِرّ من حديقة إلى أخرى، أبحث فيها عبثًا عن طريق للخروج. حلم يُسَلّم حلمًا، أحلام تتعاقب، وبيتر...

قاطعتني السيدة "شفارزوفا" بحزم، وقالت:

- كفي عن الشكوى! لا تتبرمي، ولا تندبي حظّكِ. ليس هذا أمرًا مقبولًا. تذكري أن الفتيات الصغيرات المتبرمات، واللواتي لا يأكلن السبانخ لا يحبهن أحد.

أردت أن أطلب منها أن تفسر لي أخيرًا معنى الكلمات الثلاث من تلك اللغة الغريبة. كل ما أردته هو ألا ينقطع حبل الحديث بيننا، أسألها عن صحة قطتها. لكن حركة أجنحتي حجبت عني الكلام، كما ستفعل في وقت لاحق. فلم يصدر مني سوى كتل من المقاطع الموحلة المتلعثمة:

- أنتِ تضيعين وقتكِ في تلك الجوارب. لم يعد أحد يحيكها اليوم، أو يرفوها، أو يصلحها، أو شيء من هذا القبيل... ببساطة تخلصي منها، وابتاعي جوارب جديدة.

غرقت الغرفة في الظلام. صارت شجرة الصفصاف وراء النافذة تشبه ظلًا طويلًا ونحيفًا فوق السيدة "شفارزوفا". أضواء المصابيح بالكاد تلمس

Twitter: @ketab_n

الشجرة، بالكاد تلامس الأشياء، والبشر التي تسير في الشارع. اختفت كل الأشياء شأنها شأن وعي أبي بالأشياء الذي تلاشى في جوف شعاع خَفيّ. لم أعد أسمع صوت الإبرة، ولا ردودها الهادئة من ركن الغرفة:

- لكن الموتى يفعلون يا سيدة "تشيرنا"، يصلحون الجوارب.

اختفت الجنيّات الثلاث، ونامت أمي فوق الأريكة في غرفة المعيشة. وفجأة دوّى في كل أرجاء الشقة هدير عاصف، وكأن تلك الركيزة الخشبية قد تحولت إلى طبلة، والإبرة إلى مطرقة، وكأن فرقة موسيقي تستعدّ قبل عزف سيمفونية.

- توقفوا! أتسمعونني؟ إنه ليس في حاجة إلى جواربكم هذه.

استفقت على صوت صراخي. كان المصباح الملتئم بشريط لاصق مُبْهِج ما زال مشتعلًا. أبي يجلس على حافة السرير، قدماه العاريتان تتدليان فوق الأرض، ويعبث في حقيبة قديمة مُتْرِبة ومليئة بالألعاب.

- أبي، ما هذا الـ..

ثم عدّلت الجملة سريعًا، وقلت:

- لا تمشِ هنا حافيًا يا سيدي، ماذا لو أن هناك إبرة ما ملقاة على الأرض.

همهم معتذرًا:

- هذه الحقيبة كانت هنا تحت السرير يا ابنتي..

التفتّ نحو المُنبّه. كانت الساعة الثالثة وعشرين دقيقة. إنه الوقت الذي ينام فيه شقيقي مع أوهام زوجته. رحت أفرغ الألعاب من الحقيبة، وأعطيها له واحدة تلو الأخرى، تمامًا كما كان يفعل معي ذات يوم. وفجأة لم يتبقَ ما يستدعي إلقاء المزيد من الأسئلة، واختفت السيدة "شفارتزوفا". اختفى كل

Twitter: @ketab_n

شيء، وحتى الإرهاق، والوهن، والموت. وقعت الإبرة بفتحتها الكبيرة في يده وهو يحتضر، قطع خشبية مسحوقة، وفأر مبقور، أجريت له يومًا عملية جراحية فاشلة، صواميل ومسامير في مجموعة تركيب الأشكال ماركة "ميركور". أخذها في يده، وقبض عليها، ثم حررها، تمامًا مثل ذاكرته وذكرياته منذ قليل. قربها من عينيه لقصر نظره، وتحسسها، ثم وضعها فوق الغطاء وأنا أتابع تلك الأشياء وهي تصطفّ على شكل قافلة ناعمة ممتدة، تعترض طريقه عبر الزمن.

أزال بإصبعه التراب عن سقف العربة الصغيرة، ووضعها فوق وجهه، وراح ينظر من نافذتها الصغيرة. كانت صورة مصغرة دقيقة لقطار حقيقيّ. باب متحرّك في الرواق يفتح على مقصورات صغيرة. رأيت ما رآه، وأخذت أتابع وأنا أجلس بقلق مع "ريبكا" فوق المقاعد، وأبي يعطينا شرائح ملفوفة في ورق سِلوفان، ومعها قطعة من البسكويت. كانت الثلوج تتساقط بكثافة، والنهر الذي مر به القطار الآن يموج من جانب إلى آخر مثل كائن ضخم يظهر في الحلم. صائد أسماك مصنوع من نتف الثلج يجلس عند شاطئ النهر فوق مقعد قابل للطيّ. أبي يكسر قطعة البسكويت، وكتلة ثلج في النهر تتصدع، وتتكسر، ثم تسقط على الطريق وهي تحمل شيئًا غامضًا وغريبًا. حولت تلك الستارة الهندسية الصلبة من نتف الثلج المقصورة التي نجلس فيها إلى كرة شفافة، تبدد فيها الثلوج حركة القطار، ثم قرع عارضة خشبية أسفل القطار، وصوت أبي:

- احترس! نفق!

راح يتشاكس مع "ريبكا" في الظلام، وهي تخبط حولها بقدميها العاريتين التي لا تطالان الأرض. وعندما تجاوزنا النفق تظاهر كل منهما وكأن شيئًا لم يحدث. صرخ فينا مفتش القطار الصغير الذي يشبه دمية رجل

Twitter: @ketab_n

صغير في صندوق الألعاب لأن الأوراق وفتات الطعام تبعثر في كل مكان فوق الأرض، بينما أنا أتطلع خلف النافذة، وأنتفض من الخوف. شيء ما منعني من متابعة المشهد. لم تكن الثلوج: بحيرة معتمة التصقت بالزجاج، نبع بلا قرار ذاب فيه كل ما تبقى من عناصر الحياة.

أخيرًا رفع أبي عينيه بعيدًا عن العربة الصغيرة، ثم وضعها فوق الغطاء. بقينا نعبث في الحقيبة بعض الوقت، وتبعثر بقايا اللعب في كل مكان حولنا، فوق السجادة، وعلى السرير. بالتأكيد أن ذلك الجزء بذراعه الطويل النحيف كان لدمية باربي التي خبأتها عن "كارولينا". وهذا الجيتار الصغير...

صاح أحد الأوتار:

- شنوياتا...

فأجابه الآخر:

- شنوياتا...

ثم فجأة انفكّ الوتر الثالث، ولطمني في وجهي. لم يكن هناك المزيد من الأوتار.

نظرت إلى أبي. وجدْتُه وقد عصفت به إحدى الدوامات، وألقت به عند سفح منحدر تلوّى واديه وتحول إلى متاهة مترامية وشديدة الانحدار.

اندفع أبي يتقلّب بلا توقف، لمدة ثانية واحدة، وتفجر عقله في الفراغ مثل الألعاب النارية الاحتفالية، وهو يعصر قبضته.

في النهاية سمعت صوت ثلاثة تنهدات عنيفة متتالية، آخر ثلاثة أصوات في لعبتنا. سقطت على ركبتي بجوار السرير، وأغلقت الحقيبة.

Twitter: @ketab_n

أمام الباب وفوق ممسحة الأرجل حيث سأبحث هناك يومًا عن حبة دواء لاستعادة الوعي، سأبحث مرات ومرات، على الدوام وكأنه مشهد عالق يتكرر. هناك وقف رجلان من عند الحانوتي متسمران ومنتصبان. تمثالان من الخشب مسطحان. وقفا هناك وكأنهما شكلان في صالة للرماية، وبذلتان سوداويتان صغيرتان عليهما، وجوارب بيضاء تطل من سروالهما مثل صورة أبي الميت فوق السرير.

ومن خلفهما في رواق البيت يوجد تابوت. لم يكن بالتأكيد تابوتًا شفافًا بقاع من الزنك، ولا نعشًا معدنيًّا بغطاء غير نفّاذ. ذلك التابوت كان مشوهًا، وغير متقن، وكأن شقيقي قد صنعه على عجل.

أدهشني حجمه الكبير. من الضروري أن ينتبه الصانعون إلى عرض الأبواب. لكنهم بالفعل انتبهوا إلى ذلك. أدهشني أيضًا أن التابوت مرّ من الباب بكل سهولة ويُسر.

ألبست -أنا وأمي -أبي حذاءه الأنيق المفضل ذا النعل القصير. كان يلبسه بذريعة حضور لقاءات عمل، ويذهب به إلى مقهى اللوفر ليشاهد حوض السمك، وسلاحف الماء التي تقرض بعضها رؤوس البعض بكل غضب. ثم فضضت قبضته المعتصرة. بدا وكأنه يخبئ فيها شيئًا. كان يحتفظ في قبضته بثلاث صواميل من طاقم قطع التركيب ماركة "ميركور". دسست الصواميل الثلاث في جيب أبي بسرعة قبل أن يراني أحد رجال الدفن. ثلاث ندف الثلوج متناهية الصغر. عليها خلفية أساسية تتكرر بأشكال متعددة، حملها معه في رحلته.

أين كنت يا شقيقي، أين كنتُ في تلك اللحظة؟ ماذا طهوت في الأواني التي تفور بصلواتكِ الدؤوبة الكامنة في أعماقكَ؟ ممن سرقت تعبير وجهك الآن، في لحظة الصواميل الثلاث الصدئة، ووضعته فوق مُحيَّاك مثل رقاقة بلاستيكية

Twitter: @ketab_n

شفافة؟ أراك في مقابض سكاكينك اللامعة، أراك وأنتَ تجوب المدينة، وتسأل أحدهم عن الساعة كي تسرق صوته، أراك وأنت تحتضن زوجتكَ العارية التي تشع ضياءً في قاع الحوض الفارغ. ربما أنكَ أسكنت في السقف رجلًا غريبًا، ورحت تستطلع مجموعتك البحرية بإعجاب. وأسألك مثل موجة حملت لك مقتنياتكَ إلى الشاطئ، أسألكَ وألحّ في السؤال، ولن أتوقف يومًا عن ذلك، وفي كل مرة بنفس الطريقة وبطريقة مغايرة: يا شقيقي. أين كنت في تلكَ اللحظة؟

***

صفق أحدهم الباب، ومن الجانب الآخر علَت جلجلة حزمة مفاتيح في يد "رامبو". أخذتُ نفسًا عميقًا وكأنني ألتقط وأبتلع جميع التفاصيل التي تخلفت ورائي هناك في الداخل. وأيضًا تلك التي تحيطني، وأدخل فيها وكأنها سِرْب بعوض.

أحمل على كتفي حقيبة بها ملابس متسخة، وكراسة مليئة بلعبة إكس-أُو. وفوق كتفي الآخر أحمل حقيبة ظهري، كنت كمن هو عائد من أحد المعسكرات، مشهد مبتذل. لعبة القتال الغبية، وحفل تعميد في مكان قذر. سمعت من بعيد عويل قرد غاضب قادم من المزرعة، أو ربما خُيِّل لي ذلك.

كانت السماء من فوقي زرقاء مشرقة أكثر من أي وقت مضى، خالية من أية سحابة. لا تظهر فيها سوى آثار طائرات هنا وهناك. وقبل أن أتبع وشاح المجانين الذي سيأخذني بكل نعومة وسلام خارج الحديقة، جلست على الأريكة الذي كان يطفر فوقها يومًا ما، وأشعلت هاتفي لأول مرة بعد ثلاثة

Twitter: @ketab_n

أشهر. انطلقت من نغمة متلاحقة، ثم أطلق صوت أنين يشبه ذلك الكلب الشِره الذي أكل قطعة الحلوى من جرو صغير وقطة صغيرة.

"عزيزتي "إيما"! أتمنى أن تكوني في حال أفضل... للأسف.. وبناء على قانون، المادة 52 الفقرة ج... بسبب العمالة الزائدة..."

إنها الإجابة إذن. كان واضحًا منذ البداية أن مجلة للنساء لا يمكن أن تتقبل بومة كسيحة. وراحت تدور في رأسي بعد صورة الملكة البيضاء وهي تستعرض نفسها في أحد المنتزهات، تتحرك هنا وهناك، وترسم بشفتيها الحمراوات ابتسامة، وتقول:

- مبروك يا سيدة "تشيرنا"! فعلًا أهنئك من كل قلبي!

أخذت تكرر وتُعيد وتَزيد من خلف صف بطاقات اللعب التي صنعت بها مروحة في يدها، ولا يرى أحد غيرها وجه تلك البطاقات.

أهنئكِ بأنكِ مدعوّة إلى تقديم دليل على الحقائق الهامة، مثل التسجيل في قائمة تأمين المعاش، والذي بموجبه سيتم إدراجكِ في قائمة الباحثين عن عمل، وبذلك ستحصلين على إعانة بطالة. وستترددين على مكتب العمل بين الحين والآخر، تأخذين رقمًا مسلسلًا، وستتطلعين مع باقي المواطنين غير المؤهلين إلى شاشة، يظهر فيها أحدهم في وظيفة ميكانيكي وهو يربط المسمار بسعادة، أو في وظيفة خادمة غرف ترقص بسعادة أكبر ومسؤولية أكبر فوق سجادة أحد الفنادق، وهي تمسك بمكنسة في يدها. ربما ستشعرون بالضيق، فالجو هنا خانق، ومفعم بالهواء الفاسد، وكل الحاضرين يعتصرون ورقة الأرقام المسلسلة في أيديهم المبللة بالعرق. ولن يرسم لكِ أحد باقة زهور في الاستمارة التي ملأتها اثنتي عشرة مرة. وأذنان خشبيتان جاثمتان بجوارك على المقعد،

Twitter: @ketab_n

تربطهما إبرة، ويتدلّى منهما عشرة أظافر حادة، والسقف تحت قدميكِ وكأن عجلة سعيدة قلبت رأسكِ. لكن كل شيء سيتغيّر بعد أن يبحثوا خطة العمل المسجلة برقم 8212! وستعطيك امرأة لها وجه قدِّيسة معذبة خطابي توصية في قرية "سفياتفي" -هذا هو بالفعل اسم القرية -فهم يبحثون هناك عن تاجرة فَرْو ماهرة، ويطلبون في مدينة "هاراخ" مدربة رقص الجليد. من المستحيل أن تعلقي في وحل نهر "بوتيتش"، أو تدخلي إلى لوحة، أو تتوهين في خندق المجرّات المُنْفَرِج عند أطراف مدينتكِ الأم. فالمسافة من مكتب العمل وحتى مكتب الشئون الاجتماعية لا تستغرق سوى محطتين بالترام. لا أدري يا سيدة "تشيرنا"، واعذريني، لا أدري لماذا لا أرى في ذلك خيرًا لكِ. فأنا لست متفائلة من هذا الأمر، فأنتِ تحملين معكِ حقيبة الظهر هذه في كل مكان. على الأقل لا تترددين المكاتب الحكومية وأنتِ تلبسين خفًّا في قدميكِ. ذلك الخفّ البشع، خلاصة الصناعة الفيتنامية. تتقدم منك امرأة وأنتِ في الترام. إنها ليست غريبة عنكِ، تبدو وكأن مرآة نبتت مكان رأسها فوق رقبتها المنتفخة. تفتح كفّها وتمده إليكِ. لن أعطيكِ شيئًا. تعصرين قبضتكِ، في الواقع أنا ذاهبة لتقديم طلب إعانة اجتماعية عاجلة! لا أريد أن أروّعكِ. لكنهم سيرفضون الطلب، ويمكنكِ أن تقدمي طعنًا على القرار حسب المادة 77، الفقرة الثانية خلال خمسة عشر يومًا. لكنكِ ستخجلين، وستقولين لها برقّة:

- يا امرأة، ألم ترَيْ عالمًا آخر يمرّ من هنا؟

- ماذا تقولين؟ العفريت الصغير يدقّ على طبولنا؟

- بلى، أنتِ لا تفهمينني. أنا، أقصد أن اليأس أحيانًا...

- كلماتي. الناس يفسدون كل شيء.

Twitter: @ketab_n

تتوقف الأرض عن الدوران، وتتجمد النجمة في أعماق الفضاء. كل هذا ينتظرك يا سيدة "تشيرنا"، وأكثر منه بكثير، أكثر بكثير...

توقفت عن الاستماع إليها. انتابني خوف شديد على "ريبكا". الواقع أنها تجلس الآن في القطار، وتتوجه نحو البحر. طالت قدماها من زمن فطالت الأرض. لكنني كنت خائفة ألا تجد البحر هناك، وسترى بدلًا منه وادي الحواسّ الخمس الرمليّ، مترامي الأطراف، وبدلًا من شقيقي لن تجد سوى صورة فوتوغرافية بيضاويّة عليها ملامح ضائعة وسط شبكة من الخيوط.

استدرت نحو المبنى رقم 8 من جهته الخلفية، رأيت شيئًا غريبًا يقترب، قادمًا من الأرض والسماء، من وسط زرقة ناصعة في كل مكان. بدا وكأنه سحابة وردية ضخمة انبثقت من داخل كائن معرض للخطر، وتطلب منه أن يحميها. لكن الأمر كان مختلفًا تمامًا: الهواء من حولي كان يموج وكأن حريقًا اندلع؛ احتضن قنديل البحر المبنى كله، وكل الأرض الممتدة من حوله بلا نهاية والتي تغطيها أِسرّة المستشفى. غطى قنديل البحر بجسده جميع النوافذ، ثم ضمَّها، وخبأها في أحضانه، وضمها بقوة. وعندما علا قنديل البحر في الهواء مجددًا لم يبق شيء في مكان المبنى الذي وقف هناك لأكثر من ثمانين عامًا.

رغم ذلك عرفت أن أحدهم قد انتشلهم تلك الخرائب، وأخرجهم من الجحيم واحدًا تلو الآخر، في اللحظات الأخيرة، قبل الفناء، ونقلهم بسرعة الفكرة من مكان مُهدد ومُغلق إلى مكان آخر آمن: رأيت "مارتسيلا" المستديرة وهي جاثمة أمام بيتها الجديد الرائع، ومن خلفها عين حمام السباحة الأزرق وكأنها صورة في مجلة. رأيت أيضًا الملكة البيضاء، السيدة "إيرينا"، بدون بطاقات في يدها أخيرًا. تتأرجح فوق ساعدها حقيبة يد ماركة "لويس فيوتون". تتألق وسط حفل استقبال فاخر في زيّ صنعَتْه مصممة أزياء تشيكية مرموقة. تمسك بكأس ماء، بالطبع، في يدها، ويموج من حولها

Twitter: @ketab_n

رجال، أنيقة بأنامل مرهفة الحِسّ. نبهتها بصعوبة وأنا أدفع أمامي صخرة ضخمة من عند المدخل إلى داخل مقبرة الكهف، تحللت فيها وهي ترتدي قميصًا يصل أسفل مؤخرتها. خرجت منها يرافقها صياح "ماريا"، وانطلقت فوق دراجة بخارية قديمة ماركة جافا 250، وهي تمسك بأبيها وتقبض عليه بقوة وينطلقان إلى مكان لا أعرفه، ثم تبعتها "دانا"-الشجرة، و"فلادينا"، والفيللا الهشة، الحمل الذي أراد أن يخنقني بالوسادة، وبعدها "جيزيلا" ورفيقها. واختفوا جميعًا وسط حشد يتراقص في حفل موسيقي لشاكيرا. وأخيرًا خرجت "بلانكا فوسيدلاكوفا"، "كارميلا". وجهت الأم تريزا آلة التصوير على توأمها الذي يدفع نفسه فوق الأرجوحة:

- اللعنة! تنفّسِي بعمق! وادفعي نفسكِ بقوة!

فارتدّت بكل قوتها، واختفت في السماء، ثم عادت من جديد نحو الأرض إلى أن ضغطت على الزناد، فسقط كل شيء في الظلام.

غادرت الترام. لم يدهشني أن أرى تلك الكنيسة تقف شاهقة مكان كشك الجرائد الذي حشر فيه نفسه ذلك الرجل السمين، ومكان مطعم "أوبيفونكا" للوجبات السريعة. لم يكن هناك أحد، ولا حتى ذلك الرجل النائم الذي لم أتمكن يومًا من إيقاظه. كل ما سمعته هو صوت نباح قادم من المنطقة التي اخترقتها قدما المسيح العملاقة المنتصبة وسط الفراغ، وسرعان ما اختفى ذلك النباح: امرأة ما ظهرت هناك، ترتدي ثوب جدّة تجرّ وراءها مِكنسة، وتنظف سجادة وسط غرفة المذبح.

لم تتساقط الثلوج هذه المرة. أضْلُع قوطية مُقنْطرة، وقديسون يحتضنون الصليب. حيوانات صغيرة وإنجيل. اذهبوا من فضلكم إلى الصفحة رقم 66:

Twitter: @ketab_n

"فأجرى الربّ البحر بريح شرقية شديدة..."، يا سيدة "تشيرنا"، هل أنتِ مُنتبهة؟؟ أنتِ ما زلت تفكرين في الرحلة إلى دمشق! "... فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة...".

لا أريد أن تراني تلك المرأة التي تنظف بالمكنسة. أتقدّم وأنا حانية ظهري، أعبر اليابسة، وأسوار الماء من حولي، على يميني وعلى يساري. صعدت سلالم المنبر الحلزونية الخشبية درجتين في خطوة واحدة. كان هناك باب صغير خلف المنبر. صغير لدرجة أنه لا يتسع لإنسان طبيعيّ. ربضت فوق الأرض، وكأنني أدعو في اللحظة الأخيرة أن ينفلق البحر، وأمسكت بمقبض الباب بينما فتحه أحدهم من الجهة المقابلة بكل قوة. فسقطت داخل المكان.

"مرحبًا بكم على متن طائرة البوينج 737".

تركت السيدة "شفارزوفا" لأول الملابس السوداء، وارتدت زي المضيفات الأنيق، وأعطتني مجلة "بليسك". ارتميت فوق المقعد، ورجت أتصفحها. خبر واحد لَفَتَ انتباهي:

"امرأة من مدينة هلينور بأيسلندا تتذكر كل الأحداث التي مرّت بحايتها خلال الخمسة وعشرين عامًا الأخيرة، كما أنها قادرة على أن تتذكر كل ما فعلته بالتفصيل في كل يوم خلال هذه المدة: من التقت، وماذا تناولت على طعام الغذاء...".

وفجأة سمعت ضحكات قادمة من خلفي، وحسيسًا غريبًا وكأن أحدهم يمزّق علبة من الكرتون، أو كأنه يصنع من أوراق أعياد الميلاد إنسانًا صغيرًا وهو يبتسم بسعادة، صنعوا له هذا الباب الصغير.

التفتّ ورائي. إنها "ريبكا". أردت أن أناديها، أنا أصف المزيد، وأشرح أشياءَ أخرى. لكن الكلمات اختفت، تصدعت في داخلي إلى الأبد مثل الأوتار الثلاث في جيتار المهرج.

كانت تجلس بجوار شقيقي "بوبل"، يتفرجان على صور الحيوانات رأسيات الأرجل. كانا يتلامسان برأسيهما، بدا وكأن أحدهما ينبت من جسد الآخر، ويصدران حسيسًا وضحكات.

وهناك جلست أمي! كادت تختفي وسط المقعد وهي تراقبنا جميعًا، تتفحصنا واحدًا تلو الآخر، لتتأكد من أننا ترتدي في هذه الرحلة ملابس ثقيلة بالقدر الكافي، وأن أبي لم ينسَ أيًّا من الأدوية التي يتناولها.

وهنا انتصبت السيدة "شفارتزوفا" وسط الممرّ، وراحت بحركات إنسان آليّ وبوجه متحجِّر تشرح لنا بلغة الإشارة جميع الخطوات المطلوبة لتشغيل سُترة الإنقاذ. تابعناها جميعًا باهتمام. لكن أبي ألصق وجهه فوق النافذة الصغيرة، يتابع بشغف كبير -كما فعل يومًا عندما نظر إلى داخل القطار الصغير -خطوط العربات المتداخلة التي تنقل الحقائب في منطقة الطائرات.

قال لنفسه:

- هناك نظام يحكم هذا كله. ولا بد أن أعرف ما هو. من المؤكد أنه معقد للغاية، لكنه فعّال تمامًا.

همست له بحذر عندما انطلقت المحركات، وبدأت الطائرة تتحرك فوق ممر الإقلاع:

- بابا! إلى أين نحن ذاهبون؟

Twitter: @ketab_n

رمقني بنظرة متشككة، مليئة بالدهشة والاشمئزاز أيضًا، تشبه نظرته لي عندما كان يشرح لي مادة الجغرافيا، وأنا عاجزة على أن أتذكر أسماء عواصم جمهوريات البلطيق:

- أنتِ تعرفين. بالتأكيد تعرفين. لماذا تسألينني إذن؟

بالطبع أتذكر:

- فيلنيوس، وريجا، وتالين.

ورحت أكرِّر هذه الكلمات الثلاث مرة بعد مرة وكأنها تعويذة، وتميمة، الصلاة الوحيدة التي أعرفها.

- بالطبع أعرف إلى أين نحن ذاهبون: نحن ذاهبون إلى "شتراس مانيا". أرض كل الاحتمالات.

علَت الطائرة فوق المدينة وهي تلفّ وتدور مثل ذلك الكيس البلاستيكيّ. طارت فوق منطقة، صَغُرت مثل جدول الكلمات المتقاطعة. عبرنا سحبًا وسط سماء الزرقاء، وطِرْنا فوق جميع سقوف العالم، فتبدلت كل الأشياء، وكل المخاوف، وكل التفاصيل، وصارت حركة متدفِّقة لا تنتهي، صارت أمواجًا عاتية متكسرة من اللاعناصر. تحولت إلى تشكيلات راقصة.

Twitter: @ketab_n

#كتب_مختلفة #التشيك

لا أتخيل أننا نتعانق. بضعة أيام كانت كفيلة بألا أستطيع أن أدقق نظري في ملامح العالم التائهة خارج الغرفة. ألمسك، فتتبددين، وتختفين في لعبة بشعة لا يمكن تكرارها. ثم تأتين إلى هنا في أول زيَارة لك. لو أنك فعلت، ولو سمح لك الألم، وجبال الكذب التي وقفت حائلًا بيننا، فلا تنسي أنَ تنثري خلفك حفنة من حبات الفاصوليا كي تعثري على طريق العودة. تعالِ وأنت تضعين قناع قرصَانٍ إسكندنافي. اظهري هنا عند عتبة الباب وأنت تتحصنين بدرعٍ واقٍ مثل المحاربين. تعالَي على هيئة صخرة، ارسى بعد أن أصبحت بحرًا هائجًا ممتلئًا بكتل ثلوج تتصدع، ارسى هنا على السطح وأنتِ ترتدين حُلَة الغطاسين، أو رداء المطر الأخضر. آمين!

سوزانا برابتسوفا

أديبة تشيكية من مواليد براج 1959. منعت من الدراسة في الجامعة لأسباب سياسية إبان الحقبة الشيوعية، فعملت في وظيفة أمينة مكتبة، فلاحقها النظام ولم تستطع مواصلة عملها، حتى اضطرت إلى أن تقبل وظيفة عاملة نظافة في إحدى المستشفيات. نشرت أعمالها قبل الثورة عام 1989 في دور نشر سرية. اشتغلت بعد الثورة في وزارة الخارجية، ثم عملت في مجال النشر. أصدرت روايتها (عام اللؤلؤ – 2001) لتصبح من الروايات الأكثر مبيعًا في الجمهورية التشيكية. توقفت عن الكتابة إلى أن أصدرت عام 2012 روايتها الثالثة (الأسقف) والتي نقدم نسختها العربية تحت عنوان (ديتوكس).

ISBN 978-977-319-213-6
9 789773 192136 >

العربي للنشر والتوزيع
60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg